الموسوعة التاريخية
(العرب والإسلام)

عبد الملك بن مروان

تأليف

عمر أبو النصر

منشورات المكتبة الأهلية - بيروت

عبد الملك بن مروان

الطبعة الاولى
١٩٦٢

هذه الموسوعة

في تاريخ العرب والاسلام

هذا هو القسم الاول من الكتب التي سوف تصدر في سنة ١٩٦٢ من هذه الموسوعة :

١ ـ قصة العرب قبل الاسلام

٢ ـ سيد العرب

٣ ـ الجيش الاسلامي الاول وخالد بن الوليد

٤ ـ الخلفاء الاربعة : ابو بكر وعمر

٥ ـ « « : عثمان وعلي

٦ ـ معاوية بن ابي سفيان وعصره -- صدر --

٧ ـ عبد الملك بن مروان - صدر -

٨ ـ الايام الاخيرة للدولة الاموية

وسنعلن عن الكتب التالية وهي تحت التأليف الآن في حينها، واذا نحن بدأنا في نشر تاريخ الدولة الاموية قبل غيره ، فلان الاجزاء الخاصة بهذه الدولة قد تمّ تأليفها ، وستتبعها الاجزاء الباقية في حينها .. وهو ما سبقنا اليه كثير من علماء الغرب

حين عرضوا لأمثال هذه الموسوعات التاريخية ، يقدمون واحد منها عن الآخر ، لاستقلال كل كتاب بموضوعاته ، حتى اذا تمّ طبع الموسوعة ، استقامت اجزاؤها وتلاقت وتراصت ، والفت مجموعة فريدة في التاريخ العربي ..

اذار ١٩٦٢

هذا الكتاب

هذا الكتاب لون جديد وحديث طريف ولمحات في تاريخ الاسلام والعرب، وقصة صادقة تؤرخ لهؤلاء الابطال، الذين يُقبِلون على الدنيـــا فاذا مولدهم مطلع عهد جديد، ويمضون فاذا وفاتهم تاريخ .

وأحسب اني تعرضت في ماضيات ايامي لهذا النوع من التاريخ، فتتبعت تاريخ العرب والاسلام على النحو الذي رسمه الاقدمون، فاسلست قيـــاده، ونظمت فصوله، وضبطت حوادثه، ورسمت طرائقــه، على نحو جديد، وتقسيم وتبويب لطيف، لاني كنت واثقاً ان هذا التاريخ القديم، إذا تُرك وشأنه، سيفقد مع الايام تلك المقدرة على استهواء الخلف كما استهوى السلف..

ثم تقطعت الايام، ونفد ما انشأت من مؤلفاتي، واصبحت الحاجة ملحة الى النظر فيها وتهذيبها من جديد، لتساوق هذه اليقظة الحـاضرة، ولتساير هذا التطور السريـع في كل ألوان المعرفة والحضارة .

ثم بدا لي ان مـا وضعته لسنوات خلت، يحتـاج الى كثير من التعـديل والتحوير والتجديد، واني أحسن صنعاً اذا عمدت الى انشائه على نحو .. إن اتصل بالماضي، فليكن هذا الاتصال رقيقاً لطيفاً هيناً .

ثم رأيت ان خيراً من هذا كله، ان اعود الى ما كتبته فاقوّضه، ثم اكتبه من جديد، وأسيّره على النحو القومي الذي يجب ان يكتب فيه تاريخ امـة

جمعت بين المشرق والمغرب في سنوات ، ووصلت ما انقطع من حضارات الامم السالفة ، فالبستها ثوباً عربياً ، ثم مهرتها بعبقريتها ، وحملتها كاملة غير منقوصة الى الاجيال التي خلفتها ، فصدقت في الخدمة ، واحسنت في النقل وحفظت الحضارة الانسانية أن تضيع او تذوب .

والحضارة كما يقولون بناء تقيمه الشعوب في اوطانها ، وتقيمه الانسانية في الارض ، فاذا كان الذين ينهضون باقامة هذا البناء حذاقاً مثقفين ، كان بناؤهم متيناً رائعاً ، واذا كانوا جهالاً مقصرين ... كان بناؤهم مضطرباً واهناً ، سيء الشكل ، بعيداً كل البعد عن ان يلائم جمالاً او يذكر بخير ..

ولست الآن بصدد التبسط في هذا الكتاب من تاريخ العرب والاسلام ، ولا انا في سبيل الاعلان عنه ، والزهو به ، ولكني كاتب يسرني ان اقول انه جدير بعناية قراء العربية جميعاً ...

بيروت : اذار ١٩٦٢ **عمر ابو النصر**

- ١ -

ظهور بني مروان

ووصف الحالة السياسية في دمشق

الفترة المضطربة الجامحة :

لفت موت معاوية بن يزيد بن معاويه بن ابي سفيان انظار الذين يطمعون بالخلافة من بني هاشم وامية ، خصوصاً بعد ان ابى معاوية الثاني ان يستخلف احداً او يوصي باحد ، وقال :

- ليصل بالناس حسان بن مالك بن بحدل اربعين ليلة .. وتشاوروا في امركم واستودعكم الله » ..

ثم مات وحسان بن مالك على الجندين فلسطين والاردن ، والضحاك بن قيس الفهري على دمشق ، والنعمان بن بشير على حمص ، وسعيد بن مالك بن يزيد الكلبي ثم العليمي على قنسرين ، وعبيدالله بن زياد على العراق .. وعبدالله بن الزبير على مكة والحجاز ، قد اعلن خلافته وايّده كثير من الناس .

فلما بلغ اهل الامصار ما جرى من امر معاوية بن يزيد وكيف انه رفض

استخلاف احد بعده ، وثب كل جند على عاملهم ، فوثب زفر بن الحرث على سعيد ابن مالك فاخرجه من قنسرين ، ودعا الى طاعة ابن الزبير ، فاحتمل هذا ما كان في الخزانة العامة من المال ، ولجأ الى طيء وتنوخ فاجاروه ، حتى عاد الى دمشق ، وبايع النعمان بن بشير بحمص لابن الزبير ، وخلع بني امية ، واستخلف حسان بن مالك بن بجدل ، روح بن زنبـــاع على فلسطين ولحق بالاردن ، ووثب ناتل ابن قيس الجذامي فيمن تبعه من جُذام ولخم ، يدعو الى ابن الزبير ، وأخرج روح بن زنباع من فلسطين ، وبقي الضحاك بن قيس بدمشق عاملاً عليها ، يقدم رجلاً ويؤخر اخرى .. يظهر طاعة بني اميه ... ويدلي الى هذا الحي من قيس : ان ابن الزبير اولى بالامر .. ثم همّ بان يبايع لابن الزبير ... وهمّ مروان بن الحكم وكان شيخ بني اميــه ان يكون رسول الضحـــاك بالبيعة الى ابن الزبير ..

وكذلك نرى كيف استقبل امراء الاجناد وسكان الامصار تمزق الامر في الشام ، وكيف اخذ كل جند ومصر يفكر في الانحراف عن دمشق ، وتأييد ابن الزبير ، تأييداً كان ظاهر المنفعة ، بيّن الغرض ، واضح المصلحة .

ومن المؤكد ان امية قد انكرت موقف معاويه بن يزيد ، وهالها منه عدم تسمية شخص من امية يلي الامر من بعده ، وعدّت عمله مروقاً عن مصلحــة قومه وتقاليد شيعته ، لان امية لم توفق الى الخلافة إلا بعد عنــاء وتعب ودم كثير ، فانفراط الامر ، وهو لا يزال في دور الانشاء كان حـــدثاً خطيراً تتعرض معه مصالحها للانهيار والانحلال والتفكك .

اما موقف الاقطار العربيه الاخرى من معاوية بن يزيد ، فكان على نقيض ذلك ، رقّت هذه الاقطار لحالة هذا الخليفة البائس الذي يريد الاصلاح ويرغب فيه ، ثم لا يوفق الى شيء منه .. ولكنها لم تأخذ نفسها على الاستسلام لهذه العواطف الرقيقة ، فقد وجدت الموقف خطيراً والحالة جاهمة ، لابد لها من قرار سريع ، وتسوية عاجلة فكان ما كان من انحراف بعض رجالاتها عن اميه

التي كانت ولما تستقر على خليفة ، واندفاعها لتأييد ابن الزبير الذي كان يمثل نظاماً قائماً مهما يقل المؤرخون في ضعفه ، فانه كان على كل حال اثبت وافضل من الفوضى الادارية والسياسيه التي كانت تغمر الشام، ومن يؤيد امية من اهل الشام .

وزاد في ارتباك الموقف ، ان خالداً شقيق معاوية الثاني كان لا يزال شاباً يضطرب في العشرين من عمره ، والعرب تكره ان تولي امرهـــا فتى صغيراً وغلاماً حدثاً ، ولم يكن في بني سفيان سواه ، فلم يبق والحالة هذه إلا ان تفتش امية عن امير من غير بني سفيان ، وهو ما اخذ يبحثه بعض رجالاتها وما اخذ يفكر به مروان بن الحكم وولده ...

ولم يكن السوريون يؤيدون عبـــد الله بن الزبير ، ولا كانوا يفكرون في مبايعته بالخلافة ، الا ان يُحملوا على ذلك حملا ، وان كان امر ابن الزبير قد استفحل وفشا في طول الحجاز واطراف العربية ، فقد بايعه الحجاز والعراق ومصر وفلسطين ، واما سورية فكانت لا تزال منقسمة على نفسها ، وكانت دمشق تكره ان تذهب عاصمة الملك منها ، فيحتويها هذا الوجوم الذي يحتوي كل مدينة لا تكون قلب العربية ، ولسانها المفكر ، ولواءها الخفاق .

كان هذا رأي اكثرية السوريين ، وان كان بعضهم لا يرى كبير امـــر في مبايعة ابن الزبير ، بعد ان استفحل امره وفشا ، وكان هذا البعض يعتقد ان الامر سيؤول اليـــه حتماً ، لاجتماع كلمة اكثر الامصـــار العربية عليه ويرى من واجبه ومصلحته ان يعمل لابن الزبير لعله يعهد اليه بولاية الشام او يقاسمه سلطانه ، خصوصاً وابن الزبير كان يكره الاقامة في الشام ويفضل البقاء في الحجاز وبين الحرم .

كان هذا رأي الضحاك بن قيس القائم باعمال الدولة بعهد من معاوية الثاني الذي كلفه تصريف الامور مع الوليد بن عتبة ، ربما يتفق المسلمون على الخليفة الجديد ..

واما بنو امية فكانوا يكرهون الضحاك، ويكرهون ابن الزبير، ويريدون ان تظل الخلافة فيهم ، ولو كان في ذلك انقسام الامبراطورية ، واستقلال ابن الزبير بالاقطار العربية الشرقية ، كالحجاز والعراق وفارس وخراسان .

الاسرار السياسية في دمشق :

وقد لعبت السياسة السرية دوراً خطيراً في هذه الفترة المضطربة الجاهمة القلقة ، واكثر المصادر التي بين ايدينا عن الدور السياسي الذي قام بتمثيله غير واحد من رجالات امية في دمشق ، تعود بأكثرها الى مصادر عراقية ، لا تحمل في طياتها شيئاً من التحليل التاريخي للحوادث ، والاسانيد المذكورة في تاريخ (الطبري) مضطربة قلقة بعيدة عن الحبك والانسجام .

ولكن الشيء المؤكد هو ان خلافة معاوية الثاني لم تنقص عن اربعين يوماً ولم تزد عن ستة اشهر ..

كما ان المؤكد ايضاً ان عبدالله بن الزبير اعلن خلافته في الحجاز ، وايدته مصر ، واما فيدمشق فقد كانت الحالة مضطربة كل الاضطراب ، وكان الضحاك بن قيس يمثل ثلاثة ادوار : كان يعمل لمصلحته ، وكان يحاول التقرب من ابن الزبير ، وكان يساوس بني امية في دمشق لا يريد ان يقطع الحبل معهم ، او يظهر بمظهر الشخص الذي يريد ابعادهم عن الخلافة ..

ابن زياد في العراق :

اما في العراق ، فقد احدث خبر موت يزيد ، وما تلاه بعد ذلك من تخلي معاوية ابنه عن الخلافة ، واضطراب الامر في العاصمة الاموية ، رجة عظيمة في الاوساط الشعبية العراقية ، ووجد العراقيون الفرصة سانحة للثورة ، وتمزيق ما كان يصل بينهم وبين دمشق ، وكان عبيدالله بن زياد عامل امية في العراق بالبصرة لما بلغه موت يزيد واختلاف الناس في دمشق ، فتحير في امره ، وأسقط في يده ، ولم يكن يجهل ما يتعرض له من نقمة العراقيين عليه وسخطهم

على سياسته ، وحرصهم على الثأر منه لما بدر منه في وقعة كربلاء ، ولكنه كان لا يزال مطمئناً الى نجمه كما يظهر، فدعا اهل البصرة الى الاجتماع في المسجد، حيث يصار الى اعلان سياسته الجديدة ، وما يحاول اعتزامه من قرارات بصدد التطور الحاضر ، وكان المسجد في العصور الاولى مركز الحركة الدينية والاجتماعية والثقافية والسياسية ، بحيث يصح ان يقال بأنه برلمان الاسلام الاول، وكان ابن زياد في الخامسة والثلاثين من عمره في هذا العهد ، وكان يعلم الى هذا انه سيلاقي من اهل البصرة معارضة شديدة ، وان سلطانه بينهم قد اصبح ضعيفاً قلقاً ، ولكنه لم يقنط ، ولم يتوله اليأس ، مؤمناً بأن الموقف لا يزال في يده ، وانه يستطيع الاعتماد على بعض شيعة عثمان من اهل البصرة ، واما في الكوفة فكان الامر على خلاف ذلك ، لان اكثر اهلها كانوا من الشيعة الذين يكرهون ابن زياد وسياسته كرهاً شديداً ..

وكان الى هذا كله يعتمد ايضاً على ذكائه وحسن سياسته ، وما لديه من مال الامة يبذله في سبيل تألف الناس والاحزاب حوله ..

وافتتح عبيدالله الاجتماع بخطبة لبقة معتدلة خلافاً لعاداته السابقة ، واشار في خطبته هذه الى ما قامت به عائلته من خدمات في العراق عامة والبصرة خاصة ، وقال انه ابن البصرة ، ولا يرغب إلا ان يكون منهم ولهم ، يخدمهم ويحافظ على مصالحهم ، وكيف ان عدد المقاتلة في عهده قد اصبح عشرة الاف يتناول واحدهم من بيت المال في السنة ما لا يقل عن الف درهم . عدا ما كان يصيب عائلاتهم من المساعدات المختلفة ، ثم اخبرهم باختلاف الناس في دمشق ، وقال : « انتم اليوم اكثر الناس عدداً واوسعهم فناء ، فاختاروا لانفسكم رجلاً ترضونه لدينكم وجماعتكم ، فانا اول راض من رضيتموه ، وان اجتمع اهل الشام على رجل ترضونه لدينكم وجماعتكم دخلتم فيما دخل فيه المسلمون ، وان كرهتم ذلك كنتم على احد يليكم حتى تقضوا حاجتكم ، فما بكم الى احد من اهل البلدان حاجة ، ولا يستغني الناس عنكم » .

وقد سرّ اهل البصرة مـــا اظهره عبيدالله من ضعف واستكانة ورغبة في الاتفاق معهم ، فبايعوه على ان يلي امرهم ريثما يتفق الناس ، ولا يبعد ان يكون عبيدالله قد دفع بعض انصـاره الى الدعوة له حين ينتهي من خطبته ، ولما كان اهل البصرة لم يتفقوا على احد منهم ، وكان عبيدالله قد فاجأهم ببيانه هذا فقد رضوا به ، ريثما ينالون من بيت المال ما وعدهم به من عطاء ونوال ..

ويقول الطبري : ان اهــل البصرة قد انصرفوا من المسجد بعد البيعة وهم يقولون :

« لا يظن ابن مرجانة اننا ننقاد له في الجمـــاعة والفرقة ، كذب والله .. ثم وثبوا عليه » .

واقام عبيدالله اميراً عليهم غير كثير ، حتى جعل سلطانه يضعف ، ويأمر بالامر فلا يقضي ، ويرى الرأي فيردّ عليه ، ويأمر بحبس المخطيء فيحال بين اعوانه وبينه .

واحسّ عبيدالله بعد ايام بموقفه الخطر ، فرأى ان يهرب الى الشام قبل ان يستفحل الامر ، ويناله من اهل البصرة اذى او نكر .

واخيراً وثب اهل البصرة بعبيدالله ، واخرجوا الرايات ، كل قبيلة اخرجت راياتها ، فلم يبق احد إلا خرج لسوء آثار عبيدالله فيهم ، وقام سَلمة بن ذؤيب الرياحي او الحنظلي في المربد فقال :

— ايها الناس من ينصر الله .. من ينصر الكعبة ، من يعين على ابن سمية —ابن زياد— .. فثار الناس لكلامه وهاجوا ..

وخرج الخوارج من السجون — ويقـال ان ابن زياد حبس منهم في مدة حكمه على العراق اربعة آلاف رجـل — فاجتمعوا في المسجد ، وعبيد الله في القصر قد اخذ بابوابه ، واخذت العرب بافواه السكك والدروب ، فاستجـار

ابن زياد بالحرث بن قيس الازدي ، ثم بمسعود بن عمرو سيدالازد .. فأجاره وخرج من قصره في زي امرأة ، فسار حتى اتى مسعود بن عمرو مستجيراً فاجاره ، ثم سيّره الى الشام .

ثم اختار اهل البصرة عبدالله بن الحرث بن نوفل اميراً عليهم ، واقبلوا به الى دار الامارة ، وذلك في جمادي الآخرة من سنة ٦٤ للهجرة .

واما اهل الكوفة فقد طردوا عاملهم واجمعوا على عامر بن مسعود ، وكتبوا الى عبدالله بن الزبير بالبيعة فارسل اليهم العمال ..

وكذلك فعل اهل خراسان ، فانهم اخرجوا عاملهم سالم شقيق عبيدالله بن زياد ، وكان افضل من شقيقه واصلح ، ولكن سوء سياسة اخيه في العراق اثارت الناس عليه ، وحملتهم على طرده ..

وفي هذه الفترة ايضاً دخل اهل مصر في طاعة ابن الزبير ، وانضمت فلسطين اليه ايضاً بواسطة زفر بن الحارث القيسي نكاية ببني كلب الذين كانوا يؤيدون ابناء يزيد بن معاوية، لان ام يزيد كلبية ، وام خالد بن يزيد كذلك .

كما انضمت حمص الى ابن الزبير بحيث لم يبق الا اهل الشام وحدهم لا يدينون بالطاعة لابن الزبير ، ولو مشى ابن الزبير الى الشام في هذه الفترة ، وبعد ان دانت اكثر الامصار العربية لخلافته ، لكانت الخلافة له حتماً، ولكنه كان رجلا ضعيف الايمان بنفسه ، قليل الثقة بانصاره ، فكان ضعفه هذا من اسباب فشله .

خطأ عظيم :

وقد ارتكب ابن الزبير الى هذا خطأ كبيراً كان بعيد المصاير في تاريخ الامبراطورية الاسلامية العربية ، وذلك باخراجه مروان بن الحكم وهو شيخ امية ، من المدينة ، وكان مروان يقيم اكثر الوقت فيها ، فلم يكن بينه وبين اهل الشام تآلف ولا مخالطة ، وكان بنو امية من سكان الشام ينكرون عليه

تدخله في شؤونهم ، ويعدونه بعيداً عنهم ، ثم انه كان يجد في اختلاف الامويين في الشام دليلاً جديداً على ان الخلافة لن تكون لهم ، وان ابن الزبير ، وقد استفحل امره وفشا شأنه ، لا بد واصل اليها ، غالب اهل الشام عليها .

ثم ان مروان كان اقرب الامويين الى الخلافة ، لسنه وشيخوخته ، وكان من مصلحة ابن الزبير ان تظل امية مختلفة على نفسها ، وان لا يصار الى جمعها في صعيد واحد ، بحيث تؤلف كتلة واحدة قوية ، تستطيع الاجتماع عليه ومحاربته ،وقد صار الاجلاء كما يظهر بعد موت معاوية بن يزيد ، فانه لما مال الناس الى ابن الزبير ، كتب هذا الى عبدالله بن حنظلة عامله على المدينة : « اذا جاءك كتابي هذا فاخرج بني امية من المدينة الى الشام » .

ففزع مروان الى ابنه عبد الملك فذكر له ذلك ، فقال عبد الملك :

– هذا رأي انفرد به ولم يشاور اهل المشورة عنده ولو استشارهم لأشاروا عليه بغيره ، فاستفد من هذه الفرصة ..

فقال مروان : كيف وانت مريض ؟ ..

قال عبد الملك : ليس بي بأس احملوني في هودج ..

ثم لما شاور ابن الزبير اهل الرأي من انصاره ، اشاروا عليه بغير ذلك ، فكتب الى عبدالله بن حنظلة :

« اما بعد فاني كتبت في اخراج بني امية ، فاذا اتاك كتابي هذا فاقرّهم على سكناتهم » .

فكتب اليه ابن حنظلة بمسير القوم ، فكتب ابن الزبير :

« من عبدالله ابي بكر امير المؤمنين الى مروان بن الحكم ، اما بعد فقد بلغني خروجك الى الشام ، وارصادك الفتنة ، فاذا جاءك كتابي هذا فارجع الى منزلك ، والا فاني اعطي الله عهداً ، اني لا ادع لك خضراء الا قطعتها ولا بيضاء إلا نسفتها » ..

فكتب اليه مروان :

« من مروان بن الحكم الى عبد الله بن الزبير ، اما بعد فقد جاءني كتابك تذكر خروجي الى الشام وارصادي الفتنـــة ، وتأمرني بالرجوع الى منزلي ، وتقسم لئن لم افعل ان لا تدع لي خضراء إلا قطعتها ، ولا بيضاء إلا نسفتها ، وليس لي الا ان اقول : «لا حول ولا قوة إلا بالله» ، فمثلي ومثلك يا ابن الزبير ما قال حصين بن الحمام للنعمان :

فلست بمبتاع الحيـاة بسبة ولا مرتق من خشية الموت سلما

وكذلك مضى مروان بن الحكم الى الشام ، كما اراده ابن الزبير ان يفعل وكان مروان اقرب الامويين الى الخلافة ، فكأن ابن الزبير والحالة هـذه قد ارسل الى الامويين المضطربين المختلفين في دمشق ... الشخص الذي يجتمعون حوله ، ويتفقون جميعهم عليه ..

مروان في دمشق :

ولما وصل مروان الى دمشق اقام يدرس الحـــالة ويبحث الموقف ، ثم اتصل بالضحاك بن قيس ، او اتصل الضحـاك به ، وبحثا الموقف سوية ، ثم اتفقا على ان يكون مروان رسول الضحاك ال ابن الزبير ، فيأخذ منه اكثر ما يعطيه ، مقابل مبايعة الشاميين له بالخلافة ، فلما عرف بهذا الاجتماع ونتيجتـه عمرو بن سعيد بن العاص قال لمروان :

ـ بينا انت المرجو ، وشيخ قريش اذ صرت رسولاً لاخي فهر - يريد الضحاك ـ وما انت من الامر ببعيد .

وقال له عبد الملك ابنه :

ـ لست اشك مع الاختلاف الذي ارى ان الامر صاير اليك ..

فجعل مروان عند ذلك يلقي الكلام الي الرجل ، ويضرب الامثال بحلم آل ابي سفيان وعقولهم وجودهم ويقول :

— « وبنو ابيهم منهم ومثلهم » ... ويذكر الحساد ابن الزبير واستحلاله الحرم مع جمعه الاموال ، وبخله وقلة بذله ..

ولكن موقف الضحاك في دمشق كان يجعل الموقف السياسي مثقلاً بكثير من الغموض والابهام ، فبينا تراه يهوى هوى ابن الزبير ويعمل له ، تراه يتألف الامويين ويمالئهم كأنما هو يريد العمل لهم وانتخاب احدهم لمركز الخلافة ، ولكن الحقيقة انه كان مضطرب الرأي ، ممزق الاهواء ، لا يدري اين يضع قدمه ، ولا كيف يقرر مصيره ، خصوصاً بعد ان استقل بحكم دمشق والقى بالوليد بن عقبة زميله في الحكم او مجلس الوصاية .. في غياهب السجن .

سياسة مروان الجديدة :

واما مروان فان حديث عمرو بن سعيد له ، وحديث ابنه معه قد اثارا في نفسه قلقاً عظيماً وطمعاً كبيراً ، وما كان يدور في خلده ان تصل اليه الخلافة بهذه السهولة في يوم من الايام ، ولهذا قرر اتباع خطة جديدة ، فلزم المسجد ، او لزم كما يقول المؤرخون سارية في المسجد — مسجد دمشق — كما كان يفعل العلماء والفقهاء في مساجد الكوفة والبصرة ، يلزمون سارية من سواري المسجد ويجلس حولهم الناس يحاضرونهم ويعلمونهم ويحدثونهم .. واما مروان فقد لزم السارية وحده ، واخذ يتصنع ويتظاهر بالنسك والعبادة ، والناس حوله يتراوضون فيمن يستخلفون ، وكان الذين يختصمون حول من يستخلفون جماعة منهم مالك بن هبيرة ، وسعيد بن حمزة الهمداني ، وزمل بن عمرو ، وروح بن زنباع ، وعبد الله بن عامر ، وجُنادة بن أبي امية ، وشرحبيل بن ذي الكلاع ، وحسان بن مالك بن بحدل في عدة من وجوه الناس ، واشراف العرب .

كانوا مختلفين ، بعضهم يريد تأمير عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وطائفة تريد ابن الزبير ، واجتمعت اليمانية على خالد بن يزيد بن معاوية ،

لمكانة يزيد فيهم وقرابته بهم .

ومرّ روح بن زنباع بمروان وهو يصلي الى تلك السارية لا يجتمع الى احد من الناس ، فدعاه مروان اليه ، ثم قال له :

– يا ابا زرعة انك من هذا الامر بصدد ، واني لا اعلمك من امري الا ما قد علمت ، انا ابن عم امير المؤمنين عثمان ، وخليفته في الدار ، والذي اوصى به بعده ، فلا تدع من ذكرنا ما انت اهله ، ومهما نسيت من شيء فلا تنسَيّن ان تذكر سني ونظري وتجربتي وقرابتي بامير المؤمنين عثمان ، مع الشدة في الحدود ، والعفاف في الاسلام وبذل ذات اليد مع بخل ابن الزبير وجمعه ومنعه .

فقال روح لمروان : امرت بمعروف واوصيت كافياً ..

ويحدثنا روح بعد ذلك فيقول : فجئت مجلس الملأ فاذا هم يقولون ابن عمر وابن الزبير ، فقلت : ما يمنعكم من هذا الشيخ من قريش – واشرت الى مروان – وهو ابن عم امير المؤمنين عثمان وقد أُمّر عشر مرات ، ونزع عشر مرات ، كل ذلك وهو لا يسخط ولا يخالف ، ولا يُعدل عن خيانة .

فقالوا : ابن الزبير اصلب منه ، وابن عمر افقه .

فقال روح: اما ابن عمر فرجل قد شغلته عبادته ، واما ابن الزبير فمن اكثر منه غلظة وتجهماً وبخلاً ، وبنو امية اسمح اخلاقاً ، واعطى لهذا المال ..

ثم مرّ روح بمروان بعد ذلك وهو يصلي فرماه بحصاة فاتاه ، فقال مروان:

– وصلك الله يا ابن اخي وجزاك خيراً ، قد بلغني ما قلت في بني امية وابن الزبير ، والله ما ابن عمر افقه مني الا انه اسنّ مني وكانت له صحبة ، ومـا ابن الزبير باصلب مني الا بالخلاف على الامراء وانا لا استحل ذلك .. والاستئثار بهذا المال وجمعه ومنعه اهله ، وقد علمت قريش اني اصلبها واشدها على المريب .. واغلظها في ذات الله فلا تنسين هاتين رحمك الله ..

وكذلك يعود مروان بن الحكم الى الساحة السياسية بعـد ان غادرها

وانزوى في المدينة ما يقرب من ثلاثين سنة تقريباً ، الا ما كان من تكليف معاوية لهببعض الاعمال في عهده ، ومروان هذا هو الذي كان كاتباً لعثمان بن عفان في ذلك العهد المضطرب مدة خلافته- ٦٤٤ -٦٥٦ - كما انه كان في اثناء هذه الوظيفة يسيطر على الخليفة الشيخ سيطرة كاملة كان لها اثرها في اختلاف الناس عليه وثورة الامصار على خلافته وسياسته .

واما ما يقوله(لامنس)من ان معاوية نفسه كان يخشاه على الخلافة بعد موته فامر لم تقم عليه حجة ، وما نعرف مصدراً تاريخياً يؤكد ذلك ، كما اننا لانجد مروان يتحفز للخلافة ويفكر فيها إلا بعد ان اغراه بنو امية ، وذكروا لهانه ليس بعيداً عنها ...

- ٢ -

اتفاق الاراء في دمشق

وظهور مروان بن الحكم

الحالة في دمشق

مما يلفت النظر في امر سكان دمشق من اهل اليمن وغير اهل اليمن ، ان بعضهم كان يناصر الضحاك ويؤيده على قدر ، ولعل سبب ذلك انقطاع الصلة بين هؤلاء وبين ابي اميه بسبب موقف يزيد بن معاوية ، وتفضيله (حوارين) على دمشق ، واشتغاله بها عن العاصمة الخالدة ، ويظهر لنا في الوقت نفسه ان هذه الثورة السياسية التي تمزقت فيها دمشق ، قد عملت على تقريب الناس الى الزعماء السياسيين وتعرفهم عليهم ، وقد كان هناك من هؤلاء الزعماء ، مروان بن الحكم ، وعبيدالله بن زياد ، وابن بجدل ، والضحاك بن قيس ، وعمرو بن سعيد الذي يلقب بالاشدق ، والذي صار حاكماً على المدينة في ايام معاوية والذي كان يعيش منذ سنوات في سورية ، وقد استطاع في اثناء ذلك ان يخلق لنفسه زعامة في دمشق وانصاراً من بني اميه يؤيدونه ويناصرونه .

بين الشمال والجنوب :

ولا يجب ان ننسى في الوقت نفسه هذا الخــلاف الذي كان مستقراً بين القيسيين والكلبيين او اهــل اليمن من سكان سورية ، اي بين الشمال والجنوب من سكان الجزيرة العربية ، فان محاولة يزيد ومعاوية قبله التقرب من اهل اليمن والتزوج بأمرأة كلبية، كانتا من الاسباب التي آذت القيسيين وجعلتهم يعارضون سياسة آل ابي سفيان ، ويعملون على تمزيقهم ، وتأييد خصومهم، خصوصاً بعد ان عين يزيد بن معاوية سعيد بن مالك بن بحدل على قنسرين وهو كلبي وشقيق حسان بن مالك بن بحدل ، مما جعل آل بحدل يتصرفون في ثـلاثة من مراكز الجند في سورية، وهو ما اغضب القيسيين الذين كانوا يؤلفون قوة لا يستهان بها في هذه الامصار ،ولا يرضون ان يكون حاكمهم كلبي ، ومع ذلك فان غضبهم هذا لم يتعد في ايام يزيد الاقوال ، فلمـــا انتقل لمآبه ، وقفوا باجمعهم موقف المعارض لأحد من آله يلي الخلافة بعده .

وكان من وجوه بني قيس في قنسرين زفر بن الحارث الذي رأيناه في جيش مسلم بن عقبة لما ارسله يزيد لاقتحام المدينة ، فلمــا مات معاوية الثاني انقلب هذا الشخص الذي كان يؤيد اميه الى تأييد ابن الزبير نــكاية ببني كلب ، كما أثار الفتنة في قنسرين التي اضطربت بين القبائــل العربية من يمنية وشمالية ، وطرد عامل بني اميه منها ، وانضم اليه النعمان بن بشير عامل حمص الذي كان يكره يزيد بن معاوية الذي لم يعاقب الاخطل الشاعر النصراني الذي هجـــا الانصار وسبهم .

واما الضحاك بن قيس فكان يرقب من مـكانه في دمشق الاضطرابات التي كانت تزداد حوله محاولاً في الوقت نفسه ان لا يقطع العـلاقات بينه وبين ابن الزبير .. ولا بينه وبين الامويين في دمشق ، مستغلاً كل هـــذه الخصومات لمصلحته اولاً .. ولمصلحة قبيلته ثانياً ...

والخلاصة انه لم يكن هناك غير جند الاردن محافظاً على اخلاصه لبني امية، لان هذا الجند كان مؤلفاً بأكثريته من بني كلب وعلى رأسهم ابن بجدل .

سياسة بني كلب

ولقد كان لبني كلب اثر فعال في خلافة المروانيين ، وهم قبيلة عربية بدوية دانت بالنصرانية منذ عشرات السنين، وكانت تنزل قريباً من تدمر على الارجح، وفي منتصف القرن السابع الميلادي كان زعيم بني كلب (بجدل بن انيف) الذي يختلف المؤرخون في دينه فيزعم بعضهم انه كان نصرانياً ويقول آخرون باسلامه ، ولكن المؤكد ان رياسة بني كلب في الاسلام انتقلت لبنيه من بعده وكانوا من المسلمين [1] وقد توارثوا هذه الرئاسة على الكلبيين اباً عن اب وجداً عن جد ، واذا احتفظ لنا التاريخ بالكثير من اخبار بني كلب ، فلأن معاوية بن ابي سفيان قد تزوج امرأة من آل بيت الزعامة والرئاسة فيهم هي ميسون ، التي ولدت له يزيداً ولي عهده من بعده ...

ونجهل فيما اذا كان (بجدل) هذا قد حارب في صفوف المسلمين عند الفتوح في سورية، او كان موجوداً في الجيش عند حصار دمشق، ولكن الذي نعرفه انه ظفر ببعض غنائم هذه الفتوح، وانهم اقطعوه بعض الاراضي الرومية التي تركها اصحابها ومن المفروض ان يكون هذا الاقطاع نتيجة مفروضة لخدمات قدمها، فاذا انتهت الفتوح واستقر الاسلام في ربوع الشام انقطعت اخبار بجدل ابن انيف ، زعيم الكلبيين ، وفي معركة صفين لم يكن بجدل حاضراً ، وانما كان بنوه يتزعمون قضاعة ، ويأخذون مكانهم بين الجنود السورية الموالية لمعاوية، ومن المؤكد انه مات قبل هذا العهد ...

ولقد ورث بجدل بعد موته ابناؤه ، وكان زواج معاوية بميسون شقيقتهم

(١) نهاية الارب في معرفة قبائل العرب ، احمد بن عبدالله القلقشندي .

من الاسباب التي قدّمتهم في الدولة ، وجعلت لهم شأناً منظوراً في سياستها ، خصوصاً بعد ان ولدت يزيداً ولي عهد الخليفة الاموي الاول ، ولما كانت ميسون هذه تنعم بشرف الزعامة في قبيلتها ، فقد راح بعض المؤرخين يقولون عن يزيد انه اخذ بطرفي الشرف نظراً لشرف عائلته من ابيه ، وشرف عائلته من امه ، وقد وفق معاوية ما في ذلك شك في هذا الزواج الذي خلق له ولابنه من بعده عصبية قوية بين الكلبيين الذين كانوا من القبائل العربية القوية ، خصوصاً بعد ان اخذ معاوية يتقرب من هذه القبيلة ويستميلها اليه بالمال ، فخصّ الفين من رجالها بشرف العطاء ، اي بالفي درهم في السنة لكل واحد منهم ، وهو مبلغ كان يدفع للمقاتلة منهم ، ولكنه كان خاصاً بفئة من الناس ومن اشراف الناس طبعاً فادخال كلب بين الاشرف كان يرمي الى تقريبهم من معاويه ، دعماً للملكه وتقوية لعصبيته في بلاد الشام .

وكان حسان بن بحدل يعتبر زعيماً لبني كلب وكان يناصره بعض اليمنية الموجودين في سوريه من مؤيدي سياسة بني كلب في امر الخلافة ، وضرورة الاحتفاظ بها لبني امية ، وكان الكلبيون كما قدمنا يؤيدون آل ابي سفيان لان معاويه كان قد تزوج ميسون ابنة بحدل زعيمهم الاكبر ، وكان يزيد ابن معاويه بن ميسون الكلبية كما قدمنا ، وكان خالد بن يزيد مرتبطاً مع بني كلب بصلة من النسب لان ميسون هذه كانت جدته ، ولما توفي يزيد بن معاويه كان حسان بن بحدل عاملاً له على فلسطين ، فلما توفي معاويه بن يزيد وهو نسيبه وقريبه ، وترك الخلافة يختار لها المسلمون من يشاؤن ، غادر حسان فلسطين بعد ان عهد بولايتها الى روح بن زنباع ، وذهب الى الاردن حيث اقام بين قبيلته من بني كلب ليكون على مقربة من دمشق ، بعد ان استشعر ان الاختلاف حول الخلافة سيكون شديداً قاسياً .

واما روح بن زنباع وكيله في امارة فلسطين ، فقد طرده اهلها وبايعوا ابن الزبير .

كان الموقف كما قدمنا يزداد حراجة واضطراباً ، وابن الزبير يزداد قوة وشأناً، فكان على الامويين المخلصين لبني امية ان يقرروا موقفهم ، وكان عليهم قبل ذلك ان يستوثقوا من الضحاك بن قيس الذي كان من المقربين الى معاويه ومن يزيد ابنه بعده ، والذي كان في الوقت نفسه يسيطر في دمشق على بيت المال ومخازن السلاح وبيت الامارة، وكان كما قدمنا يستغل الموقف لمصلحته الشخصية.

عندئذ اخذ حسان بن بجدل يجس نبض جماعته من بني كلب، فلما استوثق من طاعتهم له واخلاصهم للمبدأ الاموي ورغبتهم الملحة في ان تظل الخلافة في بني امية وفي آل سفيان بصورة خاصة لهذه المصاهرة التي كانت بين معاوية وبين بني كلب كما قدمنا ، واستوثقوا هم بدورهم منه ان يجنّبهم هذين الغلامين، عبدالله وخالد ابناء يزيد وقالوا له وهم يحاورونه :

- اننا نكره ان يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بغلام ...

وفي هذا ما يدل على نفور العرب خصوصاً الذين لا يزالون قريبي عهد بالبداوة منهم .. من تأمير الغلمان وقبول رئاسة الصبيان ..

عندئذ قرر حسان ان يتحدث الى الزعماء بصراحة بشأن الموقف الحاضر.

واما عبيد الله بن زياد فان بعض المؤرخين كابن سعد مثلاً يذكر لنا فوق ما ذكرناه عنه انه فيما هو في طريقه الى دمشق التقى بمروان بن الحكم وعمرو الاشدق وهما في طريقهما الى ابن الزبير فاقنعهما بلزوم العودة الى دمشق ، وقد صار اللقاء في (اذرعات) وهي في الواقع بلد يقع على مفرق الطريق بين الشام ومكة ، وبين البصرة والشام ، وهذا يدل طبعاً على بصر ابن سعد بالجغرافيه ، ويدل في الوقت نفسه على ان دليل ابن زياد قد اخذ به في اقصر الطرق واقربها من البصرة الى الشام ، ومن المفروض ان هذا الاجتماع وقع فعلاً قبل ان اخذ مروان بالتصنع والتظاهر بالنسك، ولزوم سارية المسجد في دمشق ... كما ان ابن سعد يقول ايضاً ، انه لما وصل ابن زياد الى دمشق

اخذ يتقرب الى الضحاك ويدعوه الى مبايعة نفسه بدلاً من مبايعة ابن الزبير ليفقده نفوذه في دمشق ، وليرغمه الى ازالة الستار او القناع الذي كان يقيمه فوق وجهه ، فيظهر امام الناس بمظهره الحقيقي .

ولكن دهاء الضحاك كان ابعد غوراً من دهاء ابن زياد ، فلم يؤخذ بالحيلة، وتولاه الشك من عودة مروان وعمرو الاشدق الى العاصمة .. فاخذ يظن بالجميع الظنون ..

عندئذ رأى حسان بن بحدل من مقره في الاردن ان يستبق الحوادث قبل ان تسبقه فكتب الى الضحاك كتاباً طلب منه ان يقرأه في المسجد بصلاة جامعة ، مذكراً اياه بما افضاه اليه بنو امية من خير وسلطان ، منتقداً فيه مبايعة ابن الزبير وتأييده وهو الذي ناصب جميع الخلفاء الامويين العداء ، داعياً الى تأييد بني امية .

فاحس الضحاك بالمكيدة فلم يقرأ الكتاب بعد صلاة الجمعة ، ولكن رسول ابن بحدل كان يحمل نسخة ثانية من الكتاب ، فلما رأى تثاقل الضحاك وقف بين الناس وقرأ الكتاب ، فاحدثت قراءته ضجة عظيمة في المسجد ، ايده قوم ، وانكره آخرون ، وحدثت مشاحنة ومنازعة بين انصار الامويين وانصار ابن الزبير ، اتخذ الضحاك منها سبباً لاستعمال الشدة .. فقبض على انصار بني امية ، ومن رفع صوته في المسجد عالياً منهم ، وزجهم في السجن فانقذهم بعض انصارهم ، وكان بين الذين صار زجهم في السجن الوليد بن عقبة الذي كان يشارك الضحاك مسؤولية الحكم بامر من معاوية الثاني قبل موته ، والذي كان الضحاك يريد ابعاده والخلاص منه .

ويذكر المؤرخون فيما يذكرونه من حديث هذا الاختلاف الذي وقع في المسجد ان خالداً بن يزيد بن معاوية تدخل في الامر ، ودعا الناس في المسجد

الى الهدوء والسكينة ونبذ الخلاف والشقاق [1] .

وكذلك ظهر الانقسام بين اهل الشام ظهوراً بارزاً واضحاً ، وفشا في مختلف الاوساط والجماعات الشعبية ، فمنهم من كان يؤيد ابن الزبير لوثوقه بنجاحه بعد ان بايعته اكثر الامصار العربية ، ومنهم من ظل موالياً لبني امية عصبية لهم ، ونكاية بخصومهم واعدائهم .

ومما يلفت النظر في حوادث هذا اليوم ان ابن بجدل طلب من الامويين حضور المسجد للاستماع الى كتابه ، فحضره بعضهم وتخلف البعض الآخر ، وكان مروان بن الحكم بين المتخلفين ، فلماذا لم يحضر صلاة الجمعة في المسجد ، ولماذا لم يظهر بين الامويين الذين رفعوا الصوت عالياً في تأييد ابن بجدل ؟؟

هل يدل هذا على انه كان قليل الامل في نجاح الامويين ؟ ام انه كان يعلم كره الكلبيين لبني مروان وعدم اهتمامهم بهم ، اذ كانوا يحسبونهم غرباء عن سورية، لان بني مروان في الواقع كانوا يقضون اكثر اوقاتهم في الحجاز .. ولا يزورون دمشق الا نادراً ...

والذي يبدو لنا ان مروان نفسه لم يكن واثقاً من شيء في هذا العهد المضطرب ، وكان الى ذلك صاحب مصالح واموال في الحجاز فكان يخشى خسرانها ، كما هدده ابن الزبير بذلك لما علم بمغادرته المدينة الى دمشق ، ثم انه كما يظهر كان يحاوله التقرب الى العلويين وغير العلويين بعد الفشل الذي منيت به سياسته في ايام عثمان بن عفان ،وبعد ان اخذ الناس يعتبرونه مسؤولاً عن الكارثة العثمانية .

واخيراً يظهر لنا انه كان يخشى الثورة الاهلية ، والثورة الاهلية شر عظيم في نظر الشيوخ ، والشيوخ الى ذلك يفضلون الراحة والدعة على العراك

(١) يسمي المؤرخون هذا اليوم الذي صار فيه الاختلاف بالمسجد (بيوم غيرون) وغيرون اسم اثر قديم يقع بالقرب من الباب الشرقي للمسجد .

والحرب ، إلا ان يكرهوا على ذلك ، ثم ان مروان صرف كل حيـــانة في الحجاز ، فكان الامويون في دمشق يعتبرونه غريباً عنهم ، وكانت بقيـــة الجماعات لاتعترف بفضله ، وتقابله بكثير من الفتور وعدم الاهتمام ، وهذا كله كان يحمله في كثير من الاحايين – وامام هذه الاختلافات العظيمة القائمـــة في دمشق – على التطلع الى ابن الزبير الذي كان نجمه يزداد تألقاً وسلطانه يعظم قوة ومتانة ..

واذاً فلا عجب ان نعجب اذا رأيناه يركب جمله فعلاً في طريقه الى الحجاز حيث التقى بعبيدالله بن زياد في (اذرعات) فرده هـذا الى دمشق ، ونفخ فيه روحاً جديدة جعلت منه رجلاً جديداً متأهباً لكل طارىء ، داعياً الى نفسه بالحيلة ، والتظاهر بالتقوى والصلاح ..

عبيد الله بن زياد :

وكان نزول عبيدالله بن زياد الى دمشق بعد كل الحوادث التي ذكرناها بدء عهد جديد ، فقد فطن عبيدالله الى ان الناس لا يدينون بالخلافة والطاعة لصبي من بني امية ، وادار نظره حوله فلم يجد غير مروان بن الحكم شيخ بني اميـة وكبيرهم، والذي لم تكن له عصبية في سورية كعصبية عمرو الاشدق مثلاً تلتف حوله ، وتستولى على كل المناصب والاموال ، ثم ان ابن زياد كان يريد العمل لشخص يحفظ له هذا الصنيع ،ويقرّبه اليه بعد نجاحه ، ويعتبره سبب شهرته وظهوره ، وهذه النظرية كانت نظرية اليمنية ايضاً ، فقد كانوا مثل ابن زياد يريدون الالتفـاف حول شخص يظهر بهم ، ويقوم على سواعدهم ، ويكون مديوناً لهم بعرشه وخلافته .

وكذلك يتبدل الموقف السياسي تبدلاً خطيراً بظهور عبيـد الله بن زياد في دمشق ، وكان ابن زياد كمـا يظهر لنـا ، وبعد ان التقى بمروان بن الحـكم في طريقه الى ابن الزبير ، قد بحث الموقف السياسي من جميع اطرافـــه ، وادار

رأسه في مختلف وجوهه فوجد ان الحياة لن تستقيم له مع غير بني اميـــة ، وانهم وحدهم الذين يقدرونه ويجلون مواهبه ، ويذكرون خدماته وخدمات والده في سبيل سلطانهم وتوطيد ملكهم ، كما ظهر له من اختلاف اهل الشام فيما بينهم صعوبة حملهم على البيعة لابناء يزيد ، وكلهم صغير ، والعرب لاترضى بالامراء الاطفال .

فاجال عندئذ نظره في رجال امية ، فلم يجد بينهم غير مروان بن الحـكم فاعتمد الانضمام اليه وتأييده ، واكتساب عطفه ومودته ، وفتقت له الحيـلة رأياً يوفق به بين الخصوم ، ويجمع بين القلوب المتنـــافرة ، فقرر ان يدعو لمروان بن الحـكم ولخالد بالخلافة من بعده ، ومروان رجل شيخ ، لايلبث ان يذهب الى ربه ، ويكون خالد قد بلغ اشده ، واستوى شاباً يافعاً ، فلا يعود هناك سبب لانكار العرب بيعته ، وتهربهم منها ، فيجمع بين انصار خـــالد وجماعة مروان ، ويوّحد في الوقت نفسه بين صفوف الجميـع من اميـة وانصار امية ، امام هذا الخطر الداهم الذي سيذهب بسلطانهم اذا ظلوا على تنـافرهم وخصوماتهم ..

ويحدثنا المؤرخون كيف راح عبيدالله بن زياد ، بعد ان وصل الى دمشق ودرس الحالة السياسية فيها ، واستقر رأيه على العمل لمروان .. يعاتب مروان ويقول له :

ـ لقد استحييت لك مما تريد، وانت كبير قريش وسيدها تصنع ماتصنع..

فقال مروان وقد امتلأ قلبه أملا :

ـ ما فات شيء ...ما فات شيء .

ثم عطف مروان فسأل عبيدالله قائلا :

ـ تطلب مني ان ارشح نفسي للخلافة ، وما نصنع بخالد بن يزيد ، وعمرو بن سعيد الاشدق ؟

فقال عبيدالله : ليس اسهل من تسوية الامر ، انا المسؤول عن قبول بني امية لخلافتك ومبايعتك ، واما خالد وعمرو بن سعيد ، فتعهد لهما بالخلافة من بعدك فيزول بذلك كل اختلاف ، وانصحك في الوقت نفسه ان تتزوج ام خالد بن يزيد ، فتكسب بذلك عطف ابن بجدل والكلبيين وتأييدهم .

ويظهر ان ابن زياد تمكن من اقناع عمرو بن سعيد الاشدق بصحة نظريته هذه وفائدتها للجميع ، فايد الاشدق مروان ، ووعده بتأييد اليمنيـــة من انصاره .

وكذلك وفق ابن زياد الى تهدئة موفقة موقتة ،وتسوية مقبولة للاضطراب السيامي الذي كان قد ملك على الناس عقولهم وعواطفهم ، وتمكن بدهائه من اكتساب عطف اليمنية انصار عمرو بن سعيد الى بيعة مروان ،كما وفق في الوقت نفسه الى اكتساب عطف بني كلب للبيعة نفسها ، ولا يستبعد كما يقول بعض المؤرخين ان يكون مروان قد ذهب في هـذه الاثناء الى تدمر حيث اتصل ببعض الكلبيين فيهـــا ، فوعدوه بالمساعدة والنصرة .

واحس الضحاك بتبدل الرأي العام في دمشق ، واتحاد بني امية مع مروان بن الحـكم ، واجتماعهم عليه ، فخشى العاقبة ، خصوصاً بعد حوادث المسجد ، وتعرض احد بني كلب له بعصاه ، واقتتال انصاره والكلبيين ، بسبب ذلك ، فبعث الى بني امية يعتذر لهم ، وانه لا يريد ما يكرهون ، وامرهم ان يكتبوا الى حسان بن بجدل ... فليقدم علينا ليصار الى الاتفاق بين الجميع في مكان هو (الجـابية) ... حيث يبايـع فيه للرجل الذي يصار الى اختيـاره من بني امية .

فرضي بنو امية واتباعهم وانصارهم ، وكتبوا الى حسان بن بجدل في الامر وسار الضحاك وبنو امية الى الجابية .

ولكن الضحاك عاد فعدل عن الذهاب الى الجابية وهو في طريقه اليها ،

وسبب ذلك ان انصاره انكروا عليه هذا التقلب في موقفه وقالوا له :

ـ كنت تؤيد ابن الزبير وتطلب منا ذلك ، والآن تذهب بنا الى تأييد هذا الاعرابي من كلب ـ يريدون حسان بن بجدل ـ تستخلف ابن اخته خالد بن يزيد ..

فقال الضحاك : فما الرأي ؟

قالوا : الرأي ان تظهر ما كنا نكتم .. وتدعو الى ابن الزبير .

فانحاز الضحاك الى رأي جماعته ، وانقلب عن الجابية الى مرج راهط ، وكانت دمشق لا تزال بيده .

- ٣ -

الاتفاق في الجابية

ومعركة مرج راهط

في الجابية :

وكذلك يظهر لنا ان الضحاك بن قيس لم يكن قد استقر رأيه على امر بشأن البيعة حتى الان ، فقد كان يؤيد بن الزبير لان ابن الزبير كان اقرب الى الخلافة من غيره ، بعد ان دانت له اكثر الامصار العربية ، ولكنه لم يكن يجرأ على الدعوة لابن الزبير ، وان كان هواه معه ، في وسط مضطرب ثائر كدمشق ، فكظم ما بقلبة واخذ يراوغ ويتحايل للوصول الى غرضه ، حتى اكرهه اصحابه على اظهار رأيه ، والدعوة لابن الزبير .

وكان انصار الامويين قد اجتمعوا في الجابية [١] يتشاورون ويقلبون وجوه الرأي فيما بينهم ، وهم ينتظرون قدوم الضحاك الذي لم يحضر اليهم والذي عاد

(١) لم تكن الجابية بلداً وانما كانت عاصمة الغساسنة في الماضي ، وكانت في هــذه الفترة عبارة عن منازل الامرء من آل غسان

ادراجه بعد خروجه من دمشق ، واستقر مع انصاره في شمالي الغوطة ، ينتظر نتيجة مؤتمر الجابية .

الضحاك:

ولكن المكان الذي نزله الضحاك لم يكن بالمكان الذي يحسن النزول فيه من الوجهة العسكرية ، ولو انه نزل جنوبي دمشق لكان موقفه احسن حالاً وكان باستطاعته مراقبة المدينة ، ومراقبة ما يجري في الجابية ، لانه في الواقع لم يكن يخشى شيئاً من الجهة الشمالية ، فقد كان جند قنسرين وحمص يناصرونه ويؤيدونه .

وعلى ذلك فقد نزل الضحاك في مرج الصفر اولاً ، واخذ يستعد كما يظهر للعراك المقبل الذي كان يعتقد انه اصبح قريباً ، وان نتائجه الاولى ستظهر بعد مقررات الجابية ، وفي المصادر التي بين ايدينا ما يؤيد انه الى هذا المكان صار ارسال النجدات الى الضحاك من انصاره في قنسرين وحمص وغيرهما من الامصار .

والضحاك في الواقع كان يعمل لنفسه اولاً واخيراً كما يظهر ، وكان يراوغ ابن الزبير وابن الزبير يراوغه ، لان هناك ما يدل على ان ابن الزبير لما عرف بموته ، لم يأسف على فقده ، وتكلم كلاماً يستدل منه على ان الضحاك في نظره كان يعمل لمصلحته وكان يروم امراً فوق طاقته ..

ثم ان الضحاك نفسه كان يؤمن كما يظهر بعدم نجاح ابن الزبير في دمشق وما حولها ، وكان يعتقد ان السوريين سيحاربون ابن الزبير حتى النهاية وانهم لن يرضوا ابداً بانتقال الخلافة من دمشق الى مكة ، ثم ان ابناء الضحاك وحفدته من بعده كانوا ينكرون دائماً ان يكون الضحاك قد عمل لابن الزبير ، وكانوا يقولون انه كان يعمل ابداً لنفسه .

ويذكر لنا ابو تمام في نقائض جرير والاخطل ، انه لما نزل الضحاك في المرج قال له اصحابه :

– غـــاب ابن الزبير واختلفت امية ، وانت شيخ قريش فلو دعوت الى نفسك ؟

قال : ويحكم لا تدعنا بنو قصى .. ولا سيا بنو امية ..

فقالوا : ما انت بدون الرجلين ابن الزبير ومروان .

فلم يزالوا به حتى دعا الى نفسه والناس يومئذ يضطربون في هوايين زبيري وبحدلي ، اي من انصار ابن بحدل .

فاذا كانت المصادر التي بين ايدينا صحيحة ، فانه يستطاع القول عندئذ بان الضحاك لم يرشح نفسه للخلافة الا بعد ان دعاه القيسيون الى ذلك نكاية ببني كلب الذين كانوا يرشحون نسيبهم الاموى ، ولان ابن الزبير كان بعيداً جداً، ولم يظهر الضحاك ترشيحه الا في الوقت الذي كان الامويون فيه يعقدون مؤتمرهم في الجابية ، اي في الساعة الاخيرة .

الامويون في الجابية :

اما الامويون في الجابية فقد راحوا يبحثون موقفهم بعد تثاقل الضحـــاك عن اللحاق بهم ، وكان حسان بن بحدل يصلي بالناس ، لم يزاحمه احـــد منهم على هذا المركز الرفيع الذي كان خاصاً بالزعيم الكبير ، وسبب ذلك مكانته في بني كلب، وقرابته للعائلة المالكة، وقد ظلوا على حالهم هذا اربعين يوماً ..

ولم يكن عبيدالله بن زياد بين القوم في الجابية ، ذلك ان لم يكن مـــن اشراف الشام الذين بيدهم الحل والعقد، ولا كانت له عصبية يستطيع بواسطتها ان يفرض سلطانه على الجماهير فظـــل في الشام يرتقب الحوادث ، حتى حانت

له فرصة يخدم بها مروان اجل خدمة كما سنرى .

والظاهر ان القوم في الجابية ، لما ابصروا تثاقل الضحاك عن اللحاق بهم ، ونزوله مع بني قيس في مرج الصفر قد ادركوا ان الحرب بينهم وبين القيسيين من انصار الضحاك واقعة لا محالة ، فكان من المفروض عليهم والحالة هذه ان يجاملوا ابن بحدل الذي كان وحده بينهم ينعم بقوة عسكرية تمده بها بنو كلب ، القبيلة القوية الشديدة المراس .

ويبدو لنا انه لما نزل القوم في الجابية اواخر رمضان من سنة ٤٦ للهجرة ، لم يكن الكلبيون قد اتفقوا على مروان بن الحكم ، وانما كانوا لا يزالون يقولون ببيعة خالد بن يزيد ، واما التسوية التي وضعها عبيدالله بن زياد فلم تصادف هوى في نفوسهم ، ويذهب ابو تمام في نقائض جرير والاخطل ، الى ان بني كلب اخذوا يفكرون في فترة من الزمن ، وبعد وفاة معاوية الثاني ، ونظراً لصغر سن خالد بن يزيد ، في تأييد حسان بن بحدل نفسه ، وترشيحه للخلافة .. ويقول ابو تمام : لما مات معاوية الثاني ادعى حسان بن مالك بن بحدل الخلافة لنفسه ، وكان خال يزيد وهو اخو ميسون بنت مالك بن بحدل ام يزيد ، فمكث يدعو لنفسه اياماً ، ثم اسلمها الى بني امية ، فقال قومه من كلب :

-- ماله اخزاه الله لم ير نفسه ولا قومه لها اهلاً ..

ولم يكن بين القوم والحالة هذه اتفاق تام على كل شيء ، وانما كانوا متفقين فقط على امر واحد ، وهو الاحتفاظ بالخلافة في سورية ، وكذلك كانوا متفقين ايضاً على ان يحصلوا من الخليفة المقبل على كل ما يمكن الحصول عليه منه من الامتيازات والاموال .

والظاهر ان القوم في الجابية بحثوا مسألة الخلافة واسماء المرشحين للخلافة فيما بينهم عند نزولهم الى الجابية ، وكان اسم ابن عمر بن الخطاب يردده كثيرون منهم ، فيشيرون مثلاً الى موقفه المعتدل البعيد عن الحزبية في كل

الثورات الداخلية المنصرمة، ثم يعرضون الى علمه وفضله وشهرته كفقيه كبير، والى اسم والده الشهير الذي كان يسيطر على الامبراطورية من ادناهـــا الى اقصاها .

ويظهر ايضاً ان الجماعة في الجابية ذكروا اسم ابن الزبير ايضاً كأحـــد المرشحين، ولو كان ابن الزبير وجنده بينهم لتبدل الموقف حتماً ، ولتمكن من انتزاع الخلافة قبل غيره من المرشحين ، ولكنه كان بعيداً ، وقد ابى الاستماع الى نصيحة الحصين بن نمير بالقدوم الى دمشق.. ولو فعل لكان خليفة المسلمين على الارجح ..

ويقول ابن عساكر : ان جماعة ابن بحدل كانوا في اثنـاء الاجتماع يلقبونه بالخليفة ، ولكن ترشيحه لم يصادف تأييداً عاماً ، وعارضه اليمنيون كما يظهر معارضة شديدة ، ويظهر لنا ان ترشيح حسان بن بحدل هو الذي حمل رجال المؤتمر في الجابية على التفكير في قريش تهرباً من الوقوع تحت سلطان بني كلب، ولما فكروا في قريش فكروا في بني امية ، وفكروا طبعاً في ابناء يزيد بن معاوية ، ولما كان هؤلاء يمتون الى حسان بن بحدل بصلة من النسب ، فقـــد تركوهم الى مروان بن الحكم .

ولما احسّ الكلبيون بان حظهم او حظ زعيمهم من الخلافة ضعيف جـداً قال شاعرهم :

فإلا يكن منا الخليفة نفسه ❊ فما نالهـا إلا ونحن شهود

وفي احد ايام الجابية قال مالك بن هبيره يخاطب مروان :

– انه ليست لك في اعناقنا بيعة، ولسنا نقاتل عن عرض ودنيا، فان تكن لنا على ما كان لنا من معاوية ويزيد نصرناك ، وان تكن الاخرى فو الله ما قريش عندنا إلا سواء .

واشترط حسان بن مالك على مروان ما كان لهم من الشروط على معاوية

وابنه يزيد ، وابنه معاوية بن يزيد ، ومنها ان يفرض لهم لالفي رجـل الفين الفين ، وان يكون لهم الامر والنهي وصدر المجلس ، وكل مـــا كان من حل وعقد ، فعن رأي منهم ومشورة .

فرضي مروان بكل هذه الشروط ، وكان مـالك بن هبيرة يمثل اليمنية ، وحسان بن مالك بن بجدل يمثل الكلبية ، ومعنى هذا ان الرجلان طلبا من مروان واشترطا عليه ان يقدم اهل اليمن من العرب .. على بني قيس من عرب الشمال .

وكان مالك بن هبيرة قد تحدث الى حصين بن نمير بشأن بيعة خـالد بن يزيد، ثقة من مالك بان ولاية هذا الشاب ستمكن لليمنية في الشام، فيسيطرون على كل شيء ، ولكن حصين بن نمير قال له :

لا والله إلا مروان ، لا تأتينا العرب بشيخ ونأتيهم بصبي ...

فرد عليه مالك ان مروان وآل مروان اهل بيت من قيس ، وهم اهـل بيت قد قاسوا قسوة الحجاز وشدته، والله لئن ملكوا ليحسدنك نقاء ثوبيك وجلاز سوطك .. وظل شجرة تستظل تحتها .

فقال له حصين : دعنا عنك .. اني والله لا اؤمر الصبيان ..

والواقع ان هناك جماعة من زعماء اهل الشام ، ومالك بن هبـيرة منهم كانوا يخشون مروان وشدته ، ذلك انه لما كان واليا على الحجـاز اظهر شدة عظيمة في اثناء حكمه ..

روح بن زنباع :

ولكن الذي انقذ الموقف حقيقة هو روح بن زنباع الذي ولاه حسان بن بجدل على فلسطين مكانه ، ثم طرده اهلها ، وبايعوا ابن الزبير ، فان هـذا الرجل النابه الخطيب ، جاء الى الجابية ومعه جماعة من قومه ، فخطب في

الناس خطبة عرض فيه لابن عمر وصلاحه وتقواه ، وكيف انه رجل شغلته العبادة ، ولا يصلح للخلافة ، ثم عرض لابن الزبير ونسبه الكريم وصلاته وتقواه ، ثم ذكر بخله وكيف ان مثله لا يصلح للحكم، خصوصاً بعد ان حارب الخلفاء ، ومزق المسلمين ، ولما اتى على ذكر مروان امتدحه وذكر كيف انه ضحى بنفسه يوم الدار في سبيل عثمان ، وكيف حارب علياً يوم الجمل ، وكيف انه اليوم شيخ بني امية وهو اصلح من سواه للحكم والخلافة ، وافضل من ترشيح فتى للخلافة لم تظهر له تجربة ، ولا كانت له سابقة في حكم ولا ادارة ..

تلقى المجتمعون خصوصاً انصار روح بن زنباع كلام روح بالتصفيق والتأييد ، فلم يبق امام الزعماء والحالة هذه الا الاعتراف بالامر الواقع ، والاتفاق مع مروان بن الحكم على الامتيازات التي يطلبها كل منهم ، والتي اشرنا اليها في مكان آخر من هذا الفصل ، وكذلك استقر الرأي بعد اجتماع دام اربعين يوماً على المبايعة لمروان بن الحكم ثم لخالد بن يزيد ثم لعمرو بن سعيد العاص ، وانتهى المؤتمر في الثالث من ذي القعدة سنة ٤٦ هجرية ، ٢٢ حزيران ٦٨٤ ، وبهذه الطريقة صار ارضاء جميع الذين يتطلعون للخلافة ،ومن ثم اتحدت كلمة اليمنية من بني كلب .

ولكن الاعتراف رسمياً بخلافة مروان لم يحصل الا بعد شهرين من هذا التاريخ ، وفي شهر محرم سنة ٦٥ للهجرة .

ويظهر ان مروان وعد ابن بحدل ليس فقط في ان يكون خالد بن يزيد ولياً للعهد بعده ، وانما بان يعهد اليه بولاية حمص ايضاً ، كما اشترط ابن بحدل ايضاً بانه اذا مات هو ، قام ابنه او ابن عمه مكانه ، ونعم بالشرف والاموال التي كان ينعم بها حسان بن بحدل قبلاً .. اما عمرو بن سعيد الاشدق فقد طلب ولاية الشام حالاً ، ثم الخلافة بعد خالد كما قدمنا ..

ولكن هذا الاتفاق الذي بسطنا تفاصيله ، والذي تمّ بعد صعوبات وشروط كثيرة ، كان سبباً كبيراً في تمزق الوحدة العربيـــة ، اذ جعل الخلاف امراً واقعاً بين اليمنية والقيسية ، هذا الخلاف الذي كان سبباً من اسباب انهـــيار الدولة الاموية بعد ذلك .

معركة مرج راهط :

بينما كان الامويون في مؤتمر الجابية يقررون مصيرهم ، كان الضحاك بن قيس وجماعة من بني قيس يستعدون للكفاح المقبل ، كما بعث الضحـــاك يستنفر احلافه من الزبيريين في حمص وفلسطين وقنسرين ويطلب منهم ان يمدوه بالسلاح والرجال ، فوجه اليه ناتل بن قيس الجذامي ابنه في الفين من اهـل فلسطين ، ووجه اليه النعمان بن بشير الفين من اهل حمص ، وامدّه زفر بن الحرث بالفين ايضاً ، واختلف المؤرخون في عدد جيش الضحاك فقال ابن عبد ربه في العقد الفريد : انه كان في ستين الفاً ، وهذا العدد مبالغ به كما يظهر ، واما ابن سعد فيقول: انه كان في ثلاثين الفاً ، واما مروان بن الحكم فكان في ثلاثة عشر الفاً..

وكان اكثر جند مروان من بني كلب ، ومن بعض العناصر المؤيـدة لبني امية من اهل الاردن، ومن بني كندة وتنوخ وطي، وبني تغلب وبعض الغساسنة.

ولقد اخطأ الضحاك خطأ عظيما في اخلائه دمشق من كل حامية للمحافظة عليها وكان عبيدالله بن زياد لا يزال فيها، والظاهر انه لما عرف بقررات الجابية اثار الناس على عامل الضحاك وتمكن من طرده من العاصمة واستولى عليها واخذ يمد مروان بن الحـكم بالجند والسلاح والاموال[1] .

وعندئذ وجد الضحاك نفسه في مركز صعب ، فاضطر الى مغادرة مرج الصفر حتى لا يقع بين نارين ، نار خصومه في دمشق ، ونار جند مروان بن الحكم الذي كان يتقدم نحوه من حوران ، فنزل في مرج راهط حيث صـار

(١) جاء في تاريخ ابن الاثير ان الذي فعل ذلك غيره ..

بامكانه الاتصال مع انصاره الزبيريين في قنسرين وحمص .

ويظهر لنا انه وقع بين الضحاك وجماعة مروان مناوشة فشل فيها الضحاك قبل مرج راهط ، وتغنى بها الاخطل في شعره، وذكرها غيره من الشعراء الذين تغنوا بانتصارات اليمنية على القيسية .

ولما اتصل الجيشان في مرج راهط على اميال من دمشق بدأت الحرب سجالاً بين الفريقين ، والمفروض انها بدأت بالمبارزات الفردية كما هي عادة العرب ، ثم حدثت الوقعة الكبرى التي دامت يومين [1] وانتهت بهزيمة الضحاك وجنده هزيمة منكرة ، وبسقوط الضحاك نفسه في المعركة قتيلاً ، وسقوط ثمانين من اشراف القيسيين الذين كانوا يتناولون العطاء، وكانت الهزيمة شنيعة على القيسيين بحيث ان أحداً بعد هذه المعركة منهم لم تعد تظهر الابتسامة على وجهه ، لكثرة من سقط من قيس قتيلاً او جريحاً ، ولاغراق الكلبيين واحلافهم في القتل والتقطيع بهم .

اما قتلى القيسية فيقول ابو تمام في نقائض جرير والاخطل انهم يعدون تسعة آلاف .. ومن اليمن انصار مروان بن الحكم الف وثلاثمائة ، واما بقية المؤرخين فيرون ان هذا الرقم مبالغة منكرة ، لان ابن عساكر لا يذكر من قتلى القيسية غير ثلاثة آلاف ، وغيره يقول اقل من ذلك ..

وكان بين انصار الضحاك جماعة من اليمنية، ولكن القتلى فيهم كانوا قليلي العدد لان رجال مروان من اهل اليمن لم يصوبوا سيوفهم ورماحهم إلا الى بني قيس فقط ، ولما انتهت المعركة بسقوط الضحاك وانهزام انصاره امر مروان جنده بان لا يتبعوا المنهزمين حقناً للدماء، وخوفاً من النتائج المنكرة التي قد يسفر عنها مثل هذا الاغراق في السفك بين قيس ويمن .

ولما وضعوا امام مروان رأس الضحاك بن قيس ظهر الاضطراب على وجهه

---

(١) كما يؤكد الاخطل في شعره (يوما راهط)

واسف لهذه المعركة التي افنت دماء انصاره وخصومه وهو في اواخر ايامه ، بحيث اضطر ابنه عبـــد العزيز الى التدخل ، ونصحه بضبط عواطفه تقوية لمعنويات انصاره ٠

ومن المؤكد ان اهم حادث في هذه المعركة كان موت الضحاك بن قيس الذي كان من الاشخاص الاوائل الذين خدموا امية في انشاء هذا الملك ، وكانوا من القلائل المقربين لدى معاوية ويزيد ابنه ، وقد هلك الضحاك وهو في الستين من العمر على الاكثر والارجح ، وابن حنبل يعده من الصحابة .

ولقد كان من اثر هذا الصراع بين القبائل الجنوبية والشمالية في مرج راهط ان امتد الى اكثر الامصـــار الغربية ، وكذلك اذكت هذه الموقعة (مرج راهط) ثار العصبية من جديد ليس في الشام فقط ، بل في ســـائر الولايات الاسلامية ، وخاصة في خراسان ، فظهر العداء بين اليمنية والمضرية في صورة نزاع متواصل بين عرب الجنوب وعرب الشمال ، وامتـد لهيب العصبيـة الى اقاصي البلاد التي وصلت اليها الفتوح العربية ..

مروان وبني كلب :

ومن المؤكد اليوم وقـــد تمّ لمروان بن الحكم الانتصار على الضحاك بن قيس وانصاره بواسطة سيوف الكلبيين وانصارهم ، ان يستقر في اعمـاق قلبه بانه قد اصبح اسير هذه القبيـلة التي لم تؤيده الا بعد ان فرضت عليه شروطاً ثقيلة ، كان من الصعب عليه اقرارها ، دون التعرض لمخاطر عظيمة اهمها ان يظل قسم من العرب ناقماً على سياسته ينتظر الفرصة للاخذ بالثأر وشق عصا الطاعة.

وزاد الموقف حراجة ان الكلبيين راحوا يستغلون الموقعة استغلالاً قبيحاً ، فعدوا انتصارهم يوماً من ايام العرب في الجاهلية ، وقالوا الاشعار يفتخرون بانتصارهم ويعيرون القيسيين بانخذالهم ، وقيس لم تكن قبيلة حقيرة ، وانمـــا كانت قبيلة عظيمة ، ووراءها كل قبائل الشمال تؤيدها وتناصرها ضد عرب الجنوب الذين كان الكلبيون منهم .

ومن المفروض في كل سلطان جديد ان يعمل على تهدئة الخواطر لا على اثارتها وتقويتها ، لأن في الاولى سلامة ملكه ، وفي الثـانية تعرض هذا الملك لاشد انواع المخاطر وارذل المفاسد .

ومن المؤكد ان هذا الشعر، وهذه الامتيازات التي اخذ يطالب بها الكلبيون من اهل اليمن ، وهذا الغرور الذي تجلى في وجه كل منهم ، وظهر في اقوالهم واشعارهم،بأنه لولاهم ولولا سيوفهم لما قامت لمروان قائمة،ولا حصل على الخلافة، قد اثار حنق مروان وعائلته ، اذ جعلهم في مركز حرج ، ووضعية دقيقة ، لان معركة مرج راهط اذا كانت قد مكنتهم من الملك ، فهي في الوقت نفسه قد اثارت حفيظة القبائل العربية كأشد ما كانت عليه في ايام الجاهلية ، وهذه حـــالة لا تبشر بخير ، ولا يستقيم معها ملك ، ولا ينتظم سلطان ، خصوصاً ومروان كان لا يزال بحاجة الى الانصار يقاوم بهم عدوه ابن الزبير.. الذي كان لا يزال يسيطر على اكثر امصار الدولة العربية .

ومروان مع اخطائه السالفة يوم كان كاتباً لعثمان بن عفان لم يكن بالرجل الذي يجهل مثـــل هذا الخطر الذي يهدده ويهدد عائلته اذا ظلت هذه العداوة قائمة بين القبائل العربية ، ولعل هذا من الاسباب التي حملته بعد انتهاء المعركة على امر انصاره بعدم مطاردة المنهزمين حقناً للدماء ، وصلة للرحم ، ومحاولة اولى لوصل ما انقطع بين القبائل .

والواقع ان الكلبيين قد اغرقوا في التدليل على انتصاراتهم ، والاشارة الى قوتهم ، والاشادة بسيوفهم ، ولا ادلّ على ذلك من هذا الشعر الذي هو واحد من كثير من مثله .

قال جواس الكلبي :

كم من امير قبل مروان وابنه	كشفنا غطاء الموت عنه فابصرا
اذا فاخر القيسي فاذكر بلاءه	برزّاعة الضحاك شرقيّ جوبرا

وفي هذا البيت تعريض قبيح بانكسار قيس في معركة مرج راهط ، لان (جوبر) قرية في الغوطة تبعد نحو ساعة عن دمشق في الشرق الشمالي ، ويسكنها في ايامنـــا بعض اليهود .

وهذا الشعر وغيره كان مما يسيء الى مروان واهله ، لان المروانيين في الواقع لم يكونوا اصحاب علاقات قوية في سورية، ولا كانت لهم اتصالات وصداقة مع احزابها ، واذا نزلوا سورية مرة فقد كانوا ينزلونها مطرودين من المدينة ، حتى ان الكلبيين في اول الامر كانوا يقولون انهم من القيسيـــين ، ويعتبرونهم من اعدائهم ..

ولما اتصل المروانيون بالشام للمرة الاخيرة، غمرهم شعور من الالم والغضب، لما شاهدوه في الجابية من الوان التزاحم على المصالح الخاصة والاغراض الشخصية ، وانكروا موقف الزعمـــاء منهم ، وكيف انهم لم يؤيدوهم الا بعد ان اخذوا منهم العهود والمواثيق على ان يدفعوا لهم ثمن هذا التأييد، خصوصاً عرب اليمن الذين فرضوا سلطانهم على المروانيين، وما ناصروهم إلا بعد ان وعدهم هؤلاء بأن يقدموهم على غيرهم من قبائل العرب في الديوان والادارة والعطاء والقيـــادات والولايات ..

حفظ التوازن :

ولذلك كانت سياسة المروانيين في الايام المقبلة العمل على اقامة التوازن بين القبائل العربية ، ولحفظ هذا التوازن اضطر الخلفاء الى تأييد عرب الشمال تارة وعرب الجنوب تارة اخرى ، بخلاف سيـــاسة عبد الملك بن مروان الذي كان من سياسته حفظ التوازن، دون تقديم جماعة على جماعة، وهذه السياسة التي كان سببها مرج راهط ، كانت من الاسباب التي عجلت في انهيار امية كما سترى في كتابنا (الايام الاخيرة للدولة الاموية) .

ويبدو لنا ان معركة مرج راهط وقعت في شهر تموز من سنة ٦٨٥ ميلادية،

وفي شهر آب من السنة نفسها كان مروان بن الحكم في دمشق ، (محرم ٦٥ هـ .) حيث بويع له بالخلافة رسمياً ، بعد ان القى الخطبة المقررة في مثل هذه الاحوال في مسجد دمشق .

ومن المؤكد انه تزوج بعد البيعة بفاطمة ام خالد بن يزيد ، وكان غرضه من هذا الزواج توثيق الاواصر بينه وبين البيت الاموي المالك السابق من آل ابي سفيان ، واما القول بانه فعل ذلك اذلالاً لخالد بن يزيد ، فقول فيه نظر .

وبظهور مروان بن الحكم اخذ الناس يتناسون مع الايام آل ابي سفيـان ، ويتحدثون عن بني مروان ، كما ظهر في الوقت نفسه على مسرح السياسة الاموية عدد جديد من الموظفين ، مثل حصين بن نمير ، وروح بن زنباع ، وسفيان بن الابرد ، وعبيدالله بن زيـاد الذي قتل في العراق بعد ذلك بقليل ، كما احتفظ مروان بابن سرغون النصراني في المالية ، وكان من الموظفين في العهد السابق .

- ٤ -

مروان بن الحكم

خلافته ونهـــايته

خطا عبدالله بن الزبير

اشتهر مروان بن الحكم بين بني اميه ، بانه من اصحاب الرأي والفصاحة ولا ندري كيف يكون من اصحاب الرأي وقد اودي بعثمان رضي الله عنه ، على ما بسطناه في كتابنا « عثمان بن عفان » ، وكيف يكون من اصحـــاب السياسة وقد مزق العرب في عهده ، وكان لارائه اكبر الاثر في تعجيل الفتنـة وتمزيق العربية ...

هذا هو الرأي الحق فيه، فان ذهب قوم يتلطفون في التأريخ له، والاعتذار لسياسته فهذا شأنهم ، ولكنّ ما لدينا من المصادر التاريخية التي تنفض لنـــا اخباره ، وتروي اعماله ، وتحدثنا عن سياسته لا يدل على بعد رأي ، ودقة نظر ، وحسن تصريف للامور ومختلف السياسات .

والواقع انه ليس يهمنا ان نعرض لمروان وما عمل وما اقترح إلا على قدر، فقد قاتل علياً في معركة الجمل ، ورفع السيف في وجهه ، وكان علي خليفة المسلمين ، رضي مروان ام انكر ، وكان من حق مروان اذ كان من اصحاب

الرأي حقاً ان يعلم ان مثل هذا العمل ممزق للوحدة الاسلامية ، وانه نذير بفتنة لا يعلم الا الله ما يكون مصيرها على العرب والاسلام .

وتمضي الايام في سبيلها وينتقل علي الى ربه، ويتولى معاوية الخلافة، فيقبع مروان في داره ، لا يحرك ساكناً إلا ان يكلفه معاوية عملا كولاية المدينة مثلاً حتى وفاة يزيد بن معاوية ، ومقتل الحسين بن علي رضي الله عنه ، فيأخذ عندئذ عبدالله بن الزبير بني امية بالشدة ، بعد ان استقل بالحجاز والعراق ، وينذرهم بالخروج من الحجاز الى الشام ، فيغادر مروان الحجاز الى دمشق ، ويأتيها في فرصة موفقة حقاً ، وحين يكون القوم فيها على اختلاف فيمن يولونه الخلافة من بني امية ، وكذلك يكون عبد الله بن الزبير قد جعل مرواناً خليفة ، ومكنه من الملك والسلطان ، واعطاه الجند والسلاح ، يحاربه به ويستلب الملك منه .

وكذلك يشأ القدر ان يخطىء عبدالله بن الزبير هذه الخطيئة التي اودت بلكه ؛ فلولا اخراجه مروان واهله من المدينة ، لما آلت الخلافة الى مروان وولده ، ولظل اهل الشام يختلفون فيما بينهم هذا الاختلاف المفجع الذي مزقهم ، واثار حفيظة كل جماعة منهم على الاخرى ..

والواقع انه لو كان عبدالله ابن الزبير بعيد النظر ، صادق الرأي لاحتبس مروان بن الحكم عنده ، حتى يستقيم ملكه ، وتتوطد بيعته ، ولكنه دفع ثمن خطأه هذا غالياً وضحى نفسه وملكه ..

نجاح مروان

من المؤكد ان معركة (مرج راهط) .. مكنت مرواناً من الحكم والسلطان، فبمقتل الضحاك وانصاره استتب الامر لسلطان مروان في سورية كلها ، وبايعه جند قنسرين بعد المعركة ، وكان على قنسرين زفر بن الحارث فلما بلغته الهزيمة هرب فلحق بقرقيسيا وغلب عليها وتحصن بها ، واجتمعت

اليه قيس، وقد صحبه في هزيمته شابان من بني تميم، فلما جاءت خيل مروان في طلبه ، قال الشابان لزفر :

– انج بنفسك ، فانا نرد عنك الخيل .

فمضى وتركهما فقتلا .. وقال زفر في ذلك ابياتاً تعـــد من اروع الشعر العربي [1] كما انها تمثل في الوقت نفسه هذا الحقد الذي اخذ يغمر كل قيسي ضد كلب واحلافها .

ولما بلغ خبر الهزيمة النعمان بن بشير وهو في حمص ، فرّ هـارباً ، فتبعـه بعض اهلها وقتلوه ، وبايعت حمص لمروان ونزلت تحت سلطانه .

ودخل مروان الشام في يوم رائـع ، واستقبله الامويون مـــن انصاره واحلافهم استقبالا رائعاً في طريقه الى قصر الخضرة ، ابتهاجـــاً بنجاحهم وفوزهم ، واشتركت في هذا الاستقبال جميع عناصر المدينة التي كانت تحرص كل الحرص على ان تظل دمشق عاصمة العربية وموطن الحضارة الاسلامية[2] ..

---

(١) اريني سلاحي لا ابالك انني ... ارى الحرب لا تزداد الا تماديا
اتاني عن مروان بالغيب انـــه ... مقيد دمي او قاطع من لسانيا
ففي العيس منجاة وفي الارض مهرب ... اذا نحن رفعنـــا لهن المبانيـــا
فلا تحسبوني ان تغيبت غافـــلا ... ولا تفرحوا ان جئتكم بلقائيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هيا
لعمري لقد ابقت وقيعة راهط ... لحسان صدعاً بيننا متنابيـــا
ايذهب يوم واحد ان اسأتـــه ... بصالح ايامي وحسن بلائيـــا
فلا صلح حتى تشحط الخيل بالقنا ... وتثأر من نسوان كلب نسائيا

(٢) مروان بن الحكم بن ابي العاصي بن اميـــة ، وامه آمنـــة بنت علقمه بن صفون الكناني ، ولد في السنة الثانية للهجرة ، واسلم ابوه الحكم يوم الفتح ، فنشأ مروان مسلما ، وكان في عهد عثمان بن عفان كاتبا له ومديراً لادارته ، ولي لمعاوية المدينة غير مرة ، ولما مات يزيد اوشك ان يذهب الى ابن الزبير ليبايعه لولا عبيد الله بن زياد الذي نصحه ان يطلب الخلافـــة لنفسه لانه شيخ بني امية ، فاستشرق للرأي ووجد من ينصره على ذلك..وتم له الامر بعد موقعة « مرج راهط » وكان امره في الشام ومصر .. لم يتجاوزهما حتى مات .

واطلق الان مروان نظره الى الامصار العربية فاذا به يجد نفسه مهدداً من ثلاثة مواطن : الحجاز ، والعراق ، ومصر ، اذا استثنينـــا الامبراطورية البيزنطية التي كانت العدو الاكبر للامبراطورية العربية .

وكان العراق في هذه الفترة يعـج بالخصومات والاضطرابات الداخلية ، وكان اهله في شاغل بانفسهم عن غيرهم وسواهم ، فلم يكن والحالة هـــذه من خطر عاجل منهم ، كما ان الزبير في مكة لم يكن يحرك ساكناً ، واما مصر فكانت مضطربة غير مستقرة ، وكان حاكم ابن الزبير فيها غير موفق في تهدئة الحال ، وتأمين السلام ..

فقرر مروان عندئذ ان يبدأ بمصر ، كما فعل معاوية بعـد معركة صفين ، ولكي يطمئن من الغارات الخارجيــة على دمشق وسورية في غيــابه ، ارسل ابنه محمداً الى اطراف العراق وحدوده حتى لا يمكّـن احداً من العراقيين مـن اجتياز هذه الحدود وتهديد دمشق ، واوصاه بمراقبة القيسيين الذين كانوا بعد معركة مرج راهط قد غادروا سوريا وفلسطين الى حيث استقروا مع زفر بن الحارث في قرقيسيا .

وارسل في الوقت نفسه قوة الى الحجاز لتهاجم ابن الزبير في ارضه وتشغله عن مهاجمة دمشق في غياب مروان في مصر ، ولكن هذه الحمـــلة الحجازية فشلت فشلاً مريعاً ، ووقعت بين قوتين قوة خرجت اليها من مكة ، واخرى من البصرة ، فتمزقت وتشتت رجالها ، ولم ينج منها الا القليـــل ، وبينهم الحجاج بن يوسف الذي اخذ بالظهور على مسرح السياسة العربية .

وكان مروان في الوقت نفسه قد مشى الى مصر ، ومعه كثير من الزعماء كحسان بن بحدل ، وعمرو بن سعيد الاشدق ، وخالد ولي العهد وقد خشي مروان ان هو ترك هؤلاء الثلاثة في العاصمة ان يثيروا عليه فتنة جديـدة ، فرأي من الحكمة اصطحابهم معه الى مصر ، وهذا دليل على انه كان قليل الثقة بهم جميعهم ،

وترك خلفه عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير ليتقدما بقوة من الجند الى الحدود العراقية .

ومشى مروان بجيشه الى مصر لطرد عبد الرحمن بن جحدم عامل عبدالله ابن الزبير ، وسار ابنه عبد العزيز في الجيش الى (ايلة) ومنها الى العقبة [1] ، ونشط ابن جحدم لحربه ، واشار عليه بعض رجاله ان يحفر خندقاً [2] ، فتم في شهر واحد ، وبعث بالجيوش والمراكب [3] لحرب مروان وابنه ، فانهزمت جيوشه ولم توفق ، ولم ينفعه خندقه ، ودخل مروان عين شمس ، ثم الفسطاط في اول جمادي الاولى سنة ٦٥ للهجرة ، وبنى الدار البيضاء لتكون مقراً له وبايعه الناس الا نفراً ، ظلوا على تمسكهم ببيعة ابن الزبير فضرب اعناقهم ، وكانوا ثمانين رجلاً من المعافر ، وقتل ايضاً سيد لخم – الاكدر ابن حمام ابن عامر ابن صعب – فأتى ثلاثون الفاً من لخم وهم مدججون بالسلاح ، ووقفوا بباب مروان ثائرين ، فتوسط بعضهم في الصلح فانصرفوا ، وصادف ان توفي عبد الله بن عمرو بن العاص في اليوم الذي قتل فيه الاكدر (١٥ جمادي الآخرة سنة ٦٥) فلم يستطع القوم ان يخرجوا بجنازته لتألب الجند على مروان فدفن في داره [4]

عمرو بن سعيد الاشدق :

وتشجع ابن الزبير في هذه الفترة ، وبعد فشل الحملة المروانية على الحجاز التي عدها تعويضاً عن فشله في مصر فارسل قوة بقيادة شقيقه لاقتحام سوريا ، ولكن مروان ارسل اليه قوة بقيادة عمرو بن سعيد الاشدق فردته فاشلا رغم البسالة

«١» عند العقبة

«٢» موقعه الان بجهة القرافة

«٣» بعث ابن جحدم بالمراكب الحربية الى مرافيء سورية ، ولكن العاصفة مزقت هذه المراكب واغرقت اكثرها – الكندي –

«٤» الكندي ص ٤٥ ٠ ٤٦

العظيمة التي ابداها مصعب شقيق ابن الزبير في المعركة (رجب) ٦٥ هجرية، وعندئذ فكر مروان في الراحة قليلا فقد اصبحت سوريا تحت حكمه، وخضعت له مصر، ودانت له فلسطين والاردن، ويقال انه قرر البقاء في طبرية قليلا، ولكن دسائس عمرو الاشدق... اثارت شكوكه فعاد الى دمشق مسرعاً..

ويظهر لنا ان انتصار عمرو بن سعيد الاشدق على مصعب بن الزبير قد شجعه على التفكير جدياً في ان يكون الخليفة بعد مروان، فذهب يتحدث بهذه الفكرة الى بعض اخصائه، ويقول: ان مروان نفسه قد وعده بذلك، وكان مروان قد وعد عمرو بن سعيد الاشدق بكثير من الامور كما وعد غيره، واما انه وعده بالخلافة فهذا ما لا نعتقد به.

وكان عمرو بن سعيد الاشدق رجلا من زعماء بني امية، كريماً شجاعاً مما يحبب الناس اليه، ويجعلهم يتقربون منه، كما انه في الوقت نفسه كان زعيماً للقبائل اليمنية في سورية، الذين كانوا يحبونه ويحترمونه، ولا يرون كبير امر في التضحية في سبيله.

كان مروان بن الحكم لا يجهل الشهرة التي ينعم بها زميله، وكان هذا مما يشغل فكره، ويقض من مضجعه، خوفاً من مطامع الاشدق في المستقبل، وما قد يكون لها من الخطر على ولده بعده.

ومن المؤكد ان الاشدق قد افضى الى مروان بكثير من الخدمات، ولولاه، ولولا خدماته العسكرية لمروان في مرج راهط وفي مصر لكان من الصعب على مروان النجاح كل النجاح، ففي مرج راهط كان الاشدق يقود احد جناحي الجيش المرواني، كما ان جرأته وبسالته في مصر وفلسطين هي التي مكنت مروان من استعادة هذين القطرين. وكان الاشدق نفسه يعرف ذلك ويقدر خدماته حق تقديرها للعائلة المروانية الجديدة.

ولكن فضيلة التقدير وحفظ الجميل ليسا من الفضائل المفروضة في رجـال السياسة، ومروان مع كل تقديره لخدمات الاشدق له كان يحاول ازاحته من مركزه في البيعة التي كانت تجعله ولي عهد خالد بن يزيد بعد وفاة مروان نفسه .

والظاهر انه لما عاد الاشدق من فلسطين منتصراً على مصعب بن الزبير اخذ يفكر تفكيراً جدياً في مسألة الخلافة ، واخذ يقول ان مروان بن الحكم نفسه قد وعده ، بان يجعله خليفته مكان خالد بن يزيد ، وسواء أكان مروان قــد وعده بهذا او لم يعده، وليس في المصادر التي بين ايدينا ما يؤيد ذلك اوينفيه، فان اعلان الاشدق لرغبته هذه اثارت بعض الاحزاب عليه ، خصوصاً آل ابي سفيان والمروانيين انفسهم ، وابن بجدل نفسه ... الذي لم يكن يحبـــه ولا يطلب له خيراً .

وكان حسان بن بجدل يعرف كل المعرفة الخطر الذي يتعرض له نسيبه خالد بن يزيد اذا مــات مروان فجأة ، فان خالداً كان ولا يزال صغيراً ، واذا فان الاشدق سيحل محله دون ما شك ولا ريب ، وهذا ما كان ينغّص عليــه عيشه ، ويقضّ مضجعه .

مسالة الخلافة :

ومن المؤكد ان مروان بعد ان دانت له اكثر الامصار العربية قد اخــذ يفكر جدياً بمسألة الخلافة ، وبخالد بن يزيد ولي العهد ، ذلك ان مروان كان كثير الولد ، وكان كل ولده من ذوي المقدرة والنشاط ، وقد وجد نفسه في أواخر ايامه يتحمل المشاق ليوطد الملك لغيره، كما راح يخشى ان ينتزع الاشدق نفسه الخلافة من خالد الصغير ، وهو ما كان يفكر به ابن بجدل كما قدمنــا ، فتذهب الخلافة والحالة هذه من المروانيين وآل ابي سفيان على السواء ، فتحدث بذلك الى حسان بن بجدل زعيم كلب ، ونفض اليه نوايا عمرو بن سعيد الاشدق واعلن له عن رغبته في تولية عبد الملك ابنه مكانه ، فأيــده حسان في ذلك

وشجعه عليه ، فنقض عندئذ مروان اول بند من بنود مؤتمر الجابية ، وعزل خالداً من ولاية العهد ، وعين عبد الملك مكانه ، ثم عبد العزيز ابنه من بعده .

وصار اعلان ذلك للناس في الجامع فظهرت عليهم الدهشة اولاً ، ثم اقبلوا يبايعون الاميرين الجديدين ويهنئونهما ، ويقول (المسعودي) ان البيعة صارت في الصبرة من ارض فلسطين والاول الارجح ، واما الاشدق فقد سكت على مضض كما يظهر بعد ان رأى اجماع الناس على البيعة .

وكان عبيد الله بن زياد في هذه الفترة يهيء الجند ويستعد لاقتحام العراق ، فلما انتهى مروان من ولاية العهد اصدر امره اليه بالتقدم ، وعينه حاكماً لكل المنطقة ؛ كما نصحه قائلا : اياك والفرار كعادتك ... (ابن عساكر).

وكان اهل الكوفة قد جهزوا جيشاً منهم ، اطلقوا عليه اسم (التوابين) لانهم خذلوا الحسين لمـــا قدم اليهم من مكة ، وارادوا في تسيير هذا الجيش التوبة عن تقصيرهم والتعويض عمـــا فاتهم . ولكنهم لم يوفقوا في المعركة التي دارت بينهم وبين رجال عبيدالله بن زياد ... ولم يعمر مروان كثيراً فقد مات بعـــد ستة اشهر من ولايته ٢٧ رمضان ٦٥ هجرية .

وكذلك نرى ان مروان بن الحكم لم يتقيد بمقررات مؤتمر (الجـــابية) الذي اقرّ الخلافة لمروان بن الحكم اولاً ، ثم لخالد بن يزيد ثم لسعيد بن العاص.

كيف مات مروان :

ويروي لنا المؤرخون قصة تتعلق باخلاق مروان وتصوره كل التصوير ، فقد تزوج بعد البيعة (فاختة) ام خالد بن يزيد ولي عهده وفاقاً لمقررات مؤتمر الجابية توطيداً لمركزه ، واكتساباً لعطف انصار خالد من بني كلب وغيرهم ، ولكنه لما احس بثبات ملكه ، اخذ يحاول خلع خالد بن يزيد وتولية ولديه مكانه ، وللوصول الى غرضه هذا ، عمد الى تحقير خالد ما كان الى ذلك سبيل في

مجالسه المختلفة امام اهل الشام ليحملهم على النفرة منه ، وعدم الاكتراث به ، وقدحدث يوماً ان دخل خالد على مروان ، فشتمه مروان ووصفه بالحمق، فخجل خالد من نفسه ، ودخل على امه باكياً وافضى اليه بالخبر ، فقالت له :

— لايعرفن احد ذلك منك ، واسكت فاني اكفيكه [1] .

فلما دخل عليها مروان في ليلة من الليالي وضعت على وجهه وسادة وجلست هي وجواريها عليها حتى مات .. فلما علم بذلك عبـــد الملك بن مروان اراد قتلها ، فأشير عليه بالعدول عن ذلك حتى لا يتحدث الناس ... ان امرأة قتلت اباه فيلحق به العار ، وتناقل الخبر الشعراء في مختلف الامصار .

ويقول المسعودي في صدد هذه القصة ، انهـــا وضعت على نفسه وسادة وقعدت فوقها مع جواريها حتى مات ، ومنهم من رأى انها اعدت له لبنـــاً مسموماً ، فلما دخل عليها ناولته اياه ، فشرب ، فلمـــا استقر في جوفه وقع يجود بنفسه ، وامسك لسانه ، فحضر عبد الملك وغـــيره من ولده فجعل مروان يشير الى ام خالد يخبرهم انها قتلته ، وام خالد تقول :

— بابي انت حتى النزع لم يشغلك عني ، انه يوصيكم بي ... حتى هلك .

فكانت ايامه تسعة اشهر واياماً قلائل وقيل ثمانية اشهر وقيل غير ذلك ، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة ...

الحكم على مروان :

واذا نحن انكرنا حسن الادارة على مروان فليس يعني هـــذا اننا ننكر عليه الدهاء وحسن السياسة ورجحان العقل فيما ظهر منه عهد خلافته . ومن المؤكد لدينا الان ان حكمنا الاول يصدق عليه يوم كان كاتباً عنـــد عثمان بن عفان فكان في هذا العهد اكثر انقياداً لشهواته وعواطفه منه الى عقله ،ولكن

---

(١) الطبري ج ٧ ص ٨٣ ، امانولدكي المستشرق الالماني وصاحب الاغاني فينكران هذا الخبر .. ويقول غيرهم انه مات بالطاعون .

الايام احكمت توازنه ، وغلبت عواطفه ، فتبدل شخصاً اخربعد مرور ثلاثين سنة على العهد الاول ، وآية ذلك ما يرويه الكندي له [1] وكان مروان لما ولي الخلافة قد جاء الى مصر كما قدمنا ، فاقام بها شهرين ، ثم جعل ولايتها الى ابنه عبد العزيز ،كما جعل اليه صلاتها وخراجها فقال عبد العزيز :

– يا امير المؤمنين ، كيف المقام ببلد ليس به احد من بني ابي ؟

فقال مروان : يا بني عمهم باحسانك يكونوا كلهم بني ابيك،واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم ، واوقع الى كل رئيس منهم انه خاصتك دون غيره ، يكن عيناً لك على غيره ، وينقاد قومه اليك ، وقد جعلت اخاك بشر مؤنساً، وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً ، وما عليك يا بني ان تكون باقصى الارض ، أليس ذلك احسن من اغلاق بابك وخمولك في بيتك ؟

وكذلك نرى كيف دبر مروان ابنه ليخرّجه في الادارة ويعلمه حكم الناس، جعل له موسى بن نصير وزيراً ، وهو مـــاهو بعلمه وعقله وحسن سياسته ، وقدفارق موسى اميره عبد العزيز بعد حين ذاهباً الى افريقية والمغرب فقضى على البربر والرومان ، ثم فتح الاندلس مع طارق بن زياد .

ويجمع بعض المؤرخين على ان مروان في اواخر ايامه كان سريعاً في اقرار ما يستقرعليه رأيه،شديداً في معاملاته وحديثه مع الناس ، بحيث ذهب بعضهم الى القول باضطراب خلقه في اواخر ايامه كما هو شأن الشيوخ ، وانه كان فاحشاً في اقواله كعادة العرب الجفاة ، وينقم عليه المؤرخون انه لما وجه عبيد الله بن زياد الى العراق ، امره باباحة الكوفة لجنده بعد اقتحامها كما فعل يزيد بالمدينة.

اما بشر بن مروان مؤنس اخيه يوم تولى مصر ، فقد تقلد البصرة والكوفة فكان الناس يدخلون عليه من غير استئذان ، ليس على بابه حجاب ولا ستر ، ولابن عبدل في بشر بن مروان :

---

(١) تاريخ الولاة .

ولو شاء بشر كان من دون بابه طماطم سود او صقالبة حمر
ولكن بشراً أسهل الباب للتي يكون لبشر عندها الحمد والاجر

وقد استعمل عبد الملك لما ولي الخلافة بشراً وامره بالشدة والغلظة على اهل المعصية[١] وباللين على اهل الطاعة ، وخلف معه اربعة آلاف من اهل الشام منهم روح بن زنباع ورجاء بن حيوة الكندي ، وهما من امثل رجال بني امية واعلمهم وأسوسهم ، وكان من سياسة (بشر) أو من سياسة دولته عامة انه اذا ضرب البعث على احد من جنده ثم وجده اخلّ بمركزه اقامه على كرسي ثم سمّر يديه في الحائط ثم انتزع الكرسي من تحت رجليه فلا يزال يتخبط حتى يموت ، وبهذه الشدة على الجندين لم تحدث احداً نفسه بالهزيمة من الخدمة ، وكان جيش امية اطوع جيش عربي ، ولا يستغربن احد هذه الشدة فجزاء الفار من الجندية في يومنا هذا القتل .

ولقد رأينا عبد العزيز بن مروان امير مصر وما كان من نصيحة ابيه له في سياسة الرؤساء ليسلس له قيادة المرؤوسين ، وكيف لقنه ابوه اقرب الطرق الى استمالة القلوب ، وكان عند حسن ظنه به ، فجاء عبد العزيز نابغة في ادارته ، عمرت مصر في ايامه عمراناً ليس مثله ، وبنى في حلوان الدور والمساجد وغيرها احسن عمارة وأحكمها ، وغرس نخلها وكرمها ، وكان له الف جفنة[٢] كل يوم تنصب حول داره ، ومائة جفنة يطاف بها على القبائل تحمل على العجل الى قبائل مصر .

ولي عبد العزيز مصر فكان خراجها وجبايتها اليه ، فلم يوجد له مال يوم موته الا سبعة الاف دينار ، وكانت ولايته على مصر عشرين سنة وعشرة اشهر وثلاثة عشر يوماً ، على حين لما مات عبدالله بن عبد الملك بن مروان

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر .
(٢) الجفنة القصعة الكبرى من الطعام تقدم للناس.

وكان عاملاً على مصر ترك ثمانين مداً من الذهب ، وتقدم اليه ابوه أن يعفي آثار عمه عبد العزيز لمكانه من ولاية العهد،فاستبدل بالعمال عمالا ، وبالاصحاب اصحاباً ، ذلك لان عبد العزيز لم يرض ان ينزل عن ولاية العهد لابن اخيه في حياته ، وعبد العزيز هو والد امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الخليفة الاموي العادل ..

حياة مروان :

والخلاصة ان مروان كان فاحشاً في اقواله ، شديداً في معاملته ، وكان كبير الرأس دقيق العنق ، طويل القامة .

ويقول المسعودي: انه كان رجلاً بعيد الشعور ، وكان اصدق من معاوية في معتقداته السياسية ،فبينما كان معاوية يتخذ منقتل عثمان بن عفان حجة للوصول الى اغراضه ، كان مروان عظيم الايمان بحق عثمان ومقتله ظلماً ..

وكان ذكياً فطناً ، ملماً بالحديث ، متفرغاً للبحث فيه ،يقصده اهل المدينة لما كان فيها لاخذ رأيه .

ويقول ابن عساكر : « انه كان سيد شباب قريش ، القارىء لكتاب الله الفقيه في دين الله ، الشديد في حدود الله . »

ويجمع المؤرخون على ان مروان ولد في السنة الثانية للهجرة وانه توفي وله من العمر ٦٣ سنة ،ولكن (لامنس) يقول انه ولد قبل ذلك،بسنوات قليلة، ويقال انه ولد في الطائف ، وانه كان لاهله فيها مزارع ومال ، وحجة القائلين بكبر سنه ما كان يقوله مروان نفسه في معركة مرج راهط عن كبر سنه،وانه اصبح شيخاً كبيراً ،واذا كان هذا حقاً فمن المؤكد ان مروان مات بعد عمر يزيد عن السبعين ، وانه عاش حياة مضطربة قلقة ، حوصر مرتين وهو في

منزله بالمدينة اثناء الثورة في عهد عثمان بن عفان ، كما أجبر مرتين على مغادرة المدينة ، الاولى لما طرده اهل المدينة في عهد يزيد ، والثانية لما طرده عامل ابن الزبير من المدينة ايضاً وكان ابنه عبد الملك مريضاً، كما شهد موقعة (الحرة) واقتحام المدينة ، ومؤتمر الجابية ، ومعركة مرج راهط والمعارك التي حدثت في مصر بعد ذلك .

ويقول (لامنس) في تعليقه على حياة مروان ان هذه الحياة المضطربة القلقة التي قضاها مروان زادت في انحطاط صحته ، وضعف جسمه ، ويذكر (ابن عساكر) : ان مروان كان يشكو من جراح اصابته في معركة الجمل ، وجراح مثلها لما كان اهل الامصار يحاصرون عثمان في داره بالمدينة .

وهذا الضعف الذي نزل به من جراء هذه المشقات التي توالت في حياته الطويلة ، جعلته اكثر تعرضاً للامراض الوبائية التي كانت عامة في البلاد العربية في ذلك العهد ، وكانت طواعين الشام تفرض على خلفاء امية الهرب من الشام الى البادية ، ومن المؤكد ان نزول مروان الصبرة من فلسطين اثناء عودته من مصر ، يدل على انه كان هارباً من احد الطواعين .

وكان الطاعون في سنة ٦٥ للهجرة قد ظهر في العراق ، وكان شديداً قاسياً هلك فيه كثير من الناس ، وما عتم ان قطع الفرات ، ووصل الى الشام ، فهلك فيه الوليد بن عقبة زميل الضحاك بن قيس في الحكم ، وتبعه مروان بعد ذلك بقليل .

ويعز والمؤرخون سبب انتشار هذه الطواعين الى كثرة الحروب والثورات وتكدس القتلى على الارض، وعلى مقربة من الانهر والابار وانتشار الجراثيم بسببها مما كان يجعلها مهداً خصباً لامثال هذه الاوبئة ، هذا الى عدم عناية الناس في ذلك العهد بالماء الذي يشربونه والذي كان مليئاً بالجراثيم ، وكان يصعب عليهم تنقيته لجهلهم الامور الصحية .

ويقول (المسعودي) عن مروان وهو من الذين يكرهونه في كتاب التنبيه والاشراف : « انه كان رجلاً بعيد الغور ، حكم الحجاز ، وكان اميراً للحج وقد وصل الى الخلافة في عهد كان سنه يجعله زاهداً في الدنيا متطلعاً الى الآخرة ، بحيث يستطاع ان يقال انه لم يسع الى الخلافة بل حمله اليها انصاره وحين ارتبطت مصلحتهم بمصلحته ، ولكنه ما كاد يصل الى الخلافة حتى اصبح شخصاً ثانياً وعادت اليه فطنته وذكاؤه ، ومقدرته على تصريف الامور . وقد ظل على العرش الوقت الكافي لتوطيد الملك لبنيه من بعده ، ومن غريب امر الاقدار ان مروان الخليفة الوحيد الذي افضى بالملك الى اربعة من اولاده بعده.

نظام البيعة في عهد معاوية ومروان :

وقد بسطنا في كتابنا (معاوية بن ابي سفيان وعصره) شيئاً عن نظام البيعة في الاسلام وكيف ان هذا النظام كان ديموقراطياً صرفاً ، يختار فيه المسلمون افضلهم واحسنهم ، واقدرهم على تقلد الخلافة ، فلما كان الامر لمعاوية بعد مقتل علي رضي الله عنه اتبع في نظام البيعة سبيلاً جديداً لم يؤيده احد ، ولم يقبله الا شيعته وانصاره ، بايع لابنه يزيد في الخلافة من بعده ، واخذ له البيعة في حياته قسراً على النحو الذي وصفناه ، ولو كان يزيد اهلاً للخلافة لما كان لنا ما نقوله ، ولكنه لم يكن لهذا المنصب العظيم اهلاً ولا للحكم صالحاً ، وكان الناس يعرفون ذلك ، فلما ولي الخلافة ثار الحجاز ، وخرج الحسين بن علي الى العراق ، وكثرت الثورات في عهده ، وزاد الاضطراب وعمت الفوضى ، وليس ادل على انكار العرب لخلافة يزيد من قول الاحنف بن قيس لمعاوية يوم طلب منه البيعة لابنه :

— نخافكم ان صدقنا ، ونخاف الله ان كذبنا ، وانت يا امير المؤمنين اعلم بيزيد في ليله ونهاره ، وسره وعلانيته ، ومدخله ومخرجه ، فان كنت تعلمه للامة رضى ، فلا تشاور فيه ، وان كنت تعلم فيه غير ذلك ، فلا تزوده الدنيا وانت صائر الى الآخرة ، وانما علينا ان نقول سمعنا واطعنا ..

ولقد كان من اثر تولية معاوية ليزيد ان اتبع يزيد خطة ازهدت النـــاس في ولايته ، وحملت المسلمين على بغضه ، فقد قتل الحسين او قتل احـــد عماله الحسين ، واباح المدينة لجنده ، بعد اقتحامها ، وكثر السفك والدم فيها، وهذه خطة خاسرة وسياسة بغيضة ، ولو كان عاقلاً بعيد النظر ، لأخذ اهل المدينة بالتي هي احسن لا بالتي هي اقبح ، ثم لعاملهم بما يجب ان يعاملهم بـه خليفة يريد المحافظة على ملكه وعرشه، وزاد في كره الناس له مقتل الحسين بن علي في عهده ، والطريقة التي جرى فيهـــا القتل ، وكان من حسن السياسة اسره لا قتله ، فلم تدم ولايته كثيراً ، وقام بالامر بعده ابنه معاوية ، فلم يتمتع بالملك لمرضه وزهده في الدنيا ، قيل لم يزد عهده عن اربعين يوماً وقيل اكثر ، ثم ترك الخلافة لشأنها ، فلم ينتخب احداً ولم يوصى باحد ، فانتقلت الخلافـة من آل ابي سفيان الى بني مروان ، وكذلك نرى ان الطريقة التي اتبعهـا معاوية في نظام البيعة لم تعش بعده اكثر من اربع سنوات وعـدة اشهر ، ثم انتقلت الخلافة الى عائلة ثانية لم يكن يفطن معاوية في حال من الاحوال انها ستكون لها ، وان سعيـه هذا سيكون لغير اولاده من بعده .

طريقة جديدة :

فلما ولي مروان بن الحـكم الخلافة بعد معاوية بن يزيد خرج في نظام البيعة بنظام جديد لم يسبق له مثيل ، فذهب يولي عهـــده لاثنين من اولاده ، يلي احدهما الاخر ، وكانت هـــذه الطريقة من اكبر المصائب التي نزلت بالبيت المالك الاموي ، بذرت بذور الشقاق والبغضـــاء بين افراد البيت ، واورثت بينهم الحقد والكراهية ، وسبب ذلك انه لم يكن يتم الامر لاولهما حتى يعمل لاقصاء الثاني من ولاية العهد ، واحلال احدبنيه مكانه ، ولم يقتصر النزاع بين افراد البيت المالك ، بل تعداهم الى القواد والعمال ، فانه لم يكن يتم الامـــر لثانيهما بعد وفاة شقيقه ، الذي حاول غصبه عن حقـه ولم يوفق ، حتى نراه

ينتقم ممن ظاهر شقيقه وايده على عزله من ولاية العهد من القواد والعمال .

ولى مروان ابن الحكم عهده لابنيه من بعده ، عبد الملك ثم عبد العزيز فلما تسنم عبد الملك بن مروان الخلافة ، طلب من شقيقه عبد العزيز ان يتنازل عن ولاية العهد لابنيه الوليد وسليمان ، فرفض عبد العزيز ذلك ، فاراد ان يعزله ، واستشار قبيصة بن ذؤيب فنهاه عن ذلك ، فاستشار روح بن زنباع فقال له :

— لو خلعته ما انتطح فيه عنزان .

فبينا هو على ذلك اذ جاء الخبر بوفاة عبد العزيز ، فقال عبد الملك لروح:

— كفانا الله يا ابا زرعة ما كنا فيه ، وما اجمعنا عليه .

وعهد الى ابنيه الوليد ثم بعده لسليمان ، وكتب ببيعته لهما الى البلدان فبايع الناس خوفاً وفزعاً ، وامتنع من ذلك سعيد بن المسيب احد التابعين وكبير فقهاء المدينة ، فضربه امير المدينة وطاف به وحبسه .

ولو لم يمت عبد العزيز لوقع الاختلاف فعلا ، ولاستقل عبد العزيز بمصر ، وحارب شقيقه ومن والاه في سبيل الخلافة ، ولتمزقت كلمة العرب مرة اخرى في سبيل الخلافة والسلطان ..

— ٥ —

عبد الله ابن الزبير

نشأته وحياته الاولى

الزبير بن العوام :

نعم عبدالله بن الزبير بكثير من الشرف منذ فجر الاسلام ، فقد كان ابوه الزبير بن العوام من صحابة رسول الله المقربين ، ومن انسباء الرسول الاقربين ، وكانت له يد مشكورة في الدفاع عن الرسول والاسلام ، ثم كانت له اياد في الفتوحات الاسلامية الاولى بعد وفاة رسول الله ، ارسله عمر بن الخطاب نجدة لعمرو بن العاص لما كان بمصر يحاول اقتحام حصونها وقلاعها ، وقال له :

— اني ارسلت لك رجلا بالف ..

وكان الزبير الى هذا كله من اصحاب الثروات الضخمة . وكان من الستة اهل الشورى الذين عهد اليهم عمر بن الخطاب اختيار الخليفة من بعده ..وكان

الزبير يكنى ابا عبد الله [1] وامه صفية بنت عبد المطلب بن هاشم عمة رسول الله ، وهو الزبير بن العوام بن خويلد بن اسد بن عبد العزي بن قصي القرشي الاسدي .

وتقول بعض المصادر ان الزبير اسلم وهو ابن خمس عشرة سنة .. [2]

ومما يذكر ان علياً والزبير وطلحة وسعد بن ابي وقاص ولدوا في عام واحد .. فاعجب للثلاثة الاول يختلفون فيما بينهم بشأن الخلافة لما آلت الى علي رضي الله عنه ، حتى يقتلوا ثلاثتهم في سبيلها ايضاً ..

ولم يتخلف الزبير عن غزوة غزاها رسول الله ، وآخى رسول الله بينه وبين عبدالله بن مسعود حين آخى بين المهاجرين بمكة ، فلما قدم المدينة وآخى بين المهاجرين والانصار ...آخى بين الزبير وبين سلمة بن سلامة ..

وكان له من الولد عشرة ، وكان اول من سلّ سيفاً في سبيل الله .

ويقول الواقدي : كان الزبير رجلاً ليس بالطويل ولا بالقصير ، خفيف اللحية اسمر اللون ، وكان لا يغير شيبه ..

وروى عن هشام بن عروة عن ابيه ان الزبير كان طويلاً تنخط رجلاه الارض !! اذا ركب دابة .. ازرق الشعر [3] ..

ويقول صاحب الاستيعاب : كان الزبير اسمر ربعة معتدل اللحم خفيف اللحية وكان الزبير تاجراً موفقاً في التجارة ، وقيل له يوماً :بم ادركت في التجارة ما ادركت ؟

فقال : اني لم اشتر عيناً ولم ارد ربحاً ...والله يبارك لمن يشاء ..

وكان للزبير الف مملوك يؤدون له الخراج ..

واختلف الزبير مع علي بن ابي طالب بعد مبايعته له بالخلافة ، وفارقه هو وطلحة وانضما الى عائشة زوج رسول الله ، حيث حشدوا جيشاً في البصرة

(١) الاستيعاب ... وفي المعارف لابن قتيبة ! « ابا عبيدالله » .
(٢) هناك اختلاف عظيم في سنه يوم اسلامه ، وهذه الرواية اصح من سواها ..
(٣) المعارف لابن قتيبة ..

فتبعهم علي وقاتلهم فغلبهم ، وقتل طلحة في المعركة ، وغادر الزبير المعركة قبل انتهائها نادماً فلحقه ابن جرموز في جماعة من بني تميم فقتلوه .. وكان سن الزبير يوم قتل سبعاً وستين سنة ، وقيل ستاً وستين ..

عبدالله بن الزبير :

وكانت ام عبدالله اسماء بنت ابي بكر الصديق ، أخت عائشة زوج رسول الله ، وكانت من ذوات الحزم والرأي .. ابية النفس شجاعة الى اقصى درجات الشجاعة ..

وكان عبدالله اول مولود للمهاجرين بالمدينة عام الهجرة ، ولما ولدته امه ، اتت به رسول الله فوضعته في حجره ، فدعا بثمرة فمضغها ، ثم تفل في فيه فكان اول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ..

وفرح المهاجرون بولادته وكبّروا ، وذلك انه قيـــل لهم ان اليهود قد سحرتهم فلا يولد لهم ..

ونشأ عبدالله في المدينة وتربى فيها ، ونال من التعليم المعروف في عصره ، قدراً حسناً ، فعرف القرأة والكتابة وحفظ القران ، وروى الاحـاديث ، وقرأ كثيراً من الشعر على مايظهر ، وعاش حياته الاولى يخالط كبار الصحابة فاثر هذا تأثيراً عظيماً في اخلاقه ، وجعله يكثر من العبادة والتهجد وذكر الله ، وساعدته هذه البيئة الروحية ايضاً على تعزيز خلال جميلة كانت مستقرة في نفسه ، فظهر للناس بطلاً شجاعاً وخطيباً بارعاً حتى قال فيـه ابو عبيد :

« ان عبدالله بن الزبير كان لاينازع في ثلاث : شجاعة ، وبلاغة ، وعبادة . »

ولكن هذه الصفات لم تكن كافيـــة للحياة الدنيـــا ، بحيث تمكن لصاحبها من اقامة الدول ، وتأسيس العروش ، وبناء الممالك ، فقد كان ينقص عبدالله ابن الزبير بعد النظر السياسي ، وحسن السياسة ، وشدة التأثير على الجماعات والبذل في سبيل العرش ، والاحسان الى الناس ليكسب تأييدهم ،

ويحببهم الى شخصه ، ليحاربوا في سبيله ، ويتفانوا في اقرار اغراضه ..

ويذكر المؤرخون في وصفه انه كان عنيداً معتداً بنفسه وقوته، منذ صغره، فقد كان ذات يوم يلعب مع صبيان المدينة ، فمر بهم رجل فصاح بهم ، ففروا ومشى عبدالله القهقري ثم قال :

– يا صبيان اجعلوني اميركم وشدوا بنا عليه ...ففعلوا ..

ومر به عمر بن الخطاب يوماً وكان عبدالله مع صبيان يلعبون ، ففر الصبيان وبقي عبدالله في مكانه ، فقال له عمر :

– لماذا لم تفر مع رفاقك ؟

فاجابه : لم اجرم فاخافك ، ولم تكن الطريق ضيقة فاوسع لك (١)

ولما بلغ اشده كان لا يترك السيف من يده ، فكان والده الزبير يقول له :

– والله ليكونن لك منه يوم وايام ..

فلما بلغ الشباب صحب الجيوش الغازية اول الفتوح ، وكان له بلاء محمود في المعارك .

روى الزبير بن بكار : « انه –عبدالله– قتل بيده في فتح افريقية امير جيوش الروم » فارسله عبد الله بن ابي سرح (وكان قائد جيش المسلمين) بشيراً الى امير المؤمنين عثمان ، فلما سمع بشارته أعجبه كلامه وشجاعة قلبه ، ثم سأله :

« أيمكنه أن يخطب الناس بمثل ما أخبره به ؟ »

فاجابه : وما يمنعني من ذلك ؟

ثم قام خطيباً ، وتدفقت من فيه آيات البلاغة ، وأطنب في وصف الفتوح، وفصّل هزيمة العدو ، حتى أسر القلوب ، وأدهش السامعين ، بفرط بلاغته وقوة عبارته ، وتمكنه من ناصية القول والموقف ؛ فقام ابوه وقبله بين عينيه ،

---

(١) ابن الاثير ج ٤ ص ١٣٩ ..

وانفض الجمع ، وليس فيهم إلا معجب ببيانه ، مثن على شجاعته.

ولم اطلع في وصف عبد الله على عبارة وافية موجزة أبلغ من قول ابي عمرو بن عبيـد :

« كان عبد الله شهما ذكراً ذا انفة ، وكان له لسن وفصاحة ، وكان كثير الصلاة والصوم والعبادة ، شديد البأس ، كريم الجدات والامهات والخالات» .

بهذا الوصف الكريم الجامع استأهل ابن الزبير ان يكون في الطبقة العالية بين رجال عصره ، وما فتيء عثمان يتفرس في مخـايله قوة الشكيمة ، وفرط النبوغ ؛ ويرمقه بعين ملؤها الحب والرضا ، حتى كان يوم الدار ، فاستخلفه عليها قبيل مصرعه [1]

ومن ثم دبّ الطمع الى قلبـه في طلب الخلافة لنفسه ، وابقى ذلك سراً مكتوماً ، ولكنه لم يأل جهداً في تحقيق هذا الحلم الجميل الذي يلائم طبعـه ويشبع رغباته الكامنة ، ولِمَ لا يكون خليفة وقد استخلفه امير المؤمنين عثمان على داره التي هي دار الخلافة ؟

ولِمَ لا يكون خليفة .. وجده ابو بكر اول الخلفاء وابوه احد العشرة ؟

بمثل هذا تحدث الى نفسه ، ولكن أنىّ له هذا ، وفي القوم من هو اقرب منها اليه ، وابعد تأثيراً واثراً في جمهرة المسلمين !!!

والواقع اننا لا نؤمن بان عبدالله بن الزبير فكـّر في الخلافة عهد علي بن ابي طالب ، وقد كان ابوه لا يزال حياً ، فاما بعد موت ابيه وعـلي من بعده ، فليس بمستبعد ان يكون تحدث الى نفسه بامرها،خصوصاً بعد ان وليها معاوية، وعهد بها الى يزيد ابنه من بعده .. وعبدالله كان مـا في ذلك شك افضل من يزيد اخلاقاً ، واوثق اسباباً ..

ومن المؤكد عندنا ان عبدالله بايع علياً كما بايع ابوه وطلحة ، ولكن عبـد

---

(١) العقد الفريد .

الله كما يظهر لنا كان شديد الاتصال بعائشة زوج رسول الله ، التي كانت تحقد على(علي) كلمة قالها في عهد رسول الله يوم نصحه بتطليقها والتزوج بسواها ، فلما ولي علي لم تبايعه ، واخذت تؤلب الناس عليـــه ، متهمة اياه بالسكوت وعدم المبالاة في شأن عثمان ، ويذهب بعض المؤرخين الى ان عبدالله نفسه هو الذي اثار حفيظتها ، بعد ان راح يتحدث لها بفظاعة الجريمة التي ارتكبها الثائرون ضد عثمان ، وما كان من امر علي معها ، وكيف انه قد تجاهل مكانتها حين اصبح الامر له .. فاستجابت لما ألقى اليها من دواعي الاغراء ، وقد ظنت انهـــا موفقة الى جمع الناس حولها ، وقامت تخطب المسلمين ، وتحرضهم على الانتقام لعثمان بن عفان ، فاستجاب لها عدد قليل حاربت بهم علياً في وقعة الجمــل ، وكان الزبير وطلحة وعبدالله ابن الزبير في الجيش معها ، وقد سحق علي انصار عائشة ومزقهم ، وقتل طلحة في المعركة ١) وقتل الزبير بعـــد ان غادوها كما قدّمنا ، وردّ علي عائشة مكرمة الى مكة ..

ويقول لنا ابن الاثير : لما التقى الجمعان في وقعة الجمـــل خرج الزبير على فرس عليه سلاح ، فقيل لعلي : هذا الزبير ..

وخرج طلحة فخرج لهما علي ،واخذ يناقشها ويعاتبهما على خروجهما عليه وذكر للزبير كيف ان رسول الله قال له يوماً : لتقاتلنه وانت ظالم له .

وقال له علي : قد كنا نعدك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرّق بيننا ..

فلما سمع الزبير منه ذلك قال له :

-والله لاقاتلك ابداً ولو ذكرت ما ذكرته لي الآن ما سرت سيري هذا ..

ولما علم عبدالله بن الزبير ان اباه سيترك القتال ويغادرهم عتب عليه ،واتهمه بالجبن ، وفي هذا ما يدل على ان عبدالله كان صاحب تأثير كبير في معركة الجمل

(١) يقال ان الذي قتله مروان بن الحكم وكان في جيش عائشة رماه بسهم لحقده عليـــه موقفه من عثمان واثارته الناس عليه ..

حتى انه ردّ اباه الى المعركة فحارب فيها ، فلما باء اصحابه بالفشل غادرها .. فقتل على نحو ما ذكرناه قبلا ..

وفي معركة الجمل وقف عبدالله بن الزبير بازاء جمل عائشة يدافع عنها ، فانتهى اليه الاشتر من اصحاب علي ، فاقتتلا فضربه الاشتر على رأسه فجرحه جرحاً شديداً ، وضربه عبدالله ضربة خفيفة ، واعتنق كل رجل منهما صاحبه وسقطا الى الارض يعتركان فقال ابن الزبير :

– إقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي ...

وحمل اصحاب علي وعائشة فخلعوهما ..

ويقول ابن الاثير : وجرح عبدالله بن الزبير سبعاً وثلاثين جرحاً من طعنة ورمية ... ونزل في البصرة بعد المعركة بدار رجل من الازد اجاره ، ثم ذهب الى مكة ..

ويقول المسعودي : ان عائشة قالت يوماً : اذا مرّ ابن عمر فارونيه .

فلما مرّ قالوا : ابن عمر ؛ فقالت :

– يا ابا عبد الرحمن ، ما منعك ان تنهاني عن مسيري الى العراق ؟

قال : رأيت رجلاً قد غلب عليك ، ورأيتك لا تخالفينه !! (يعني عبد الله بن الزبير) ..

ويؤخذ من هذا ومن قول الرواة ...أن عبد الله كان المحرك الخفي لجيش عائشه على علي ، وانه كان قطب الرحا يوم الجمل ، والدافع له الى هذا انما هي نيته المستورة ، ورغبته المكبوتة في امر الخلافة ..

عبدالله ومعاوية :

ثم تجري الامور على قدر ، ويتولى معاوية الامر بعد مقتل علي ، فيتمنى عبدالله ان لو كان معه جند يشد ازره أمام الخليفة الجديد ! ولكن انى لهذلك الآن ! وقد انقسم المسلمون فرقتين ، ظفرت سياسة احداهما بزعامة معاوية ،

وخذلت الاخرى بصرع بن ابي طالب ، فلم يبق الا الاذعان للواقع ، والحزم اذن في المداورة لمن يبغى أمراً جللاً كهذا ، ولابد حينئذ من المبايعة ، مع الترقب من جديد لفرصة اخرى امثل من هذه .

ولم يكن معاوية من الرجال الذين يجهلون مطامع عبدالله ومكنونات صدره، ولكنه لم يكن يخشاه على نفسه ، وانما كان يخافه على ولده .. لانه كان يعلم ان عبدالله لن يثور عليه ، ولن ينقلب الى خلافه ، وتحدثنا بعض المصادر ان معاوية حجّ سنة ، ثم قفل الى الشام ليلاً ، فلم يعلم بسفره من غير خاصته إلا عبدالله بن الزبير .. فقفا اثره على فرس ،حتى ادركه ، ومعاوية نائم في هودجه، فانتبه على وقع الحافر وقال :

- من صاحب الفرس ؟

فقال : انا عبدالله .. لو شئت يامعاوية قتلتك الان ..

(يمازحه بهذه الكلمة ما في ذلك شك) .

فقال معاوية : لست هناك ..

ثم دار بينهما حوار طويل .. وكان مما قاله عبدالله :

- افعلتها يامعاوية ! - يعرض ببيعة معاوية ليزيد -

«اما انا قد اعطيناك عهداً ، ونحن وافون لك به ما دمت حياً ، ولكن ليعلمن من بعدك .. »

وفي هذا التهديد ما فيه ، وفيه تعريض صريح بانه اي عبـــدالله ثائر على الخليفة الجديد بعد معاوية ..

وطالت خلافة معاوية زهاء عشرين سنة ، كان في اثنائها يزوره عبدالله بن الزبير في دمشق ، فيغمز عليه معاوية عمرو بن العاص ليحرجه ، ويخرجه ، فيشتد بينهما الجدل ، ويتأكد النزاع والخلاف ، وفي ذات مرة قال عبـــدالله لعمرو بن العاص :

– يا ابن العاص انما طال بي الى الذّري "مالا يطول بك مثله ، أنف همي ، وقلب ذكي ، وصارم مشرفي ، في تليد فارع ، وطريف مانع ..

وكان معاوية في الواقع لايخشى غيره على خليفته من بعده ، فقد كان يعد خطر الحسين هيناً ليناً ، وكان يعد امر عبدالله بن عمر ، اكثر بساطة لانه رجل وقذته العبادة ، وانصرف الى الصلاة والتقوى ، واما ابن الزبير فمع تقواه وصلاحه ، كان طموحاً ، عنيداً ، ماكراً، يخشى شره ، ويحسب حسابه.

وقال معاوية لابنه وهو يوصيه : اياك منه .. – ابن الزبير – انه الثعلب الماكر ، والليث يصول بالجرأة عند اطلاقه ، فوجه اليه كل جدك وحزمك ، واما ما بعد ذلك فقد وطأت لك الامم وذللت لك اعناق المنابر ..

ويقال ان الاسباب التي دعت الى معركة الجمل ونقمة الزبير وطلحة على علي بن ابي طالب ، ان الزبير كان يطمع بولاية العراق وطلحة في ولاية اليمن فلما ارسل علي الولاة ، ولم يكن لهما حظ في الولاية نقما عليه وتكلما في شأنه ، وندما على بيعتهما له وعزما على الخروج ، فاستأذنا علياً في الخروج الى مكة لاداء العمرة ، فلم يخف عليه امرهما ، وقال :

– والله ما العمرة تريدان ؟

ولكن المؤكد عندنا ان طلحة والزبير كانا يطلبان حظاً في الدنيا مثل حظ علي ، وليس بعيداً ان يكونا قد فكرا في الخلافة ايضاً ، وقد قيل ان مروان بن الحكم قال لهما بعد خروجهما :

– على ايكما اسلم بالامرة واؤذن بالصلاة؟

فقال عبدالله بن الزبير : على ابي .. – يعني الزبير بن العوام –

وقال محمد بن طلحة : على ابي طلحة ..

وكان هوى عائشة مع ابن اختها عبدالله بن الزبير... فأرسلت الى مروان تقول له :

— اتريد ان تفرق امرنا .. ؟ فليصل بالناس ابن اختي — تريد عبـــد الله بن الزبير .. —

معاوية وحزب المعارضة :

ويجمع المؤرخون على ان معاوية لماتمت له بيعة يزيد عند اهل الشام والعراق ذهب الى المدينة لاخذ البيعة لابنه ، وكان ممن اعترض على بيعته عبد الرحمن بن ابي بكر ، والحسين بن علي ، وعبـــدالله بن الزبير ، وكان ابن الزبير اشدهم اعتراضاً وانكاراً ، فشكاهم معــاوية الى عائشة وهدد بقتلهم ، فنصحته بالرفق والاحسان ، فاجتمع اليهم وتكلم معهم بشأن البيعة ، فقال ابن الزبير :

— نخيرك بين ثلاث خصال .

قال معاوية : اعرضهن ..

قال ابن الزبير : تصنع كما صنع رسول الله ﷺ ، او كما صنع ابو بكر ، او كما صنع عمر ..

قال : ما صنعوا .. !

قال ابن الزبير : قبض رسول الله عليه السلام ولم يستخلف احداً فارتضى الناس ابا بكر .

قال معاوية : ليس فيكم مثل ابي بكر .. واخاف الاختلاف ..

قالوا:صدقت ، فاصنع كما صنع ابو بكر فانه عهد الى رجل من قاصية قريش ليس من بني امية فاستخلفه ، وان شئت فاصنع كما صنع عمر ، جعـــل الامر شورى في ستة نفر ليس فيهم احد من ولده ولا من بني ابيه ..

قال معاوية : هل عندك غير هذا ..؟

قال ابن الزبير : لا

ثم سأل الاخرين : وانتم !

قالوا :قولنا قوله ..

قال معاوية : اني قد احببت ان اتقدم اليكم انه قد اعذر من انذر، اني كنت اخطب فيكم ، فيقوم اليّ القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس ، فاحمل ذلك واصفح ، واني قائم بمقالة ، فاقسم بالله لئن رد عليّ احدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع اليه كلمة غيرها .. حتى يسبقها السيف الى رأسه ..

ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم ، فقال له :

-- اقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ، ومع كل واحد سيف ، فان ذهب رجل منهم يرد علي كلمة بتصديق او تكذيب فليضرباه بسيفهما ..

ثم خرج وخرجوا معه حتى رقي المنبر ، فحمد الله واثنى عليه ثم قال : «ان هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا يبتز امر دونهم ، ولايقضى إلا عن شورتهم ، وانهم قد رضوا وبايعوا ليزيد ،فبايعوا على اسم الله.. »

فبايع الناس ، وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر ، ثم انصرف معاوية الى المدينة ...

ولما مات معاوية بايع الناس يزيداً بالخلافة ، وقعد عن بيعته الحسين بن علي ، وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عباس ، وعبدالله بن عمر ، فكتب يزيد الى واليه على المدينة ليأخذ له البيعة من هؤلاء النفر . فبايعه عبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر ، اما عبدالله بن الزبير فانه هرب الى مكة واستعاذ بالبيت واخذ يعمل على الدعوة لنفسه ، ولكن وجود الحسين في طريقه ، كان يجعل نجاح دعوته شيئاً صعباً وامراً شديداً ..

- ٦ -

ابن الزبير يعلن استقلاله

وينادي بخلافته

مقتل الحسين :

رفض الحسين بن علي ان يبايع ليزيد بن معاوية وغادر المدينة الى مكة حيث اخذت ترده كتب الشيعة في الكوفة بالقدوم اليهم ، فارسل اليهم مسلم بن عقيل ليكون رسوله فيهم ويأخذ له بيعتهم ... فذهب مسلم الى الكوفة ، فالتف حوله عدد كبير من الشيعه بايعوه على نصرة الحسين والحرب في سبيله ، فكتب الى الحسين بما شاهد وسمع ، وحثه على القدوم ..

ويقول ابن الاثير : انه لما نزل الحسين مكة جعل اهلها يختلفون اليه ، ويأتونه ، ومن بها من المعتمرين واهل الافاق ، وابن الزبير بها قد لزم جانب الكعبة فهو قائم يصلي عندها عامة النهار ، ويطوف ويأتي الحسين فيمن يأتيه ولا يزال يشير عليه بالرأي ، والحسين اثقل خلق الله على ابن الزبير ، لان اهل الحجاز لا يبايعونه ما دام الحسين باقياً بالبلد ...

ويذكر ابن الاثير : ان كثيراً من انصار الحسين واصدقائه نصحوه بعدم الخروج الى العراق .. وان عبدالله بن الزبير جاءه يوماً فقال :

— خبرني ما تريد ان تصنع ..؟

فقال الحسين : لقد حدثت نفسي باتياني الكوفه ، ولقد كتبت اليّ شيعتي بها واشراف الناس واستخير الله ..

فقال له ابن الزبير : اما لو كان لي بها مثل شيعتك لما عدلت عنها ...

ثم خشي ابن الزبير ان يتهمه الحسين فقال :

— اما انك لو اقمت بالحجاز ثم اردت هذا الامر هنا لما خالفنا عليك وساعدناك وبايعناك ونصحنا لك ...

فلما خرج ابن الزبير من عنده ، التفت الحسين الى اصحابه وقال :

— ان هذا ليس شيء في الدنيا احب اليه من ان اخرج من الحجاز ، وقد علم ان الناس لا يعدلونه بي ، فود اني خرجت حتى يخلو له . . وسار الحسين الى الكوفة في سنة ستين وقتل في كربلاء في سنة احدى وستين على نحو ما فصلنا في كتابنا (معاوية بن ابي سفيان وعصره ..)

اثر مقتل الحسين :

وكان من اثر مقتل الحسين ، ان اصبح ابن الزبير وحده في الحجاز ، لا يزاحمه احد ، ولا يقف في طريقه شخص ...

وكان من اثرها في السياسة انوحدّت الشيعة، وازكت نار الحقد في نفوسهم ضد يزيد وعماله ، كما وقف المسلمون ينكرون هذه المأساة المروعة التي كان بالامكان تفاديها لو كان يزيد بعيد النظر وافر الذكاء ، يدرك مقدار الخطر الذي يهدد عرشه وعرش من بعده من جراء مذبحة كهذه تهز المسلمين قاطبة هزاً عنيفاً ...

ظن يزيد انه يدافع عن عرشه بمقاتلة الحسين ومحاربته ، والحسين في الواقع لما مشى الى الكوفة لم يكن يؤلف مع جماعته وانصاره وعائلته اكثر من ثمانين نفساً رجالاً ونساءً واطفالاً ، ومن المفروض ان جمعاً كهذا يتعذر عليه افتتاح البلد واخضاع المصر ، وانه بالامكان وقفه عند حده وتطويقه ، والقبض على رجاله بالطرق السلمية ، ولكن يزيداً وعامله عبيد الله بن زياد ارتكبا خطيئة سياسية فظيعة ، كان من اثرها تمزق ملك بني سفيان واختــلاف المسلمين فيما بينهم اختلافاً عظيماً ..

وبمقتل الحسين اصبح التشيع حزباً سياسياً خطيراً له شأنه واغراضه ومبادؤه وامتزج التشيع في قلوب اصحاب علي واهله بدمائهم وتغلغل في اعماق نفوسهم واصبح عقيدة راسخة قوية... واصبح الشيعة يشكلون خطراً داهماً على الدولة الاموية ، ينتهزون الفرص للثورة عليها ومحاربة جندها وطرد عمالها والدعوة ضدها ..

وكذلك انتشر التشيع بين الفرس الذين تربطهم بالحسين روابط المصاهرة ، اذ كانوا يرونه احق بالخلافة ثم اولاده من بعده ، لانهم يجمعون بين اشرف دم عربي ، وانقى دم فارسي ...

وصف امير علي :

ويقول السيد امير علي المؤرخ الهندي في وصف مقتل الحسين :

« وهكذا فاضت نفس من ازكى النفوس في ذلك العصر ، وكادت تنقرض بموته افراد اسرة النبي الذكور ، لولا هذا الطفل المريض الذي انقذتــه زينب اخت الحسين من المذبحة العامة ، وهو علي بن الحسين ، ولقب فيما بعد بزيــن العابدين ، وهو ابن الحسين من زوجـــه بنت (يزدجر) آخر ملوك الفرس الساسانيين ... وفي شخصه خلدت اسرة النبي ، كما كان فوق هذا يمثل المطالبين بعرش الفرس من آل ساسان ...

« لقد هزت مذبحة كربلاء العالم الاسلامي هزاً عنيفاً وروّعته بمأساتها الدامية ، كما خلقت في فارس شعوراً وطنياً ساعد احفاد العباس فيما بعد على استغلاله لمصلحتهم الشخصية ، وتقويض دعائم الدولة الاموية ..!!

« وكان من اثر مقتل الحسين ايضاً ان ثارت المدينة ، وطردت عاملها ، وارسل اليها يزيد بن معاوية جيشاً فدارت بين الفريقين معركة شديدةاسفرت عن هزيمة اهل المدينة ومصرع زهرة شباب الانصار والمهاجرين ، وانتهاك حرمة البلد المقدس، وفي هذه الموقعة هدمت معظم المدارس والمنشئات الهامة، ودخلت شبه جزيرة العرب في عهد مظلم شديد الحلكة حتى قيض لها جعفر الصادق بعد بضع سنوات فبعث في المدينة روح الحركة العلمية التي كانت قد ازدهرت في عهد الخلفاء الراشدين ، ومع ذلك فانه بالرغم من هذا الانتعاش الوقتي ، فقد بقيت المدينة بلدة لا شأن لها ، لولا وجود قبر الرسول فيها ، ولولا رغبة المسلمين في زيارة هذا القبر المقدس...»

ابن الزبير ومقتل الحسين : »

ومن المفروض انه يفيد ابن الزبير من مقتل الحسين كل الفائدة ولعله الشخص الوحيد الذي أفاد من قتله ...

ولما بلغ ابن الزبير مقتل الحسين وهو في مكة اظهر الخلاف على يزيد وقام في الناس خطيباً ،فعظّم قتله وعاب اهل الكوفة خاصة ، واهل العراق عامة، وعرض ليزيد ، فاظهر بغيه وظلمه وسرفه وشربه للخمر ...

ولما انتهى من خطبته ثار عليه اصحابه وقالوا :

- اظهر بيعتك،فانك لم يبق احد اذ هلك الحسين ينازعك هذا الامر ...

والظاهر ان ابن الزبير كان يقبل البيعة من اصحابه سراً ، وكان يخشى ان يتظاهر وعمرو بن سعيد يومئذ عامل يزيد على مكة ،وهو اشد شيء على ابن

الزبير، وقد حاول يزيد ان يأخذ البيعة من ابن الزبير قسراً ، فلم يوفق عامله الى ذلك ، وابن الزبير كائن بالبيت ومعه جماعته يحمونه ، فعزل عندئذ يزيد عمر وبن سعيد ... وعين الوليد بن عتبة على الحجاز مكانه [1]

وحاول الوليد ان يجد من ابن الزبير غرة ، فلم يوفق ، ووجده محترزاً ممتنعاً ، فلما ابصر يزيد ضعف الوليد عزله في سنة اثنين وستين ، وولى عثمان بن محمد بن ابي سفيان مكانه ، وهو فتى حدث لم يجرب الامور ولم يحنكه السن ، وفي هذه السنة اخذت الحالة في المدينة تزداد اضطراباً وقلقاً واخذ اهلها يشتمون يزيداً ويتحدثون عن اخلاقه وفسوقه وقالوا بخلعه ، فلما كانت سنة ٦٣ اخرجوا عثمان بن محمد بن ابي سفيان عامل يزيد .. وحصروا بني امية وكانوا يعدون الف رجل ، فتحصنوا في بيت مروان بن الحكم وارسلوا يستغيثون بيزيد ، فكان ما كان من ارسال يزيد الجيش الى المدينة بقيادة مسلم بن عقبة واقتحامه اياها ، واسرافه في الدم والقتل كما وصفنا ...

ولما انتهى مسلم من امر المدينة مشى الى مكة وفيها عبد الله بن الزبير وكان قد بلغه امر المدينة ، فاستعد لمحاربة مسلم ومن معه ، فمات مسلم في الطريق وولى على الجيش الحصين بن نمير ، وكان يزيد قد اوصاه بتوليته اذا وقع له شيء ، فسار الحسين بالجيش الى مكة وحصرها ، [2] فخرج اليه ابن الزبير في اتباعه وانصاره ، ودارت رحى القتال بين الفريقين ...

وكان اهل الحجاز قد بايعوا عبد الله بن الزبير واجتمعوا عليه ، ولحق به المنهزمون من المدينة ، وقدم اليه نجدة بن عامر الحنفي الخارجي في ناس من الخوارج يمنعون البيت ويحاربون في سبيله ...

---

(١) سنة ٦١ للهجرة

(٢) قدم مكة لاربعة بقين من المحرم سنة ٦٤ للهجرة

واقام جيش يزيد يقاتل ابن الزبير بقية شهر المحرم وصفر كله ، حتى اذا مضت ثلاثة ايام من شهر ربيع الاول سنة ٦٤، رموا البيت بالمجانيق وحرقوه بالنــار ...

وظل هذا شأنهم حتى اتاهم نعي يزيد في ١٤ ربيع الاول وقد وصل اليهم الخبر في اول ربيع الآخر ...

ابن الزبير والحصين :

ولما بلغ الحصين قائد الجيش خبر موت يزيد.. طلب من عبد الله بن الزبير ان يجتمعا ، وصار الاجتماع في الليلة نفسها ، فكان فيما قاله له الحصين ...!

– انت احق بهـذا الامر منهم فلنبايعك ، ثم اخرج معنـا الى الشام فان هذا الجنـد الذي معي هم وجوه الشام وفرسانهم ، فوالله لا يختلـف عليك اثنان ... وتؤمّن الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك وبين اهل الحرم ..

فقال ابن الزبير : انالا اهدر الدماء ابداً ..والله لا أرضى ان اقتل بكل رجل منهم عشرة منكم ..

واخـذ الحصين يكلمـه سراً ، وابن الزبير يرفع صوته ويقول : والله لا أفعل ..

فقال الحصين : قبح الله من يعدك بعد ذاهباً وايباً ، قد كنت اظن ان لك رأياً ...وانا اكلمك سراً ، وتكلمني جهراً ، وادعوك الى الخلافة وانت لا تريد الا القتل والهلكة ...

ثم فارقه ورحل هو واصحابه نحو المدينة ...

وندم ابن الزبير على ماصنع فارسل اليه : اما المسير الى الشام فلا افعله ، ولكن بايعوا لي هناك ، فأني مؤمنكم وعادل فيكم ..

فقال الحصين : ان لم تقدم بنفسك لا يتم الامر فان هناك ناساً من بني امية يطلبون الخلافة ...

وسار الحصين الى المدينة ، واجتمع اهل المدينة على الجيش المتراجـــع.. فكان لا ينفرد منهم احد الا أخذت منه دابته ، وخرج معهم بنو امية ممن كانوا في المدينه الى دمشق ...

لماذا تثاقل ابن الزبير عن الذهاب الى الشام :

اما الاسباب التي دعت ابن الزبير الى التثاقل عن الذهاب الى الشام فـــلا يعرض لها احد من المؤرخين ، ويكتفون بالقول انه ندم على عدم اخذه برأي الحصين ...ويبدو لنا ان ابن الزبير لم يكن واثقاً من مركزه ، حتى في الحجاز نفسه ، فاذا كان الحسين بن علي قد انتقل الى رحمة ربه فقد كان هنـــاك في الحجاز ، عبدالله بن عباس ، وعبدالله بن عمر ، وكان مركزهمـــا الشخصي اعظم من مركز ابن الزبير واعظم ، وان كانا من الاشخاص الذين يحبـــون العافية ويفرون من الحروب واخطارها ، والفتن ومثقلاتها ومشاكل الدنيـــا والسياسة وما اليها ...

ولم يكن ابن الزبير في الوقت نفسه وبعد ان قسا جند يزيد على اهـــل المدينة ، وارعبوهم وفتكوا بهم ، وحاصروا مكـــة ، ونصبوا المجانيق حول الكعبة ورموا البيت بالنـــار والحجـــارة ، يثق باهـــل الشام ومن اولاهم ، وكان يخشى ان هو ذهب الى دمشق ان يثوروا عليه ويقتلوه ، او يحاربوه ، ويخذله جماعة الحصين ، كما فعل جماعة الكوفة بالحسين ...

وابن الزبير في الواقع كان من الاشخاص الذين لا يأمنون احداً .. ولا يثقون بأحد كما يظهر ، فقد شاهد بعض اهله يثور عليه ، وينضم الى عدوه وعرف ان الناس في الحجاز لم يبايعوه حباً به ، ولكن حقداً على بني اميـــة وعمالهم ، خصوصاً بعد مقتل الحسين ، كما وقف عبدالله بن عباس وعبدالله بن

عمر موقف المتفرج من كل هذه الفتن ... فلم يؤيداه ولا بايعاه ..

وشيء آخر ايضاً : وهو هـــل كان ابن الزبير يحـلم بخلافـة على غرار خلافة ابي بكر وعمر ، او على غرار خلافة معاوية مثلاً تمتـد من المشرق الى المغرب ؟ ام انه كان يريد خلافة متواضعة تشمل الحجـاز والعراق وفلسطين مثلاً... تاركاً اهل الشام وشأنهم،لا يحرك نحوهم ساكناً،ان هم تركوه وشأنه..

في الجواب على هـذا السؤال الخطير.. كل السر في تريث ابن الزبير وتردده ومكوثه في الحجاز ورضاه بالخلافة تأتيه وهو قابع في مكة ، لا يمدّ لها يداً ، ولا يحرك حرباً . . إلا ما كان من بعثه مصعباً اخاه عـــلى رأس جيش الى العراق ... بعد ذلك لضم العراق اليه ..

- ٧ -

عبد الله بن الزبير

١ – ٧٣ – هجرية .

سياسة الرجل والسبب في خذلانه ، امره مع الخوارج ، والاضطرابات السياسية في العراق

عبد الله بن الزبير وشخصيته :

والواقع ان ابن الزبير شخصية غريبة جمعت كثيراً من المتناقضات ، كان يريد الزعامة السياسية والخلافة ما في ذلك شك ولاريب ، ولكنه كان يريدهما وهو قابض على ما بيده من المال ، قابع في مكانه في مكة ، لايتكلف لوناً من الوان السياسة واجتذاب الناس ، ولا يحاول شيئاً من الدعاوة والتلطف الى الانصار والاجناد .

كان باسلاً شجاعاً ولكنه ضعيف الرأي ، شديداً حين لا تجب الشدة ، ولا تصلح القسوة ، بخيلاً حين يجب الكرم .. ويحسن البذل والانفاق .

ولم يبدأ عبدالله بن الزبير في الدعوة لنفسه والتفكير في الخلافة والزعامة إلا بعد مقتل الحسين بن علي، ولولا مقتل حفيد محمد بن عبدالله، لصعب على ابن الزبير ان يجد بين الناس اعواناً وانصاراً يؤيدونه ويناصرونه .

واذن فان مبدأ دعوته لم يكن يرجع الى ما قبل سنة ٦٣ للهجرة ، وان كان هناك من المؤرخين من يعتصم برواية بن عبد ربه في العقد الفريد، ويزعم ان عبدالله بن الزبير كان يفكر حقاً في الخلافة ، منذ ا ّمره عثمان بن عفان على داره ، لان استخلاف عثمان له دون اصحابه الذين كانوا معه ، كان في اعتقاده يدل على كفاءته ومقدرته .

لكن ابن الزبير كان رجلاً غريب الاطوار ، كثير البخل ، ضيق الصدر ، محدود النظر ما نعرف في التاريخ انه حاول امراً فوّطد له وجوهه ، ورتب له شؤونه ، وسهّل له مغالیقه ، فهو في الواقع كان كثير الانحراف ، كثير التحايل مضطرب الرأي ، ضعيف المعارف ، قليل السياسة ، معدوم الدهاء السياسي اتته الدنيا منقادة اليه ، فلم يوفق الى استثمار الخلافة ، ولا نجح في توطيد مركزه ، وتقوية جماعته .

وما بالك بشخص تأتيه الخلافة منقادة دون ان يسعى اليها ، وهو قابع في بيته ، منزو في قلب الجزيرة ، ثم لا يحرك بنفسه ساكناً ، لتوطيد ملكه وتوحيد صفوف جماعته ، ولا يفكر في الزحف الى الشام ، لتعضيد انصاره فيها كالضحاك بن قيس وجماعته من قيس ، ويتركهم وشأنهم حتى يوفق مروان بن الحكم الى تمزيق صفوفهم ، والغلبة عليهم .

واذا نظرنا الى المصادر التاريخية التي بين ايدينا نرى ان ابن الزبير لم يكن قوياً بنفسه، وانما كان قوياً بخالته عائشة ام المؤمنين زوج رسول الله ، التي كان يعيش في بيتها ، ويسكن اليها ، وكانت تحبه ، وتحرص على اكرامه وتقوية نفوذه ، وقد يكون هو الذي دفعها لمحاربة امير المؤمنين علي بن ابي طالب ،

بما كان له من الدالة عليها ، حتى ليقال انها كانت تسعى لتحويل الخلافة اليه .

فاذا انتقل (علي) الى رحمة الله ، وافضت الخلافة الى معاويه نرى ابن الزبير يسكن للامر الواقع على غضاضة ، وحقد عظيم ، وسبب ذلك كما نعتقد انه كان يعلم ضعفه وعجزه ، وانه لا يستطيع عملاً والحسن والحسين حيان يرزقان ..

وكان معاوية يعلم من امر ابن الزبير اكثر ما يعرف هو من نفسه ، وقد وصفنا رأي معاوية في كتاب سابق ، فقرّبه وعززه ، وافضى اليه بالعطاء والنوال ، وارسله مع البعوث المختلفة الى القسطنطينية تارة والى غيرها اخرى وفيما عدا ذلك نراه منزوياً في بيته ، لا يعرض لشؤون السياسة ، ولا يتحدث فيها إلا على قدر ..

ولكنه لما علم بعزم معاوية على بيعة يزيد من بعده ، اخذ يحرّض قريشاً على المعارضة ، حتى اضطر معاوية الى تهديده ، فاستكان امام العاصفة ، وظل يوغر صدور الناس في مكة ، ويحرّض الحسين بن علي على المطالبة بالخلافة ، حتى مشى الحسين الى الكوفة - رغم نصيحة عبدالله بن عباس له ان لا يفعل - حيث قتل في معركة كربلاء كما هو معلوم ومشهور ..

وبمقتل الحسين ووفاة شقيقه الحسن من قبله ، خلا الجو لابن الزبير ، فاخذ عندئذ يدعو لنفسه ، ولكن موقف عبدالله بن عباس منه ، وامتناع محمد بن الحنفية بن علي بن ابي طالب عن مبايعته - وكان قد بايع يزيد بن معاوية - فت في عضده ، وساعد على ظهور حزب الكيسانية بزعامة المختار بن عبيد الثقفي الذي ظهر في الكوفة بعد مقتل الحسين .

ومع ذلك فقد تمكن ابن الزبير من تعزيز حزبه ، ونشر دعوته ، ولم يكن مرد ذلك حب الناس له ، وانما كرههم لبني سفيان ، وسياسة يزيد بن معاوية التي مزقت المسلمين وجعلتهم شيعاً ، فقد استثمر ابن الزبير كل هذه الحوادث وروّج لها بين المسلمين ، واذاعها في كل الامصار ، فكان له ما يرغبه من نقمة

الشعوب الاسلامية على بني امية وانقلابهم عليهم وعلى عمالهم ، وتوليتهم وجههم الشخص الوحيد الذي كان يناوئهم ، ولم يكن هذا الشخص غير عبد الله بن الزبير .

الخوارج :

ونترك الان ابن الزبير لشأنه ، لنبحث موقف الخوارج منه ومن الحـــالة الاسلامية في البلاد العربية ، بحيث يتصل البحث بعضه مع بعض ، وتتلاحق الحوادث في نظامها التاريخي المطرد .

كان ابن زياد قد اشتد على الخوارج في العراق عامة والبصرة خاصة اشتداداً عظيما ونكل بهم ، فاجتمعوا وتذاكروا ، فقرّ رأيهم على الذهاب الى ابن الزبير الذي ثار على امية ، وارسل له يزيد جنداً من اهل الشام لمحاربته ، فلما قدموا على ابن الزبير سرّ بقدمهم ، واخبرهم انه على مثل رأيهم ، فقاتلوا معه اهـل الشام حتى مات يزيد بن معاوية ، وانصرف اهل الشام ، فعـاد الخوارج الى الاجتماع وقالوا :

— ان الذي صنعتم بالامس ، لغير رأي ، تقاتلون مع رجل لا تدرون لعله ليس على مثل رأيكم ، وقد كان بالامس يقاتلكم وابوه ، وينادي : « يا ثارات عثمان » فائتوه واسألوه عن عثمان فأن بريء منه كان وليكم ، وان ابي كان عدوكم ..

فأتوه فسألوه ، فنظر فاذا اصحابه حوله قليل ...

فقال : اتيتموني حين اردت القيام ، ولكن روّحوا العشية حتى اعلمكم .

فانصرفوا ، وبعث الى اصحابه فجمعهم حوله بالسلاح ، وجاءت الخوارج ، واصحابه حوله وعلى رأسه وبايديهم العمد فقال ابن الازرق لاصحابه :

— ان الرجل قد ازمع خلافكم .

فتقدم اليه نافع بن الازرق وعبيدة بن هلال فقال عبيدة بعد حمد الله :

– اما بعد فان الله بعث محمداً يدعو الى عبادته فدعا الى ذلك ، فاجابه المسلمون فعمل فيهم بكتاب الله حتى قبضه الله ، واستخلف الناس ابا بكر ، واستخلف ابو بكر عمراً فكلاهما عملا بكتاب الله وسنة نبيه ، ثم ان الناس استخلفوا عثمان فحمى الاحماء وآثر القربى ، واستعمل الغني ، ورفع الدرة ووضع السوط ، ومزق الكتاب وضرب منكر الجور ، وآوى طريد رسول الله ، وضرب السابقين بالفضل وحرمهم ، واخـــذ فيء الله الذي افاء عليهم فقسمه في فسّاق قريش ومجّان العرب ، فسارت اليه طـائفة فقتلوه فنحن لهم اولياء ، ومن ابن عفان واوليائه براء ، فما تقول انت يا ابن الزبير ؟

قال : فهمت الذي ذكرت به رسول الله ، فهو فوق ما ذكرت ، وفوق ما وصفت ، وفهمت ما ذكرت به ابا بكر وعمر وقد وفقت واصبت ، وفهمت الذي ذكرت به عثمان واني لا اعلم مكان احد من خلق الله اليوم اعلم بابن عفان وامره مني ، كنت معه حيث نقم عليه ، واستعتبوه فلم يدع شيئاً الا اعتبهم، ثم رجعوا اليه بكتاب يزعمون انه كتبه ، يأمر فيـــه بقتلهم ، فقال لهم : « ما كتبته فان شئتم فهاتوا بينتكم ، فان لم تكن حلفت لكم » فوالله ما جاؤوه ببينة ولا استحلفوه ووثبوا عليه فقتلوه ، وقد سمعت ما عبته به فليس كذلك بل هو لكل خير اهل ، وانا اشهدكم ومن حضرني اني ولي لابن عفان وعـــدو اعدائه فبرئي الله منكم » . .

فنظر الخوارج بعضهم الى بعض ثم انصرفوا ، وتفرقوا ، فسارت طائفـة الى البصرة ، وطائفة الى اليمامة ، فكان ممن سار الى البصرة نافع بن الازرق في اصحابه ، وقد امّروه عليهم .

اختلاف الخوارج :

ولقد عرضنا في كتابنا (الخوارج في الاسلام) الى نشوء الخوارج ، وكيف كان مرد ذلك مسألة التحكيم الذي جرى عليه الاتفاق بعد معركة صفين بين

علي ومعاوية ، وكيف انهم اعتبروا مسألة التحكيم نوعاً من الكفر لان كتاب الله واضح لا يقبل تحكيما . وانهم لما حاربوا معاوية مع علي كانوا على الحق ، وكان معاوية معتدياً فلماذا التحكيم والحالة هذه في امر ظاهر لا سبيل الى الشك فيه . ؟

وكذلك خرج الخوارج على علي ، وانشقوا عليه ، مع انهم كانوا بالامس من حزبه واعوانه ، لانهم كانوا يعتقدون ان علياً امام بويع بيعة صحيحة فلا معنى لقبول التحكيم مع جماعة خرجوا عليه ، بل كان الاجدر به ان يمضي في حربهم حتى يدخلوا فيما دخل فيه عامة الناس ، او يقتلوا عن آخرهم .

وهذه النظرية في الواقع ليست بعيدة عن المنطق ، ولكن المنطق لا يصح ان يؤخذ دستوراً عاماً لكل الحوادث التي تقع في الحياة .. او قد تحصل بين الجماعات والاحزاب ، وخطأ الخوارج كان في اغراقهم وتعصبهم لفكرتهم هذه تعصباً استحلوا معه تمزيق كلمة المسلمين ، وقتل الابرياء ، وسفك الدماء ، فحاربوا علياً ومعاوية وكل خليفة وجماعة لم تماشيهم على رأيهم ولا ايدت فكرتهم المضطربة الشديدة ..

وظل الخوارج فئة واحدة حتى عام ٦٤ للهجرة ثم انقسموا بعده الى طوائف عديدة لا تقل عن عشرين فرقة ، تختلف فيما بينها في الفروع لا في الاصول .

ويدور مذهب الخوارج كله حول الكفر والايمان ومسألة الحكم ،وتشددوا في ذلك تشدداً عظيماً ، فلم يعدوا مؤمناً إلا من تحرز عن الكبائر .. خطأوا عثمان بن عفان فيما فعله في سنيه الاخيره فكفروه ، ونظروا مثل ذلك الى علي وحزبه وخصومه فكفروهم جميعاً ، لأنهم قبلوا التحكيم وكتاب الله واضح لا يقبل تحكيماً ، ثم قالوا : ان الولاة الظلمة من معاوية وقومه من الامويين كفرة ، ويجب ان يقابل كفرهم وظلمهم وجورهم بالخروج عليهم جهاراً .

فهم بهذا على النقيض من الشيعة في امرين اساسيين ، فبينما يقدس الشيعة

علياً يخالفه الخوارج .

وبينا يعدّ الشيعة من الحكمة (التقية) وعدم التظاهر بما في القلب اذا كان في ذلك خطر على المرء ، يعدّ الخوارج من اصولهم الخروج على السلطان الجائر في غير مواربة ، ومن غير نظر الى قوتهم الضعيفة ، وقوة الحاكم القوية ، وهم كذلك يتمسكون اشد التمسك بمبدأ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر في غير هوادة ولا تردد .

والمع فكرة لهم رأيهم في الخلافة ، وانه اذا كان لابد منها ، فاصلح الناس احق ان يتولاها ، قريشياً كان او غير قريشي ، عربياً كان او غير عربي ، فهم ينكرون والحالة هذه نظرية الشيعة في الامامة وانها جزء من الدين والايمان ، وان آل محمد احق بها من سواهم ، كما ينكرون في الوقت نفسه نظام الوراثة وتفويض الخليفة الامر لمن يليه كما هو شأن الامويين .

ثم اذا صار انتخاب الخليفة وتمت البيعة له ، وسار سيرة لا تتفق والمصلحة الاسلامية ، بان جار وظلم وجب عزله ، فان اعتزل فبهـــا ، وإلا قوتل حتى يقتـل .

وسنعرض في فصل مقبل لثورات الخوارج في العراق وغير العراق .

التوابون :

ويجمل بنا الان قبل الاخذ بحديث الخوارج بعد هذا التاريخ ان نعود لمـا نحن بسبيله من دراسة الحوادث التي وقعت بين سنتي ٦٤ و ٦٥ للهجرة ، وان نلم بامر التوابين في الكوفة ، وما كان من شأنهـــم وخبرهم حتى انهزامهم ومصرعهم ...

لما قتل الحسين ورجع عبيد الله بن زياد من معسكره ، اكبر الشيعة في الكوفة النكبة ، واعتبروا انفسهم مسؤولين عنها لانهم هم الذين زينوا للحسين بن علي القدوم اليهم ، فلما مشى الى الكوفة ، تثاقلوا عن نصرته ، فتخاطفته

السيوف ، وكان ما كان من مصرعه المريع ، ومقتله المحزن .

وعندئذ اخذ الشيعة في الكوفة يجتمعون الى خمسة نفر من رؤسائهم ، الى سليمان بن صرد الخزاعي وكانت له صحبته ، والى المسيب بن نجبة الفزاري وكان من اصحاب علي ، والى عبد الله بن سعد بن نفيل الازدي ، والى عبدالله ابن والي التيمي ، والى رفاعة بن شداد البجلي ، وصار الاتفاق فيما بينهم على الطلب بدم الحسين ، واخذوا يكتبون الى انصارهم واصحابهم بالتجهز والاستعداد والدعوة بين اشياعهم لهذا الامر ، ولم يزل هذا شأنهم حتى هلك يزيد بن معاوية ، فجاء الى سليمان بن صرد اصحابه فقالوا :

– قد هلك هذا الطاغيه والامر ضعيف ، فان شئت وثبنا على عمرو بن حريث ، وكان خليفة بن زياد على الكوفة ، ثم اظهرنا الطلب بدم الحسين ، وتتبعنا قتلته ، ودعونا الناس الى اهل هذا البيت المستأثر عليهم ، المدفوعين عن حقهم .

فنصحهم سليمان بالتريث لان قتلة الحسين اشراف البلد ، وانه قد نظر فيمن تبعه منهم ، فرأى انهم لو خرجو لم يدركوا تأرهم ولم يشفوا نفوسهم ، وان الحكمة تقضي ببث الدعوة واستجلاب الناس اليهم .

فعمل القوم بمشورته ففشا امرهم ، وازداد انصارهم ، وكان اهل الكوفة بعد هلاك يزيد ، قد اخرجوا عمرو بن حريث وبايعوا لابن الزبير ، وبعدستة اشهر من ذلك ، قدم المختار بن ابي عبيد الكوفة ، وقدمها ايضاً عبدالله بن يزيد الانصاري اميراً من قبل ابن الزبير ، واخذ المختار يدعو الناس الى قتال قتلة الحسين ، ويقول :

– جئتكم من عند المهدي محمد بن الحنفية ، وزيراً اميناً ...

فرجع اليه طائفة من الشيعة .

وكان يقول : « انما يريد سليمان ان يخرج فيقتل نفسه ومن معه وليس له بصر في الحرب » .

ولكن سليمان بن صرد واصحابه كانوا يمضون في تجهيزهم ، لا يأبهون ولا يحفلون .

المختار :

وهنا يظهر على مسرح السياسة العربية شخص جديد ، جديد بكل ما في الكلمة من معنى ، باسل جريء مشهور مجازف ، صلب الرأي كثير الطموح ، شديد الحرص على سلطان يؤيد مركزه ، ويقوي من شخصيته ، بحيث يتكلف لذلك مختلف الاهوال ، والوان الصعاب .

لقدجاء المختار وهو في قريته خبر قدوم مسلم بن عقيل رسول الحسين بن علي الى الكوفة ، فاقبل في مواليه ، فخاف عبيدالله بن زياد شره فضربه وحبسه ، ثم اطلق سراحه بعد توسط عبدالله بن عمر بن الخطاب بشأنه مع يزيد ، وكان عبد الله بن عمر قد تزوج اخت المختار .

فلما خرج المختار من السجن – وذلك بعد مقتل الحسين – ذهب الى ابن الزبير في الحجاز ، بعد ان علم انه العائذ بالبيت ، وانه يبايع لنفسه سراً ، وقد ادرك المختار انه لم يبق غير ابن الزبير بعد مقتل الحسين فذهب اليه لعله يوفق معه ويفيد منه .

ويرى المختار رجلاً من العرب في الطريق فيسأله عن ابن الزبير فينبيه بخبره ، فيقول له وهو يحاوره :

« انه رجل العرب اليوم ، وان اتبع رأيي اكفه امر الناس ، ان الفتنة ارعدت وابرقت ، فاذا سمعت بمكان قد ظهرت به في عصابة من المسلمين اطلب بدم الشهيد المظلوم المقتول سيد المسلمين وابن بنت سيد المرسلين ، فوربك لاقتلن بقتله عدة من قتل على دم يحيى بن زكريا » .

ومن هذا الحديث تظهر لنا ناحية من شخصية المختار ، رجل حروب ودم ومعارك وزحوف ، رجل على التحقيق كان يسعى لمصالحه الخاصة ، قبل ان

يسعى لمصلحة غيره ، وما دعوته لفلان وفلان الا شعاراً كان يتخذه للوصول الى غاياته وتحقيق اغراضه .

ويأتي المختار ابن الزبير ، فيكتم هذا عنه امره ، فيفارقه المختار سنة كاملة ، فيسأل عنه ابن الزبير فيقال له : انه بالطائف .

وبينما هو في حديثه عنه يدخل المختار المسجد فيطوف ويصلي ركعتين ويجلس غير بعيد عن ابن الزبير ، ويأتيه معارفه يحدثونه ويحدثهم ، فيرسل له ابن الزبير عباس بن سهل بن مسعر ، فيأتيه فيسأله عن حاله ويقول له :

– مثلك لا يغيب عن الذي اجتمع عليه الاشراف من قريش والانصار وثقيف ، ولم يبق قبيلة الا وقد أتاه زعيمها ، فبايع هذا الرجل ..

فيقول : اني اتيته العام الماضي وكتم عني خبره ، فلما استغنى عني احببت ان أريه اني مستغن عنه .

فقال له العباس : القه الليلة وانا معك .

فاجابه الى ذلك ، ثم حضر عند الزبير بعد العتمة ، فقال المختار :

– ابايعك على ان لا تقضي الامور دوني ، وعلى ان اكون اول داخل ، واذا ظهرت استعنت بي على افضل عملك، فقال ابن الزبير : ابايعك على كتاب الله وسنة رسوله . فقال المختار : وشر غلماني تبايعه على ذلك ، والله لا ابايعك ابداً إلا على ذلك . فبايعه ، فاقام عنده ، وشهد معه قتال الحصين بن نمير ، وابلى احسن بلاء ، وقاتل اشد قتال ، وكان اشد الناس على جند الشام.

فلما هلك يزيد بن معاوية ، واطاع اهل العراق ابن الزبير ، اقام عنده خمسة اشهر فلما رآه لا يستعمله ، جعل لا يقدم عليه احد من اهل الكوفة إلا سأله عن حال الناس ، فاخبره بعضهم باتساق اهلها على طاعة ابن الزبير ، الا ان هناك طائفة لا تزال مترددة ...فلو كان لها زعيم لقلب الارض بها .

ففطن المختار عندئذ الى نفسه ، وادرك انه لن يوفق مع ابن الزبير ، مما

زال لا يستعمله ، فقرر السير نحو الكوفة ، وسار اليها لا يرى احداً في طريقه من العرب الا بشّره بالنصر القريب، والفتح العاجل ، وانهيار الباطل ، وتزيق القتلة .

ولما وصل الى الكوفة واجتمع اليه بعض اهلها اخذ يقول :

« ان المهدي بن الوصي [1] بعثني اليكم اميناً ووزيراً واميراً ، وامرني بقتل الملحدين والطلب بدم اهل بيته ، والدفع عن الضعفاء ، فكونوا اول خلق الله اجابة » .

فضربوا على يده ، وبايعوه ، وبعث الى الشيعة وقد اجتمعت عند سليمان بن صرد وقال لهم نحو ذلك، وان سليمان بن صدر ليس له بصر بالحروب ولا تجربة بالامور ، وانما يريد ان يخرجكم ويقتلكم ويقتل نفسه ، وانا اعمل على مثال مثّل لي ، وامر بيّن لي ، اعين وليكم ، واقتل عدوكم ، واشفي صدوركم ، فاسمعوا قولي واطيعوا امري ، وما زال بهذا ونحوه حتى استمال طائفة من الشيعة ، صاروا يختلفون اليه ، ويعظمونه ، وعظماء الشيعة مع سليمان لا يعدلون به احداً .

ولما خرج سليمان بن صرد مع انصاره من الشيعة (التوابين) ظل المختار في الكوفة ، حتى قبض عليه بعض اهلها وسجنوه خوفاً من شره ، ولكثرة ما بلغهم عن لسانه من رغبة بالوثوب والاستيلاء على الكوفة ، ويقول بعض المؤرخين غير ذلك في قدوم المختار الى الكوفة ، وانه قدم اليها بالاتفاق مع ابن الزبير لحمل الشيعة فيها على مقاتلة اهل الشام .

مسير التوابين :

وفي ربيع الاول من سنة ٦٥ للهجرة ، خرج سليمان بن صرد في وجوه

(١) يريد محمد بن الحنفية بن علي بن ابي طالب .

اصحابه من التوابين [1] بعد ان تحالفوا على بذل نفوسهم واموالهم ، في الاخذ بثأره ومقاتلة قتلته ، واقرار الحق في نصابه بتنصيب رجل من اهل البيت ، فوصلوا الى (عين الوردة) في ربيع الآخر من السنة نفسها حيث اشتبكوا مع جند عبيدالله بن زياد الذي كان مروان بن الحكم قد ارسله على رأس جيش للاستيلاء على العراق واقرّه عبدالملك بن مروان بعده على ذلك ، ولما تلاقى الجيشان انهزم الشيعة بعد قتـــال عنيف ، كان جند عبيدالله بن زياد فيه اشد عدداً ، وامضى سلاحاً ، وقتل رئيسهم سليمان بن صرد ، وعاد المنهزمون الى الكوفة ، فوجدوا المختار في السجن ، فكتب اليهم يمنّيهم بالنصر ويعرفهم ان الذي امّره هو محمد بن علي المعروف بابن الحنفية بطلب الثأر ، فقرأوا كتابه وسروا به ، وبعثوا اليه يقولون :

—اننا بحيث يسرك . فان شئت ان نأتيك ونخرجك من الحبس فعلنا .

فقال لهم : اني اخرج في ايامي هذه .

وتدخل عبد الله بن عمر بن الخطاب بشأنه ايضاً ، فأفرج عنه ، فعاد الى داره واخذ يستعد للثورة .. والشيعة تختلف اليه ، وقد اتفقوا على الرضاء به ، ولم يزل اصحابه يكثرون ، وامره يقوى حتى عزل ابن الزبير عامله على الكوفة ، واستعمل عبدالله بن مطيع ، فوثب عندئذ المختار برجاله على الكوفة واميرها الجديد فانتزعها منه .. ونادى بنفسه اميراً عليها باسم محمد بن الحنفية .

محمد بن الحنفية :

والواقع ان رفض محمد بن علي بن ابي طالب الملقب بابن الحنفية مبايعة ابن الزبير ، ساعد المختار على تكوين حزب شيعي جديد ، وهو حزب الكيسانية ، وكانت الشيعة في اول الامر تدعو لابناء الحسين دون غيرهم ، فلما ظهر المختار اخذ يدعو لمحمد بن الحنفية ، وان كان المؤرخون يختلفون في موقف ابن الحنفية

---

(١) وهم الذين تابوا عن تثاقلهم من اغاثة الحسين ونصرته .

من هذه الدعوة الجديدة اختلافاً عظيماً ، فبعضهم يقول انه ايّدها ، وآخرون يقولون : انه اباها،لأنه لم يكن يثق بأهل الكوفة الذين خذلوا اباه واخويه .

وقد ذكر المقريزي في كتابه (المقفى الكبير) « ليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثاني ورقة ١٢٨ »...ان فريقاً من اهل الشام وعلى رأسهم مسلم بن عقبة المري ، ساروا الى الحجاز لقتال انصار ابن الزبير ، وان فريقاً آخر ممن شايعوا ابن الزبير في الكوفة وعلى رأسهم عبدالله بن مطيع عامل ابن الزبير على الكوفة وعبدالله بن عمر بن الخطاب ، جاؤوا الى محمد بن الحنفية فقالوا له :

— اخرج بنا نقاتل يزيد .

فقال : على ماذا اقاتله ولم اخلعه ؟

فقالوا : انه كفر .. وشرب الخمر .

فقال لهم : ألا تتقون الله ..هل رآه احد منكم يفعل ما تذكرون ، وقد صحبته اكثر مما صحبتموه فما رأيت به سوءاً .

قالوا : انه لم يكن يطلعك على فعله .

قال : أفأطلعكم انتم عليه ؟

فخافوا ان يثبط قعوده الناس عن الخروج ، فعرضوا عليه ان يبايعوه إذ كره ان يبايع ابن الزبير .

فقال : لست اقاتل تابعاً او متبوعاً .

قالوا : فقد قاتلت مع ابيك ؟

قال : واين مثل ابي اليوم !

فاخرجوه كارهاً ومعه بنوه مسلحين ، فحمل اهل الشام عليه ، فضارب بنوه دونه فقتل ابنه القاسم محمد ، وضرب ابوهاشم قاتل اخيه فقتله ، ثم خرج ابن الحنفية الى مكة من فوره » .

الكيسانية والمختارية :

وهناك في الوقت نفسه اختلاف بين المؤرخين في نسبة الطائفة الكيسانية ، فبعضهم ينسبها الى كيسان مولى علي بن ابي طالب الذي قتل في معركة صفين سنة ٣٧ هـ (١) ، وغيرهم ينسب هذه الفرقة الى المختار بن عبيد (٢) .

وهناك كثير من المؤرخين يفرقون بين كيسان والمختار ، فيقول ابن حزم : « ان هناك شخصين مختلفين هما : المختار بن ابي عبيد ، وكيسان ابو عمرة(٣) ».

ويقول الشهرستاني: ان هناك طائفتين مختلفتين ، الكيسانية والمختـــارية ، الاولى تنسب الى كيسان مولى علي ، والثانية الى المختار بن ابي عبيد (٤) .

هذا التناقض يجعل الاهتداء الى اصل الكيسانية صعباً جداً ، وان كان ابن سعد في طبقاته ، يذكر اسم ابي عميرة كيسان مع اسماء غيره من الرجـال الذين شهدوا بان ابن الحنفية سمح للمختار بان يبث الدعوة باسمه ، وان كان هذا القول لا يتفق مع تاريخ ابن الحنفية الذي بايع ليزيد بن معاوية ، لانه لم يكن يثق باهل الكوفة .

ولكن الواقع وفاقاً لما لدينا من المصادر ، هو ان الكيسانية كانوا انصار المختار ، وهذا يستلزم ان الكيسانيـة هم المختارية ، وعلى ذلك يكون لفظ الكيسانية نسبة الى كيسان مولى بجيلة رئيس حرس المختـــار ، ويبعد ان

---

(١) الطبري ، والبغدادي في كتابه « الفرق بين الفرق ص ٢٧ » الشهرستاني (الملـل والنحل ج ١ ص ١٦٩) ...

(٢) المسعودي — مروج الذهب —
ابن عبد ربه — العقد الفريد.. وكلام المسعودي فيه شيء من القلق لانه لا يجزم بذلك .

(٣) الفصل في الملل والاهواء والنحل ج ٤ ص ٩٤ .

(٤) كتاب فرق الشيعة للنوبختي ص ٢١ — ويذكر الطبري « ٢ - ٦٧١ » ان ابا عمرة كيسان مولى بجيلة هو رئيس شرطة المختار .

ينسبوا الى كيسان مولى علي ، لانه مات قبل قيام الكيسانية بنحو ثلاثين سنة .

اما الدينوري في الاخبار الطوال فيقول : « وكان على الكوفة يومئذ من قبل عبدالله بن الزبيرعبدالله بن مطيع ، فارسل ابن مطيع . لما نقل لهانصاره رغبة المختار بالثورة – يقول له :« ماهذه الجماعات التي تغدو وتروح اليك . ؟

فقال المختار : مريض يعاد .

فلم يزل كذلك حتى قال له نصحاؤه :

– عليك بابراهيم بن الاشتر فأستمله ، فانه متى شايعك على امر ظفرت به ، وقضيت حاجتك .

فارسل المختار الى جماعة من اصحابه فدخلوا عليه وبيده صحيفة مختومة بالرصاص فقال الشعبي : « وكنت فيمن دخل عليه».. فقال لنا :

– انطلقوا بنا حتى نأتي ابراهيم بن الاشتر .

فمضينا معه ، وكنت انا وزيد بن انس الازدي ، واحمد بن سليط ، وعبد الله بن كامل ، وابو عمرة كيسان مولى بجيلة ، وكان من بعد ذلك على شرط المختار » .

وهنا ننتقل الى الكيسانية ، او الى هذا المذهب الذي خلقه المختار تنفيذاً لمآربه ، والذي نعتقد ان ابن الحنفية لم يكن على علم به ، ولا رأي له فيه ، ويقول المستشرق (فان فلوتن) ان عقيدة السبئية [1] قد بنيت على الرأي القديم القائل بتجسد الالوهية ، وان هذا المذهب يختلف عن حزب الكيسانية الذي ظهر في بادىء امره في الكوفة تحت زعامة المختار ، وعلى الرغم من عقيدتهم الاصلية ، وهو القول بامامة محمد بن الحنفية بعد علي ابيه ، فان الكيسانية يغالون في اعتقادهم باحاطة الائمة بالعلوم الالهية ، وان محمد بن الحنفية الامام قد احاط بالعلوم كلها ، وان اخويه الحسن والحسين قد عهدا اليه بالاسرار ،

---

(١) جماعه عبدالله بن سبأ الذي نسب الى علي صفات الالوهية .

وبعلم التأويل والباطن ، وقد انتهى اعتقاد الكيسانية بوجوب انفراد الامـــام بتأويل الشريعة الى القول بضرورة طاعته ، لان طاعته طاعة القانون الالهي .

ومن المعتقدات الكيسانية ... ان الله سبحانه وتعـــالى يغير ما اراد ، وتنـــاسخ الارواح ، وهو خروج الروح من جسد وحلولها في جسد آخر ،وفي الرجعة ، اي رجعة محمد بن الحنفية ، كما يعتقدون ايضاً بنبوة عـــلي والحسن والحسين وابن الحنفية ، وان كانوا يختلفون في ان ابن الحنفية ورث الامامـــة مباشرة من علي ، او عن طريق اخويه الحسن والحسين [1] .

وكذلك نرى كيف بثّ المختار هذه العقائد الغريبة في الكوفة ، وكيف وجد ارضاً خصبة لها ، فتعلق به الناس والتف حوله جيش التوابين بعدرجوعه الى الكوفة ، فلما احس بقوته ، نهض في الكوفة كما قدمنا ، ووثب على عامل ابن الزبير فطرده منها ، واستولى على دار الامارة ، واخذ يتتبع قتلة الحسين وانصارهم واعوانهم لا يبقى على احد منهم ولا يذر .

ولقد ذكرنا في مكان اخر كيف ان مروان بن الحكم لمـــا استوثق له امر الشام ، بعث جيشين احدهما الى الحجاز لمحاربة ابن الزبير ، وقد ذكرنا كيف غلبه ابن الزبير وشرّد جنده ، والجيش الاخر الى العراق ، مع عبيدالله بن زياد وقد ذكرنا ما كان من امره وامر التوابين وكيف وفق الى كسرهم وتشتيتهم ،

---

(١) يقول فان فلوتن في كتابه السيادة العربية والشيعة ـ نقلا عن (فان غلودر) في بحثه عن المختار « قيل ان ابن الحنفية تبرأ من هذا الاعتقاد وحذا حذوه غيره من الائمة » وعلق فان فلوتن على ذلك قائلا « وهنا يتساءل المرء باي مظهر من مظاهر الترحاب قابل الائمة هـــذه المعتقدات المغرقة في الغلو ، التي كانت اشخاصهم السبب في ظهورها ؟؟ »

وقد رأينا كيف ان علياً انكر على السبئية الصفات الالوهية التي نسبوها اليه ، ورمى في النار من دعوا اليها ، ونفى عبدالله بن سبأ الى المدائن ، ثم جاء ابنه محمد بن الحنفية ، فشارك اباه في عواطفه وارائه الدينية ، فتبرأ ممن اعتقدوا باحاطته بعلم التأويل والباطن ، ويذكر ابن سعد في طبقاته « ان ابن الحنفية لما علم باعتقاد الكيسانية ان ال البيت يلمون بجميع العلوم قال : « والله ما ورثنا من رسول الله الا ما بين هذين اللوحين ، يعني (القران) »

وقتل كبارهم وزعمائهم ، وكيف عاد الباقون الى الكوفة وانضموا الى المختار، وكان مروان بن الحكم قد جعل لابن زياد ماغلب عليه، وامره ان ينهب الكوفة ثلاثاً ، فلما انتهى ابن زياد من امر التوابين أحتبس في الجزيرة ، وبها جماعة من قيس مع زفر بن الحرث على طاعة ابن الزبير ،فلم يزل عبيدالله منشغلاً عن العراق نحو سنة ، وفي هذه الاثناء توفي مروان وولي بعده ابنه عبد الملك بن مروان فاقرّ ابن زياد على ما كان ابوه ولاه ، وامره بالجد في امره ، فلما لم يتمكن من زفر ومن معه ، اقبل على الموصل ، فكتب عبد الرحمن بن سعيد عامل المختار الى المختار يخبره بدخول ابن زياد ارض الموصل ، وانه قد تنحى عن الموصل الى تكريت .

فدعا عندئذ المختـــار يزيد بن انس الاسدي وامره ان يسير الى الموصل فينزل باداني ارضها حتى يمده بالجنود ، فقال له يزيد :

ـ خلني انتخب ثلاثة الاف فارس ،وخلني مما توجهني اليه ، فان احتجت كتبت اليك استمدك .

فاجابه المختار الى ذلك ، فانتخب ثلاثة الاف وسار عن الكوفة .. ومعه المختار والناس يشيعونه .

وبلغ ابن زياد قدوم جند المختار عليه فبعث اليهم قوة اكثر عدداً وامضى سلاحاً ، فالتقوا بجند يزيد في «باقلي» ، وكان يزيد مريضاً فحمل على سرير ووضع بين الرجال ، وهو يقول :

ـ قاتلوا عن اميركم ان شئتم او فروا عنه .

واقتتل الجيشان عند فلق الصبح يوم عرفة، واشتد قتالهم الى ارتفاع الضحى فانهزم اهل الشام وأخـذ عسكرهم ، فلم يسر المنهزمون غير ساعة حتى لقيهم عبد الله بن جملة في ثلاثة الاف من جند عبيدالله بن زياد ، فرد معه المنهزمون ، وعادت المعركة ، فكسر الكوفيون اهل الشام ، وقتلوا اميرهم عبدالله بن جملة

واسروا منهم ثلاثمائة اسير ، فامر يزيد بقتلهم،وهوبآخر رمق فقتلواجميعهم ، وتوفي يزيد في يومه فدفنه اصحابه .

وبلغ جيش الكوفة خبر قدوم ابن زياد عليهم في قوة عظيمة ، فقرّر رأيهم بعد التشاور على الرجوع ، فلما علم المختار بذلك ، ارسل اليهم ابرلهيم ابن الاشتر ، وامرّه على سبعة آلاف ، وقال له : مر فاذا لقيت جيش يزيد ابن انس فانت الامير عليهم ، فارددهم معك .. حتى تلقي بن زياد واصحابه فتناجزهم .

وما كاد الجيش يخرج من الكوفة حتى ثار بعض زعمائها على المختار ، فارسل في طلب ابراهيم الاشتر ، واخذ في الوقت نفسه يتريث في مجابهة القوم ويمنيهم ، حتى يصل الاشتر ورجاله ، فلما وصلوا اطلقهم على الثائرين فقتلوهم شر قتلة ، وتتبع المختار كل من كان في الجند الذي سار لقتال الحسين فقتلهم(١) وخرج اشراف الناس فلحقوا بالبصرة هاربين خائفين .

ولما انتهى المختار من اخماد الثورة عليه فيالكوفة ، ارسل ابراهيم بنالاشتر لقتال عبيدالله بن زياد ، فسار ابراهيم حتى لقي ابن زياد ومن معه من اهل الشام على نهر الخازر (٢) فدارت الدائرة على ابن زياد ، وقتل هو وكثير من اشراف اهلالشام، وانفذ ابن الاشتر رأسه ومعه رؤوس قواده الىالمختار(٣) .

وبانتصار المختار على ابن زياد فشا امره ، وازدادت قوته ، وكثر تعلق الشيعة به .

ورأى ابن الزبير كيف استفحل امر المختار ، فقرر ان يبعث له بشقيقه مصعب بن الزبير ، فاستعمله على العراق ، فأتى البصرة متلثماً ودخلالمسجد،

(١) وذلك في ذي الحجة سنة ست وستين .
(٢) بفتح الزاي وكسرها وهو نهر بين اربد والموصل ثم بين الزاب الاعلى والموصل ويصب في دجلة .
(٣) اول سنة ٦٧ للهجرة .

وصعد المنبر ، ثم حسر لثامه فعرفوه ، ثم قام فحمد الله واثنى عليه ثم قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، طسم تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون .. الى قوله من المفسدين » ، فأشار بيده نحو الشام ، « ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين » .. واشار نحو الحجاز .

« ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .. واشار نحو الكوفة .

ثم قـــال : يا اهل البصرة بلغني انكم تلقبون امراءكم ، وقد لقبت نفسي بالجزار ...

مصعب والمختـــار :

وما كاد يصل مصعب بن الزبير الى البصرة حتى اخذ يتجهز للمختار وحربه ، وكان اول ما بدأ به ان ارسل يدعو المهلب اليه ، وهو عامل ابن الزبير على فارس ، فاقبل عليه في جموع كثيرة واموال عظيمة ، فسار بهم مصعب نحو الكوفة ، فتلقاه المختار بقواته ، وقاتلهم قتالاً شديداً ، ولكنه لم يتمكن من الصمود امامهم ، فانهزم الى القصر في الكوفة وكان قد حصّنه ، فحـــاصره مصعب ومنع عنه وعن اصحابه الماء ، فعاد المختار يقاتل مع جماعة من اصحابه حتى قُتل .

وكتب مصعب الى ابراهيم بن الاشتر يدعوه اليه ويقول له :

« ان اطمتني فلك الشام واعنة الخيل ، وما غلبت عليه من ارض المغرب ما دام لآل الزبير سلطان ، واعطاه عهدالله على ذلك » .

وكتب اليه عبد الملك بن مروان بمثل ذلك ، فاستشار الاشتر اصحـــابه فاختلفوا ، ثم اقبل الاشتر على مصعب ورضي بشروطه .

وبمقتل المختـــار دان العراق لابن الزبير ولم يبق امامه من سلطان سوى

سلطان عبد الملك بن مروان .

المختار ؟؟

وبعد ، فهل كان المختار صادقاً في دعوته ، مؤمناً بما يدعو اليه ؟

هذا سؤال لا يبرح كثير من المؤرخين يتداولونه فيما بينهم اخـــذاً ورداً وجيئة وذهاباً ، والرأي الذي يـــكاد ينعقد عليه الاجماع ـ لانقول اجماع المؤرخين ـ وانما اجماع الذين يتلطفون في دراسة هذه الفترة العصيبة من تاريخ الاسلام ، هو ان المختار انما كان يسعى لنفسه وامجاده الشخصية .[1]

ويحدثنا ابن الاثير فينقل لنا كلاماً للمختار بعد ان حاصره مصعب في قصر الكوفة ، واحس بانقطاع امله ، وقلة عدده ، وانفراط الناس من حوله ،وحين اعتزم الخروج لمقاتلة جند مصعب في تسعة عشر من رجاله ، فيقول لاحـــد انصاره :

ـ ماذا ترى ؟

فيقول له هذا : ماذا ترى انت ؟

فيقول المختار : ويحك يا احمق ! انما انا رجـــل من العرب ، رأيت ابن الزبير قد وثب بالحجاز ، ورأيت ابن نجدة الخارجي وثب باليمامة ، ومروان بالشام ، وكنت فيها كأحدهم ، الا اني قد طلبت بثـــأر اهل البيت إذ نامت عنه العرب .

فاذا صح هذا القول عن المختار فهو برهان قاطع على انه كان يطلب الامر لنفسه ، وانه لو بلغه ، لما تكلف تأمير احد من آل البيت عليه .

ولما قتل المختار كان عمره سبعاً وستين سنة ، وكان قتله لاربع عشرة خلت من رمضان سنة سبع وستين .

---

(١) ابن الاثير ج ٤ ص ١٠٦

-٨-

عبد الملك بن مروان

والاستيلاء على العراق

الحالة السياسية والعسكرية :

ولى عبد الملك بن مروان الخلافة سنة ٦٥ هجرية ، وذلك بعد وفاة والده مروان بن الحكم .. والبلاد العربية في اضطراب شامل ، وتمزق كامل .

كان في الحجاز عبدالله بن الزبير وقد بايعه اهله بالخلافة ، وكان العراق يضطرب في فرق ثلاث : زبيرية ، بايعوا ابن الزبير ودخلوا في طاعتـــه ، وشيعة تدعو الى آل البيت ، وخوارج ، يريدون الامر شورى بين المسلمين . واما سورية فكانت تؤيد بني امية ، وكذلك مصر .

واما بقية البلاد الاسلامية فكانت لا تستقر على حال ، وبعضها كان يرتقب الفرص ليرى لمن تكون الغلبة والظفر [١] !!

(١) هو عبد الملك بن مروان بن الحكم ولد سنة ٢٦ للهجرة بالمدينة وامه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن ابي العاص بن امية ، وكان يضرب بامه المثل في حسن الخصال ، وجميل الصفات ولما شب كان عاقلا حازما اديباً لبيباً ، وكان معدوداً من فقهـــاء المدينة يقرن بسعيد ابن المسيب ، وعروة ابن الزبير .

وقال الشعبي : ما ذكرت احداً ، الا وجدت لي الفضل عليه ، الا عبد الملك فاني ماذاكرته حديثاً الا زادني فيه ، ولا شعراً الا زادني فيه .

ونشأ نشأة علمية فعرف بالشجاعة والخبرة والعلم والادب ، وكان قوياً جباراً شديد البأس ، بعيد النظر ..

ترك مروان ابن الحكم لابنه عبد الملك ارثاً مليئاً بالاضطراب والقلاقل تغمره الثورات ، وتمزقه العصبيات المتناحرة المتنافرة المتسابقة الى الحكم ، ولكن عبد الملك كان رجلاً قوياً ، واداريا عظيما ، وكان الى ذلك رجلا لا تزعزعه الحوادث ، ولا تخيفه الثورات ، حتى يروي (المسعودي) عنه انه لما سار سنة ٦٦ للهجرة على رأس جند الشام الى العراق ، اتاه وهو في الطريق مقتل عبيدالله بن زياد ، وانهزام جنده ، واتاه نبأ فشل القائد الذي ارسله والده لحرب ابن الزبير في الحجاز ، ومقتله ، ثم جاءه خبر دخول جند الزبير ارض فلسطين ولحاق مصعب ابن الزبير بهم ، ثم جاءه اخيراً مسير امبراطور الروم ونزوله المصيصة [1] في طريقه الى سورية ، ثم جاءه ان عبيد دمشق واوباشها خرجوا على اهلها ، وان المسجونين فيها فتحوا السجن وخرجوا منه ، وان خيل الاعراب اغارت على حمص وبعلبك وغيرهما ، الى اخر ما هنالك من الاخبار التي تذهب بعقل الحليم ، وتبعث على اليأس ، وتوقع الفشل ، ومع ذلك نرى عبد الملك يظل رابط الجأش ، شديد الايمان بنجمه وكفاءته ومقدرته ، حتى انه تقبل هذه الاخبار جميعها بالابتسامة وانطلاق الوجه ، واخذ يقلب وجوه الرأي يبحث احسن السبل لتثبيت ملكه وتوطيد عرشه .

ويظهر لنا ان عبد الملك لما احس باضطراب الامر حوله ، راح يتريث في حركاته وزحوفه ، فلم يتقدم الى استباق الحوادث ، ولا راح يحارب خصومه في الحجاز والعراق وعلى الحدود العربية البيزنطية وهم كثر ، بل اخذ يتحايل للامر ، ويرتقب الحوادث ، فترك ابن الزبير يقاتل الشيعة في الكوفة والخوارج في مختلف البلاد ، لا يتعرض لهؤلاء ولا لهؤلاء ، وكان غرضه ظاهراً ، وحيلته ناجحة كل النجاح ، كان يرمي الى اضعاف خصومه ، فاذا اصبح ذلك امراً مقضياً زحف على الرابح ، وقد اتعبه العراك ، وبرّحت به الحروب ، فينتصر عليه ويسحقه ..

(١) من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم بقرب طرسوس .

وكان اول ما فطن له عبـد الملك موقفه من الامبراطورية الرومـانية ، فاعتزم الاتفاق معها موقتاً ريثما يتسق امره ، ويستتب سلطانه ، ولو افضى به ذلك الى ما يكره ، ولذلك نراه لا يرى كبير امر في مهادنة امبراطور القسطنطينية حين اغارت جنوده على المصيصه سنة ٧٠ للهجرة ، حتى لاينتهز فرصة انشغاله بقتال ابن الزبير فيوغل في بلاد الشام ، وقد بعث اليه عبد الملك بالهدايا والاموال ، وصالحه على ان يؤدي اليه خمسين الفاً من الدنانير في كل عام ، ولكنه ما لبث ان قطعها عنه حين سحق خصومه واصبح سيد العربية غير منازع .

تعاقب الحوادث :

والواقع ان عبدالملك لما تسلم عرش الخلافة .. وجد والده مروان بن الحكم قد جهز جيشاً يقوده عبد الله بن زياد الى الجزيرة لمحـاربة زفر بن الحرث بقرقيسيا ، حتى اذا فرغ منها توجه الى العراق واخذه من ابن الزبير ، فلما كان ابن زياد في الجزيرة بلغه موت مروان ، واتاه كتاب عبد الملك يستعمله على ما استعمله عليه ابوه ، ويحثه على السير نحو العراق ، فسار حتى اذا كان بعين الوردة ، قابلته جنود مقبلة من العراق لم يبعثهم امير ، ولكنهم خرجوا للمطالبة بدم الحسين ، وسموا انفسهم (التوابين) وقد وصفنا في الفصل السابق شأنهم ، وكيف تمكن ابن زياد منهم ، وفرّق جموعهم ، فعـاد فلولهم الى الكوفة وانضموا الى المختار الذي كان قـد اظهر نفسه [1] . وكيف تمكن المختار بعد انضمام الشيعة اليه من الوثوب بالكوفة ، واخراج عامل ابن الزبير فيها ، وارسال الجند بقيادة ابراهيم الاشتر لقتـال ابن زياد ، وكيف وفق الاشتر الى سحق جنود الشام وقتل ابن زياد ، وكيف ارسل ابن الزبير اخاه مصعباً لمحاربة المختار ، وكيف وفق مصعب الى سحقه وقتله ، فعـاد العراق

(١) ١٤ ربيع الاول ٦٦ للهجرة

الى سلطان ابن الزبير ، وكان الامر في الشام ومصر لعبد الملك بن مروان ..

بقي على عبد الملك بن مروان امر واحد ، وهو الاطمئنان الى سلامة عرشه في دمشق قبل ان يفكر تفكيراً جدياً في الزحف على العراق ..

فتنة في دمشق :

والواقع ان الامر في دمشق لم يكن قد اطمأن لولد مروان بن الحكم ، فقد كان لا يزال بين بني امية من يرى نفسه احق بالخلافة منهم ، خصوصاً ان ولد مروان.. ومروان نفسه كانوا بعيدين عن دمشق مدة خلافة معاوية ويزيد، وكانوا في الواقع اقرب الى اهل المدينة منهم الى اهل دمشق .

كان عبد الملك يحس ذلك ، ويعرفه ، فنراه لما قرر الخروج الى قرقيسيا وبها زفر بن الحرث ، يأخذ كل من يشك فيه من بني اميه معه ، كعمرو بن سعيد بن العاص وغيره ، فلما بلغ الجيش حلب ، غادر عمرو بن سعيد الجيش واسرع الى دمشق فدخلها ، وغلب عليها وعلى خزائنها وجمع الناس فخطبهم ومناهم ووعدهم .

واصبح عبد الملك فلم ير عمراً معه ، وأخبر خبره ، فاسرع نحو دمشق، فقاتله اياماً . يقول المؤرخون بعدها انه ثناه عن رأيه ومناه بولاية العهد ، فاتفقا على ذلك ، ورضي عمرو ابن سعيد العاص بخلافة عبد الملك [1] بعد ان قطعا العهود والمواثيق على ان تكون ولاية العهد له من بعده ، ولكن عبد الملك كان يريد ولاية العهد لابنه ، وقد رأينا كيف انه كان يطلب من شقيقه عبد العزيز بن مروان ان يتنازل عنها لولده ، فكيف يفضي بها الى غير اهله، وما كانت مواثيقه وعهوده ووعوده الا اعذاراً تكلفها ، لقمع الثورة ريثما يوفق الى القضاء على عمرو بن سعيد وينفرد بالخلافة وحده .

وكان ذلك امراً مقضياً فان عبد الملك ما عتم بعد ايام ان دعا عمرو ابن

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٣٠٤ .. المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٨٢

سعيد اليه في قصره ، وامر رجاله بضرب عنقه، ففعلوا ، وصفا عندئذ الجو له في دمشق ، ولم يبق له منازع او مخالف [1] ..

اتفاق القيسية واليمنية :

ولما انتهى عبد الملك من القضاء على الثورة في دمشق ، وصفا له الجو ، قرر السير الى العراق لمحاربة مصعب بن الزبير ، فنصحه بعض بني امية ان لا يفعل ، ودعوه الى ان يقنع بالشام ومصر ، وان يترك العراق والحجاز لابن الزبير ، فابى ذلك واعتزم الذهاب الى العراق بنفسه ، وان لا يكل الى احد قواده مثل هذا العمل الخطير ، الذي كان يتعلق عليه مصير ملكه وخلافته .

ويظهر لنا ان عبد الملك قد سار الى قرقيسيا [2] اولاً حيث زفر بن الحرث زعيم القيسية ، ويبدو انه كان قليل الرغبة في مجابهه هذا الزعيم القيسي بالحرب ، مفضلاً الاتفاق معه ، وقد وفق عبدالملك الى ذلك.. فنزل زفر على امامته وبايعه ، وتصالحا على وضع الدماء والاموال .

وبذلك انتهى النزاع بين القيسية واليمنية ، وانضووا جميعاً تحت لواء عبد الملك ، وان كان العداء بين القبيلتين لم يخمد تماماً ، بل ظل كامناً في الصدور ، يترقب الفرصة للانفجار والانطلاق ..

بين الشام وابن الزبير :

لم ينجح مروان بن الحكم في الحملة التي ارسلها ضد ابن الزبير في الحجاز

---

(١) ويقال انه لما سار عبد الملك نحو العراق لقتال مصعب ، قال له عمرو :
– انك تخرج الى العراق ، وقد كان ابوك جعل لي هذا الامر بعده ، وعلى ذلك قاتلت معه ، فاجعل هذا الامر لي بعدك .
فلم يجبه عبد الملك ، فرجع الى دمشق وكان من قتله ما تقدم .
وقيل بل كان عبد الملك قد استخلف عمرا على دمشق فخالفه وتحصن بها .
(٢) بلد على مصب نهر الخابور في الفرات .

فتمزقت شر تمزيق كما قدمنا ، وارتدت مدحورة فاشلة.. ومن هنا نرى كيف ان ابن الزبير لم يكن يتكلف حرباً ، او يتقدم خطوة نحو اغراضه الا أن يجبر على ذلك، وكان حقاً عليه ان يهاجم وهو القوي.. لا ان ينتظر ريثما يهاجمه خصمه ... بعد ان يعزز سلاحه ، ويجمع انصاره ...

ومع ذلك فقد شجع ابن الزبير هذا الانتصار فارسل قوة بقيادة شقيقه مصعب بن الزبير لاقتحام سورية في سنة ٦٥ للهجرة ، فلم يوفق مع جراءته وبسالته ..

مصعب

وكان مصعب بن الزبير امير العراق على عهد شقيقه عبد الله بن الزبير شجاعاً جميلاً جليل القدر ، محبباً الى النـاس ، تزوج سكينة بنت الحسين بن علي رضي الله عنها ، وعائشة بنت طلحة ، وجمعها في داره ، وكانتا من اعظم الناس قدراً ، ومالاً وجاهاً ... [١]

ويقول ابن قتيبة في وصفه : وامـا مصعب بن الزبير فكان يكنى: ابا عبد الله وكان اجود العرب .. [٢]

فلما كانت سنة ٦٥ للهجرة استعمل عبدالله بن الزبير بعد ان استقل بالحجاز والعراق شقيقه مصعباً على المدينه ... بعد ان عزل شقيقه عبيدة بن الزبير عنها .. [٣] ومن هذه السنة يظهر مصعب على مسرح السياسة العربية فيتزعم اخبارها واحداثها حتى يذهب لمآبه . قتيلاً في ساحـة الوغى وبين الزحوف والمعارك ..

(١) الفخري : الاداب السلطانية .

(٢) المعارف : ابن قتيبة ..

(٣) اضطربت احوال الدولة الاموية بعد وفاة يزيد بن معاوية واعتزال ابنه معـاوية بن يزيد الخلافة ، فاستقل عبدالله بن الزبير في الحجاز ، واخذ يسعى لبسط سلطانه على الاقاليم التي حولها ، واهمها العراق ..

وفي هذه السنة سار التوابون ، وهم جماعة من اهل الكوفة ندموا على تقاعدهم عن نصرة الحسين بن علي ، فاقسموا على محاربة خصومهم وعدوه ، فلما التقوا مع اهل الشام كسرهم هؤلاء ومزقوهم . . . وفي هذه السنة ايضاً مات مروان بن الحكم خليفة بن امية وزعيم المروانيين ، وتولى الامر بعده ابنه عبدالملك بن مروان ...

فلما كانت سنة ٦٦ للهجرة وثب المختار بالكوفة يعمل لمحمد بن الحنفية وهو شقيق الحسين بن علي من غير امه ، واستقل بها وطرد عامل ابن الزبير ، واخذ يخادع ابن الزبير فتارة يصانعه ، واخرى يعمل على خذلانه ، ويسعى لتعزيز سلطانه ، وتوطيد حكومته ...

وفي هذه السنة ايضاً وثب المختار على قتلة الحسين بن علي في الكوفة فاباد اكثرهم ، كما حاول انتزاع البصرة من ابن الزبير اذ ارسل احد انصاره اليها يدعو الناس الى طاعته ، وامامة محمد بن الحنفية ..

فلما علم ابن الزبير بان المختار يدعو الناس لطاعة محمد ابن الحنفية ، طلب من محمد وكان مقيماً في مكة ان يبايعه ، فرفض ، فحبسه في زمزم ، فارسل المختار من اطلقه من حبسه ، وسار محمد مع شقيقه فاقام في مكة في شعب علي ..

وفي هذه السنة ايضاً ارسل المختار ابراهيم بن الاشتر لمحاربة عبيدالله بن زياد فسار في جيش قوي لمحاربته ..

فلما كانت سنة ٦٧ للهجرة وقعت المعركة بين ابن الاشتر وابن زياد ، فظهر فيها ابن الاشتر على خصمه وقتله ، ومزق جند الشام ، فزاد هذا الانتصار في خطر المختار ، وعظم شأنه ، فارسل عبدالله بن الزبير شقيقه مصعباً الى البصرة ليكون واليها وليحارب المختار وجماعته ، ويعيد العراق الى سلطان ابن الزبير وطاعته ..

مصعب في البصرة

وقدم مصعب البصرة متلثما ، ودخل المسجد ، وصعد المنبر فقال الناس :

— امير .. امير ...

وقام فيهم فألقى خطبته التي ذكرناها سابقاً ..

واخذ مصعب يتجهز لحرب المختار .. خصوصاً بعد ان اتاه اشراف اهل البصرة يستحثونه على المسير اليه ، واستدعى المهلب بن ابي صفرة ، وكان على حرب الخوارج ، فأتاه المهلب في جموع كثيرة واموال عظيمة ، فسرّ مصعب بقدومه ، وارسل الى اهل الكوفة من يثبط الناس عن المختار ، ويدعوهم الى بيعة ابن الزبيــر سراً ، وسار مصعب بعد هذا نحو الكوفة ، وعلى مقدمته وجناحيه وجوه العراق كالمهلب والاحنف بن قيس ومالك بن مسمع وغيرهم .

فلما بلغ الخبر المختار ، قام في اصحابه فاعلمهم خبر مصعب وتقدمه نحوهم ، وندبهم الى الخروج ، فخرجوا وعلى رأسهم احمر بن شميــط وعسكروا في (حمام اعين) .

ولما وصلوا الى المذار التقوا بجيش مصعب فعسكروا قريباً منه .. وبدأت المعركة فدارت الدائرة على جيش المختـــار ، ولحق اصحاب مصعب خصوصاً اهل الكوفة منهم بالمنهزمين ، فكانوا لا يأخذون اسيراً الا ضربوا عنقه ، فلم ينج من جيش المختار إلا طائفة اصحاب الخيل ، واما المشاة الرجالة فأبيدوا الا قليلا منهم .

واتى المختار خبر الهزيمة ومن قتل من اصحابه ، فاعتزم على الحرب حتى الموت ، وان يموت موتة ابن شميط قائده .

وخرج المختار من الكوفة للقاء مصعب الذي كان يتقدم نحوه ، بعد ان

حصّن المسجد والقصر ، وادخل اليها عدة الحصار .

ولما وقف الجيشان الواحد قبالة الآخر ، كانت المعركة شديدة قاسية رهيبة حارب فيها مصعب بنفسه ، وجالد فيها المهلب بشخصه ، وفعل المختار مثل ذلك حتى تفرق اصحاب المختار عنه ، فانسحب المختار الى مقره ، فحصره مصعب واصحابه فيه حتى اشتد الامر على المختار واصحابه من شدة العطش، فلما رأى المختار ذلك قال لاصحابه :

- ويحكم ان الحصار لا يزيدكم الا ضعفاً فانزلوا بنا فنقاتل حتى نقتل كراما. فتبعه بعض اصحابه ، وهرب منه آخرون .

ثم ان المختار تطيب وتحنط ، وخرج من القصر في تسعه عشر رجـــلاً وقاتل حتى قتل .

مصعب وجماعته :

ومن المؤكد ان انتصار مصعب كان كاملاً ، فقد اباد جيش المختار واستولى على البصرة وقتل المختار ، ولكن هناك حادثاً وقع بعد مقتل المختار يدل على ان مصعباً كان في جيش لا يعرف نظاماً ولا طاعة .

حاول مصعب ان يعفو عن بعض جماعة المختار ، وعرض عليه هؤلاء ان يكونوا في جنده وان يحـاربوا اهل الشام معه ، ولكن اهل الكوفة رفضوا ذلك وطلبوا قتلهم بعد ان كانوا قد استسلموا لهم ، واضطر مصعب لقتلهم ، فكان هذا اول وهن في سياسته ، واول تمزق بين شيعته ..

ويقول ابن الاثير : ويقدرون عدد الذين قتلهم مصعب صبراً من جمـــاعة المختار بسبعمائة من العرب وخمسة الاف وثلاثمائة من الموالي .. وكانوا ما في ذلك شك قوة لا يستهان بها لو استطاع انقاذهم .. والاحتفاظ بهم .

وفي هذه السنة عزل عبدالله بن الزبير اخاه مصعباً عن العراق واستعمل

عليه ابنه حمزة وكانت به لوثة كما يظهر ، حتى كتب الاحنف الى ابن الزبير ان يعزله فعزله ، وهذا ضعف وخطأ ما في ذلك شك ، فقد كانت الحالة في العراق غير مستقرة ، وكان لايزال مهدداً من الشام ، فكان من الحق ان يظل مصعب فيه ، او ان يرسل اليه ابن الزبير شخصاً يكون من اهل الدهاء والجرأة وبعد النظر .

وبمقتل المختار دان العراق لابن الزبير ولم يبق امامه سلطان إلا سلطان عبد الملك بن مروان .

ولما قرر عبد الملك الزحف على العراق سنة ٧١ للهجرة ، نصحه بعض خاصته ان لايفعل .. وكان العام عام جدب فقال عبد الملك :

- الشام بلد قليل المال ولا آمن نفاده ، وقد كتب اليّ كثير من اشراف العراق يدعونني اليهم .

وتكلم بعض خاصته خصوصاً شقيقه محمد بن مروان فأيدوا رأيه ، وقالوا بالذهاب الى العراق .

فلما بلغ مصعباً مسيره وهو بالبصرة ارسل الى المهلب وهو يقاتل الخوارج يستشيره ، ويقال .. بل احضره عنده فقال له :

- اعلم ان اهل العراق قد كاتبوا عبد الملك وكاتبهم ، فلا تبعدني عنك .

فقال له مصعب : ان اهل البصرة ابوا ان يسيروا لقتال عبد الملك الا ان اجعلك على قتال الخوارج ، مخافة ان يقتحم الخوارج بلدهم في غيابهم ، وانا اكره إذ سار عبد الملك الي ان لا اسير اليه فاكفني هذا الثغر .

وسار مصعب الى الكوفة حتى نزل (باخرا) (١) وسار عبد الملك وجنده

---

(١) تقع بين الكوفة وواسط ، وهي اقرب الى الكوفه منها الى واسط . معجم البلدان ياقوت .

حتى نزلوا قريباً من معسكر مصعب ..

وكان الاشتر قد حمل كتاب عبدالملك الى مصعب قبل ان يقرأه ، فلما قرأه مصعب قال له :

– يا ابا النعمان اتدري ما فيه ؟

قال : لا .

قال : فانه يعرض عليك ما سقت دجلة ، او ما سقى الفرات ، فان ابيت جمعها لك ، وان هذا لما يُرْغَبُ فيه ..

فقال الاشتر : ما كنت لأتقلد الغدر والخيانة ، وما ترك عبد الملك احداً ممن معك الا وقد كتب اليه ، فابعث اليهم فاضرب اعناقهم ، والا فاوقرهم حديداً ، ثم أبقهم في ابيض كسرى ، ووكل بهم حفظة ، فان ظفرت عفوت او عاقبت ..

فقال : يا ابا النعمان ، اني اخاف في هذا القالة ، ووالله لو لم اجد الا النحل لقاتلت به جند عبد الملك ..

واحضر مصعب ابراهيم بن الاشتر وكان على الموصل والجزيرة ، فلما حضر عنده جعله على مقدمته ، وسار حتى نزل (باخرا) فعسكر هناك ، وسار عبد الملك وعلى مقدمته اخوه محمد بن مروان ... فنزل بمسكن قريباً من جيش مصعب .

واخذ عبد الملك بن مروان يبعث بالكتب الى زعماء العراق وقواده ، يستميلهم اليه ويمنّيهم بالعطاء والنوال والولايات ، حتى افسدهم على مصعب ، وقد اخفى كل منهم كتاب عبد الملك اليه إلا الاشتر ، فانه حمله الى مصعب ، وحذره من القواد والزعماء ونصحه بقتلهم او ابعادهم عن المعركة فلم يفعل ..

فلما اصطف الناس للقتال مال عتاب بن ورقا فانضم لعبد الملك ، وكان على خيل اهل الكوفة ، وجعل ابراهيم بن الاشتر يقول للرجل : تقدم ...

فيلتوي عليه .

فيتقدم هو فيقاتل ، فلم يزل يفعل ذلك حتى قتل .

ودعا محمد بن مروان شقيق عبد الملك .. عيسى بن مصعب فقال له :

— اني لكم ناصح .. ولك ولابيك الامان ..

فرجع عيسى فاخبر اباه ، فقال مصعب :

— اظن ان القوم سيفون لك ، فان احببت ان تأتيهم فافعل .

فقال له ابنه :

— لاتتحدث نساء قريش اني خذلتك ، ورغبت بنفسي عنك .

فقال مصعب : فاذهب انت ومن معك الى عمك بمكة ، فاخبره بما صنع اهل العراق .. ودعني فاني مقتول .

فقال : لا اخبر عنك قريشاً ابداً ، ولكن يا ابت الحق بالبصرة فانهم على الطاعة .. او الحق بامير المؤمنين — يعني عبدالله بن الزبير —

فقال مصعب : لاتتحدث قريش اني فررت ..

وقال مصعب عندئذ لابنه عيسى :

— تقدم اذن احتسبك ..

فتقدم ومعه ناس فقتل وقتلوا .

وجاء رجل من اهل الشام ليحتز رأس عيسى فحمل عليه مصعب فقتله ، وشدّ على الناس ، فانفرجوا له ، وعاد ، ثم حمل ثانية ، فانفرجوا له ، وتفرقوا من حوله ..

وبذل له عبدالملك الامان مرة ثانية .. فابى وصمّم على القتال .. فقال عبد الملك : هذا والله كما قال القائل :

ومدجج كره الكماة نزاله لا ممعناً هرباً ولا مستسلما

ودخل سرداقه فتحنط ، ورمى السرادق ، واخذ يحارب ، وترك الناس

مصعباً وخذلوه ، حتى بقي في سبعة انفس ، وكثرت الجراحات فيه ، وظل يقاتل حتى قتل .. فاحتز قاتله رأسه ، وحمله الى عبد الملك بن مروان .

مقتل مصعب :

ويصف ابي الحديد في شرح نهج البلاغة مقتل مصعب بن الزبير فيقول :

« ومن اباة الضيم الذين اختاروا القتل على الاسر ، والموت على الدنية ، مصعب بن الزبير ، وكان امير العراقين من قبل عبدالله بن الزبير ، وكان قد كسر جيوش عبدالملك واعياه امره ، فخرج اليه من الشام بنفسه ، فليم في ذلك وقيل له :

— انك تغرر بنفسك وخلافتك .

فقال : انه لا يقوم لحرب مصعب غيري .. هذا امر يحتاج الى ان يقوم به شجاع ذو رأي ، وربما بعثت شجاعاً ولا رأي له ، او ذو رأي ولا شجاعة عنده ، وانا بصير بالحرب ، شجاع بالسيف .

وسار عبد الملك حتى اذا كان بمسكن من ارض العراق ، وقد دنا منه عسكر مصعب ، تقاعد بمصعب اصحابه وقواده وخذلوه ، فقال لابنه عيسى :

— الحق بمكة فانج بنفسك ، واخبر عمك عبدالله بما صنع اهل العراق بي ودعني فاني مقتول ..

فقال عيسى : لاتتحدث نساء قريش اني فررت عنك ، ولكن اقاتل دونك حتى نقتل ، فالفرار عار ، ولا عار في القتل .. ثم قاتل دونه حتى قتل ...

وخف من يحامي عن مصعب من اهل العراق وايقن بالقتل ، فانفذ عبد الملك اخاه محمد بن مروان ، فاعطاه الامان وولاية العراق ابداً ما دام حياً ، والفي الف درهم صلة .. فأبى وقال :

— ان مثلي لا ينصرف عن هذا المكان إلا غالباً او مقتولاً .. فشدّ عليه اهل

الشام ورموه بالنبل فاثخنوه ، وطعنه زائدةبن قيس ونادى : «يالثارات المختار» فوقع الى الارض ، فنزل اليه عبد الملك بن زياد بن ظبيان فاحتز رأسه ، وحمله الى عبد الملك بن مروان .. فلما رآه عبد الملك بكى وقال :

- لقد كان احب الناس اليّ وأشدهم مودة لي ، ولكن الملك عقيم .

ويقال ان مصعباً لما خرج الى عبد الملك بن مروان سأل عن الحسين بن علي وكيف كان قتله ، فحدثوه بذلك فقال متمثلاً :

وان الاولى بالطف من آل هاشم تآسوا فسنوا للكرام التآسيا

فعلم من حضره ان مصعباً لن يفر من المعركة ،وانه ان لم يظفر فيها فسيموت على بساطها واديها .

والواقع ان مصعب بن الزبير القائد النبيل الشجاع قد اخطأ خطأ عظيماً في ابعاده المهلب القائد العربي الباسل عنه ، لان خطر عبد الملك كان اشد من خطر الخوارج ، كما انه أخطأ مثل ذلك في ابعاد غير المهلب من قواده البارعين عنه، وابقاء الخونة من القواد بين جنوده ، ومن كانوا ينتظرون الفرصة السانحة لمفارقته واللحاق باوطانهم ، وقد نصحه المهلب فلم يقبل نصيحته ، ولو فعل ، لما وفق عبد الملك التوفيق الذي وصفناه ، ولطالت الحرب ، وكثرت الزحوف ، وتبدل الموقف .

وبمقتل مصعب ابن الزبير صفا الجو لعبد الملك ، فدانت له العراق واكثر البلاد الاسلامية ، ولم يبق غير الحجاز وفيه عبدالله بن الزبير، فوطد عبدالملك النفس على مهاجمته ، وبعث له بجيش قوي تحت قيادة الحجاج بن يوسف ، فما زال يقاتله ويحاربه ويناضله حتى تمكن من تشتيت جنوده وقتله ، فدانت البلاد الاسلامية كلها لسلطان عبد الملك ، وقضي على الحزب الزبيري القضاء المبرم .

وبانهزام ابن الزبير فقد الحجاز شأنه السياسي ، ومركزه السابق ، وعاد

الى سالفات ايامه ، بلداً مجدباً لا شأن له في التاريـــخ الاسلامي السياسي في كثير ولا قليل ...

بعد المعركة ...

ولقد قتل مصعب في سنة ٧٢ للهجرة ، وبويع لعبد الملك في دير الجاثليق ودفنت جثة مصعب هناك ، وبعث عبد الملك برأس مصعب الى الكوفة ، ثم بعث به الى مصر .. الى شقيقه عبد العزيز بن مروان فلما رآه وقد خدّ السيف انفه قال :

- رحمك الله اما والله لقد كنت من احسنهم خلقاً واشدهم بأساً، واسخاهم نفساً ...

ثم ردّ رأسه الى الشام ، فنصب بـــدمشق ، وارادوا ان يطوفوا به في نواحي دمشق،فاخذته عاتكة ام يزيد بن عبد الملك وطيبته بعد ان غسلته ودفنته ..

ولقد قال عبد الملك يوماً لجسائه : ان اشدّ النـــاس مصعب بن الزبير ،كانت عنده عقيلتا قريش ، سكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحه ، ثم كان اكثر الناس بأساً ، جعلت له الامان ، وضمنت له ان أوليه العراق ، وعلم اني سأفي بوعدي لصداقة كانت بيني وبينه ، فابى وحمي انفه ، وقاتل حتى قتل ...

ولما اتي عبدالله بن الزبير مقتل اخيه مصعب ، وظفر عبدالملك بن مروان اضرب عن ذكره اياماً ، فلما كثر الحديث عنه صعد المنبر ، والكآبة باديـة على وجهه ثم قال :

« انه اتانا خبر من العراق احزننا وساءنا ، وافرحنا وسرنا ، اتانا قتـــل مصعب رحمه الله،فاما الذي أحزننا من ذلك فان لفراق الحميم لوعة ، يجدهـا حميمه عند المصيبة ، ثم يرعوى بعـد الرأي والدين والحجى والتقى الى الصبر

و كريم العزاء ، واما الذي سرنا من ذلك فقد علمنا ان قتله شهادة ، وان الله جاعل لنا وله خيرة ، ان اهل العراق ،اسلموه وباعوه باقل ثمن واخسه فقتل، وان قتل فقد قتل ابوه وعمه وهما من الخيار الصالحين ، إنا والله ما نموت على فراشنا ، ما نموت إلا قتلاً باطراف الاسنة ، وظباء السيوف ، ليس كما يموت بنو مروان في مجالسهم ، فوالله ما قتل منهم رجل في جاهلية ولا اسلام . »

سكينة بنت الحسين :

وكانت سكينة بنت الحسين بن علي بن ابي طالب سيدة نساء عصرها ، ومن اجمل النساء واظرفهن ، واحسنهن اخلاقاً ، واعلمهن في الادب والشعر ، وكانت زوجة مصعب بن الزبير ... فهلك عنها فتزوجت بعده غيره ...

واشتهرت السيدة سكينة بهذه المنادر الادبية تقام في دارها ، فيقصدها الشعراء يعرضون عليها شعرهم ، فتقول رأيها في الشعر والشاعر ، تمدح من تريد ، وتقدّر من تشاء ، وتنتقد من تنتقد ، وتسعف من تشاء منهم .. وقيل اسمها آمنة ، وقيل امينة ، وقيل اميمة ، وسكينة لقب لقبتها به امها ... وكانت وفاتها يوم الخميس لخمس خلون من شهر ربيع الاول سنة سبع عشرة ومائـــة ...

ويقول من كتب عنها من المؤرخين [1] : كانت سيدة نساء عصرها ، ومن اجمل النساء ظرفاً ، واحسنهن خلقاً واخلاقاً ..

وكانت عائشة مثلها اخلاقاً وجمالا وثروة ، ويقول المؤرخون : ان عائشة بنت طلحة حجت في سنة ، وحجت سكينه في السنة نفسها ، فكانت عائشة احسن آلة وحاشيه فقال حاديها :

عائشة يا ذات البغال الستين ما زلت ما عشت كذا تحجين

(١) الوافي بالوفيات

فشقّ ذلك على سكينة ... ونزل حاديها فقال :

عائش هذه ضرة تشكوك　　　لولا ابوها مـا اهتدى ابوك

فامرت عائشة حاديها ان يكف فكفّ ..

سكينة وشعراء العصر

وحكي انه اجتمع رواة جرير وكثير وجميل والاحوص ونصيب وجميعهم من شعراء ذلك العهد فافتخر كل منهم بصاحبه ، وقال :

- صاحبي اشعر .

وحكّموا سكينة بنت الحسين لما يعرفون من عقلها، ونفاذها في الشعر ،فخرجوا حتى استأذنوا عليها ، وذكروا لها ما كان من امرهم .

فقالت لراوية جرير : اليس صاحبك الذي يقول :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا　　　وقت الزيارة فارجعي بسلام

واي ساعة احلى للزيارة من الطروق ..؟ قبح الله صاحبك وقبّـــح شعره هلا قال :

وان ذا وقت الزيارة فادخلي بسلام ..

●

ثم قالت لراوية كثّير : اليس صاحبك الذي يقول :

يقـّر بعيني مـا يقر بعينها　　　واحسن شيء مابه العين قرت ..

وليس شيء اقرّ بعينها إلا ما تعرف .. افتحب مثل هذا ؟ قبحــه الله وقبح شعره ..

●

ثم قالت لراوية جميل : اليس صاحبك الذي يقول :

فلو تركت عقلي معي ما تركتها ولكن طلابيها لما فات من عقلي

فما ارى صاحبك هوى ، وانما هو يطلب عقله ، قبحه الله وقبح شعره .

●

ثم قالت لراوية نصيب : اليس صاحبك الذي يقول :

اهيم بدعد ما حييت وان امت فواحزني من ذا يهيم بها بعدي

فماله هم إلا من يتعشقها بعده .. قبحه الله وقبح شعره : الا قال :

اهيم بدعد ما حييت وان امت فلا صلحت دعد لذي خلة بعدي

●

ثم قالت لراوية الاحوص : اليس صاحبك الذي يقول :

من عاشقين تواعدا وتراسلا ليـــلا اذا نجم الثريا حلقا

باتا بانعم ليـــلة والذها حتى اذا وضح الصباح تفرقا

قبحه الله وقبح شعره ، ألا قال ... (تعانقا)..

●

فلم تثن على واحد منهم ، ولم تقدم احداً بينهم ..

الوداع :

ولما توشح مصعب بسيفه وخرج لقتال عبد الملك بن مروان ، نادته سكينة :

اعزمت يا ابن العم ؟

فقال لها : ما انا ممن يرجع عن عزيمته ..

فنادت : واحرباه .. من للمكارم بعدك ؟

فرجع اليها وعانقها وودعها ودمعت عيناه فقال :

ـ اما لو علمت ان لي من قلبك هذا المكان.. لكان لي ولك شأن .

فلم يرجع من ذلك اليوم ..

شعر في مصعب :

ولما قتل مصعب رثاه ابن قيس الرُّقيات فقال :

لقد اورث المصرين حزناً وذلةً
قتيل بدير الجاثليق مقيم
فما قاتلت في الله بكر بن وائل
ولا صبرت يوم اللقاء تميم

. . .

وكان عبد الملك بن مروان يقدر مصعباً ويثني عليه دائماً ..
وكان مقراً برجولته وبطولته وشجاعته ..
ولم يكن يسمح لاحد ان يذمه في وجهه ..

. . .

وذكر رجل مصعباً عند عبد الملك فوقع فيه ، وصغّر شأنه ، فقال له عبد الملك :

ـ اسكت ، فان من صغّر مقتولاً ، صغّر قاتله .

لماذا انهار الحزب الزبيري :

ترجع اسباب انهيار الحزب الزبيري الى عوامل كثيرة ، اهمها واولها ان عبد الله بن الزبير نفسه لم يكن الرجل الذي يستطيع ان ينشيء ملكاً ويبني سلطاناً ...

واما العوامل الاخرى فكثيرة واهمها : ما انصرف اليه عبدالله بن الزبير من اتخاذ مقر حكومته في الحجاز ، والحجاز بعيد عن كل الامصار العربية بامتداد الفتوح ، واتساع الزحوف ، فاصبح والحالة هذه بعيداً عن مركز العربية ، غريباً عن مقر الحركات السياسية ، لا يستطيع اقرار امر الا بعد طول مدى ، وامتداد شقة ، ولا يصل اليه الخبر الا بعد اشهر من تاريخ وقوعه

وحدوثه . اضف الى هذا ان الحجاز اصبح بعد امتداد الفتوح ، ومغادرة اكثر العناصر السياسية له الى الشام والعراق ، مأوى الطبقة الارستوقراطيـــة من اشراف قريش والانصار الذين انصرفوا عن النزاع السياسي الذي كان يغمـــر دمشق ، وتضطرب به العراق الى حياة الدعة واللهو والمجون كما يمثل لنا ذلك شعر الشعراء في هذا العهد ، فكان اهله والحالة هذه ابعد النـــاس عن الحرب ، وحب الزحوف ، ومثل هذه الظاهرة لم تكن توطد عرشاً ، او تؤسس ملكاً.

ويظهر لنا ان ابن الزبير كان كثير الرغبة في اعادة الخلافة الى الحجـــاز ، بعد ان افضت بها الفتن الاخيرة الى دمشق ، ومثل هذا الرأي يدل على انـــه لم يكن يدرك مدى التطور العظيم الذي طرأ على الدولة العربيـــة الجديـــدة ، فنقلها من الحجاز المجدب، الى هذه المشارف الماتعة في دمشق ومصر وعلى ضفاف دجلة والفرات ، وكان من الحق ان يكون ابعد نظراً ، وامضى رأياً فيدرك خطر هذه الفروق العظيمة ، والتطورات الخطيرة ، ويعلم ان الحجاز لن يكون عاصمة مملكة ومقر امبراطورية تمتد اطرافها من مشرق الشمس الى مغربهـــا ..

واخطأ ابن الزبير غير خطأ واحد بعد انسحاب جند يزيد بن معاوية من حول مكة ، كان عليه ان يتحرك منها الى العراق والشام ، وكان عليه ان يمضي في تأهبه واستعداده على نحو ما كان يفعل عدوه ، وكان عليه ان لا يتواكل في نشر دعوته ، وبث دعاته ، وان لا يترك انصاره وشأنهـــم يحاربون عدوه وحدهم ، ويقارعون خصومه وهو لاه عنهم ، منزو في اقصى الارض .

ونحن لا ننكر الى ذلك انه كان لظهور الشيعة والخوارج في وجهـــه اثر كبير في فشله ، فقد توزعت قواته ، وانشغـــل فريق عظيم من قواده في محاربتهم ومنازلتهم ، كالمهلب بن ابي صفرة الذي كان يقـــاوم الخوارج في خراسان ، بينما عبد الملك بن مروان يحشد الجند ، لمصاولة مصعب بن الزبير، وكان من الواجب ، وهذه معركة يتوقف عليها مصير ابن الزبير وسلطانه ان

يحشد لها كل قواته وانصاره ، وان لايتخاذل في ذلك ولا يتهاون .

وشيء آخر ايضاً هو ما اشتهر به ابن الزبير من البخل ، فقد روى المؤرخون [1] ان مصعب بن الزبير وفد الى اخيه عبدالله ومعه وجوه اهل العراق ، وذلك بعد مقتل المختار ، فقال له :

ـ يا امير المؤمنين جئتك بوجوه اهل العراق لم ادع لهم بها نظيراً ، لتعطيهم من هذا المال ..

فقال له : جئتني بعبيد اهل العراق لاعطيهم من مال الله..والله لافعلت..

ونحن وان كنا لا نرغب في التعليق على هذا الجواب ، الا اننا لا نستطيع انكار ما كان لجوابه هذا من اثر سيء في نفوس العراقيين ، ومن أراد توطيد ملكه ، وجب عليه ان يبذل في سبيله ، وقد تألف محمد نفسه العرب في عهده ، ولو كان فظاً غليظ القلب لانفضوا من حوله ، وهو نبي مرسل ، وكان امره الامر ، فما بالك بمثل عبدالله بن الزبير ، لا يحاول تألف الناس حتى ولا بالكلام الحسن واللفظ الرقيق !.

ولا عجب والحالة هذه اذا انصرف الناس عن ابن الزبير وكاتبوا عبدالملك وغدروا بمصعب .. وقد عرف فيه عبد الملك هذا البخل ، فتنبأ بافول نجمه وقال لمصعب وهو يدعوه لاخيه : « ان فيه ثلاث خصال لا يسود بها ابداً ، عجب قد ملأه ، واستغناء برأيه ، وبخل التزمه ، فلا يسود رجل فيه تلك الخصال .. »

عبد الملك في الكوفة :

ولما دخل عبد الملك الكوفة بعد الواقعة قصد الى المسجد وخطب خطبة ذكر فيها صنع الله له ، ووعد المحسن ، وتوعد المسيء ، وولى شقيقه بشر بن مروان

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٢٠٩ .

الكوفة ، وقال للناس :

– اني قد آثرتكم به على نفسي ، وامرته بالاحسان الى محسنكم واللين لاهل الطاعة ، والشدة على اهل المعصية والريبة منكم ، فاسمعوا له واطيعوا ، واحسنوا مكاتفته ومعاونته .

ولما اراد عبد الملك الشخوص الى الشام خطب الناس ، فعظّم عليهم حق السلطان ، وقال لهم :

« هو ظل الله في الارض ، وحثهم على الطاعة والجماعة ، وذكر ابن الزبير وخلافه وخروجه مما دخل الناس فيه ، وقال انه لو كان خليفة كما يزعم لابدى صفحته ، وآسى انصاره بنفسه ، ولم يَغرز ذَنَبَه في الحرم » .

- ٩ -

الحجاج بن يوسف

وانهيار سلطان ابن الزبير

مولده ونشأته :

ولد الحجاج بن يوسف في الطائف، منازل قبيلة ثقيف ، قبيلة الجاه والمنعة والزعامة في الجاهلية ، ويقال انه ولد في عهد معاوية ، وفي سنة ٤٤ للهجرة على الارجح ، وكانت عائلته فقيرة معدمة ، وكان ضعيف الجسم في طفولته وله شقيق اكبر منه يدعى محمد ، وشقيقة تدعى زينب ، اما حياته الاولى فمجهولة تماماً لا يذكر لنا التاريخ عنها شيئاً ، ولكننا نعلم ان والده كان معلماً ، وانه هو نفسه تكلف هذه الصناعة ايضاً ، فكان يعلم الاطفال كتابة القران وقراءته وحفظه ..

ولكنه لم يطق هذه الحياة الوادعة الساكنة طويلا ، واخذ يحس في نفسه رغبة عظيمة في مغادرة قريته الى دمشق حيث الترف والعز ، وحيث السياسة

والسيف .. كما كان يحس انه لم يخلق لهـــذا النوع من العمل ... كتعليم الاطفال في قرية نائية بعيدة ، وكان يعلم ان مستقبله سيكون مظلماً حقاً اذا ظل في قريته هذه ، وما كادت تضطرب هذه الفكرة في نفسه ، حتى تغلبت على كل حواسه ، واذا هو يقرر مغادرة قريته كما فعل كثيرون من امثاله ، ومن المؤكد لدينا ان تلامذته لم يأسفوا لفراقه ، فقد كانت عصاه (مقرعته) شديدة قاسية على لحومهم البضة الطرية ..

وتمضي الايام فلا نعلم من امره بعد مغادرته الطائف واطفاله شيئاً ،ولكن (الاغاني) يذكر لنا فيما يذكره من اخباره انه حضر مذبحة (الحرة) في المدينة سنة ٦٣ للهجرة – اب ٦٨٣ – وانه هرب منها تاركاً والده لمصيره ، وانه راح بعد ذلك يعتذر عن هربه [١] .

وفي سنة ٦٥ للهجرة نرى الحجاج مع ابيه في الجيش الذي ارسله مروان بن الحكم لمهاجمة ابن الزبير في مكة ، وقد عرف القارىء ما اصاب هذا الجيش في معركة (الربذة) من فشل مريع . ولكن الحجاج ووالده تمكنا من الهرب والنجاة ، بعد ان رمى الاول بالعلم الذي كان يحمله في يده[٢] .

وكذلك نرى ان (فتوحات) الحجاج الاولى العسكرية لم تكن موفقة ، فما نراه وفق في بعث ، ولا ثبت في معركة ، وكذلك نراه مثل ذلك في ادارته الاولى ، فقد بعث به عبد الملك حاكماً على (تباله) فما عتم ان اعرض عنها لما

---

(١) الاغاني جزء ١٦ ص ٤٢ .

(٢) يقول بعض المؤرخين ان يوسف والد الحجاج هلك في المعركة ، ولكن ابن قتيبة في كتابه (المعارف) ينكر ذلك ، ويؤيده في ذلك الطبري وابن الاثير ، ويظهر لنـــا من اقوال هؤلاء المؤرخين ان عبد الملك بن مروان عهد الى يوسف والد الحجاج بعد ذلك باحدى الولايات كما عهد الى ابنه الحجاج بالمدينة ، وان الحجاج وهو عامل المدينة ابن والده لما عـــلم بموته . — ابن قتيبة في المعارف

رآه من ضعف خطرها ، وخسيس اهميتها[1] . والظاهر انه كان يرى نفسه اكثر خطراً ، واعظم شأنــاً ، ولعله ذهب بعدها الى روح بن زنباع الذي كان من اعوان عبد الملك المقربين،وانضم الى شرطته ، ويقول ابن قتيبة : ان الحجاج عين بعد ذلك قائداً لشرطة ابان بن مروان شقيق عبد الملك وحاكم فلسطين في هذا العهد .[2]

ظهور الحجاج :

وفي سنة ٧٠ للهجرة — ٦٨٩ — غادر عبــد الملك بن مروان الشام الى العراق لمحاربة مصعب بن الزبير ، فغلب عمرو بن سعيد في غيابه على دمشق فرجع عبد الملك اليها ، وكان ما كان من مقتل عمرو بن سعيد كمــا ذكرنا في فصل سابق ، فاطمأن عبد الملك عندئذ الى استتباب ملكه ، وانتظام شأنه، واخذ طريق العراق كرة ثانية ،واوجس عبد الملك وهو في طريقه الى العراق شراً لما رأى انحلال عسكره ، وان الناس لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله فشكا ذلك الى روح بن زنباع فقال له :

— ان في شرطتي رجلاً لو قلّده اميرالمؤمنين امر عسكره ..لأرحل الناس برحيله وانزلهم بنزوله ...يقال له الحجاج بن يوسف ..

فقال عبد الملك : فانا اقلده ذلك .

فكان لا يقدر احد ان يتخلف عن الرحيل إلا اعوان روح بن زنبــاع ، فوقف عليهم يوماً ، وقد أرحل الناس على الطعام يأكلون .. فقال لهم :

— ما منعكم ان ترحلوا برحيل امير المؤمنين ؟

فقالوا له : انزل يا ابن اللخناء فكل معنا .

---

(١) تباله من اعمال تبما في طريق اليمن . ياقوت ومعجم البلدان ، وابن خلــكان في وفيات الاعيان .

(٢) ابن قتيبة : كتاب المعارف ص ١٨٠ و ٢٠٢

فقال لهم : هيهات ذهب ذلك... ثم امر بهم ، فجلدوا بالسياط ، وطوّفهم بالمعسكر ، وامر بفساطيط روح فأحرقت بالنار.. فدخل روح على عبد الملك شاكيا ، فقال :

- يا امير المؤمنين ، ان الحجاج الذي كان في شرطتي ضرب غلماني واحرق فساطيطي .

قال : عليّ به ..

فلما دخل عليه قال : ما حملك على ما فعلت ؟

قال : انا ما فعلت .

قال : ومن فعل ؟

قال : انت فعلت .. انما يدي يدك ، وسوطي سوطك ، وما على امير المؤمنين ان يخلف لروح عوض الفسطاط فسطاطين ، وعوض الغلام غلامين فلا يكسرني فيما قدّمني له .

فاطرق عبد الملك هنيهة ثم قال :

- سأفعل ذلك .

ومن ذلك الوقت ، فطن عبد الملك لقوة الحجاج وبأسه واخلاقه ، وانه يستطيع الاعتماد عليه في كل امره ..

وانتهت المعركة بين جيش عبد الملك ومصعب على ما وصفنا في فصل سابق ، وبعد ان عين عبد الملك شقيقه بشر بن مروان على الكوفة، وخالد بن عبدالله على البصرة عاد الى دمشق وهو يفكر في التهيؤ لأبن الزبير وحربه بعد ان صفا له جو الولايات العربية كلها ، ولم يبق خارجاً عن سلطته الا الحجاز ...

الحجاج يقود حملة الحجاز :

يقول المؤرخون ان السبب في ارسال عبد الملك بن مروان الحجاج لقتال

ابن الزبير ، دون غيره من الناس ، مع ما رأيناه من رغبة عبد الملك في المسير الى قتال خصمه بنفسه وعلى رأس جنوده ، ان الحجاج جـــاءه يوماً وهو يقول :

رأيت في المنام اني اخذت عبدالله بن الزبير فسلخته فابعثني اليــه ، وولني قتاله .

فبعثه عبد الملك على رأس الفين [1] من جنود الشام ، وذلـــك في سنة ٧٢ للهجرة ، وكان للحجـــاج من العمر في ذلك الوقت ٣١ سنة ، فوصل في شهر شعبان للطائف ، ولم يتقدم رأساً الى مكة [2].

وسبب ذلك في اعتقادنا رغبة الحجاج في ان يكون له ولجنده مركز منيع يأوي اليه في بلد اكثر اهله خصوم له ، وما لديه من الجند ليس يفوق جنـد عدوه ، وكانت الطائف لقيامها على جبل غزوان بـــلداً منيعاً من الوجهة العسكرية يستطيع الجند المهاجم ان يعتمد على مناعتها الطبيعية فيما اذا لم يوفق في زحفه ، وحاول عدوه اللحاق به ، وقد يكون من الاسباب التي اهـابت بالحجاج للنزول في الطائف اول الامر ، انها كانت بلده ، وكان يهمه وهو في مهد شبابه ان يدخلها على رأس جند الشام ، فيعزز بذلك مركزه ومركز عائلته ، ويظهر بين اترابه بمظهر العز والمنعة والجد ..

ويبدو لنا من جهة ثانية ان ما فعله الحجاج كان تنفيذاً للأمر الذي صدر له من عبد الملك نفسه ، فيحدثنا صاحب انساب الاشراف : انه لما استعمل عبد الملك الحجاج بن يوسف لمحاربة ابن الزبير ، اقبل عليه هيثم بن الاسود النخعي فقال له :

---

(١) ويقال في ثلاثة الاف او خمسة الاف .

(٢) ولم يعرض للمدينة ولا طريقها .

— يا امير المؤمنين ، اوصي هذا الغلام الثقفي بالكعبة ، ومره ان لا ينفر اطيارها ، ولا يهتك استارها ، ولا يرمي احجارها ، وان يأخذ على ابن الزبير بشعابها وفجاجها وأنفاقها.. حتى يموت فيها جوعاً او يخرج منها مخلوعاً .

فقال عبد الملك للحجاج : افعل ذلك واجتنب الحرم ، وانزل الطائف ..

ويحدثنا الواقدي وغيره : انه لما بويع عبد الملك وهو بالشام بعث الى المدينة عروة بن انيف في سته الاف من اهل الشام ، وامره ان لا ينزل على احد ولا يدخل المدينة ، وان يعسكر بالعرصة ، ففعل ، وكان عامل عبد الله بن الزبير على المدينة الحارث بن حاطب بن معمر ، فلما بلغه قدوم الشام ولي هارباً ،فكان (ابن انيف) يدخل فيصلي الجمعة بالناس ثم يعود الى معسكره ،فاقام واصحابه شهراً لا يبعث اليهم ابن الزبير احداً ، ولم يلقوا كيداً ، ثم كتب عبد الملك الى ابن انيف ومن معه في القفول الى الشام فعادوا، ولم يتخلف منهم احد ..

ولعل هذا البعث كان لمضايقة ابن الزبير وازعاجه ،ريثما يستتب الامر لعبد الملك في العراق ، فيوجه الجند لغزو الحجاز كله ، والذي يلفت النظر هو هذا الموقف الذي وقفه ابن الزبير من هذه الشرذمة التي ارسلها عبد الملك الى المدينة ، فلم يحرك ساكناً لردها ، ولا فكر في دفعها وبذلك اطمع جند الشام به ...

ويظهر ان عبد الملك كان كثير الرغبة في ان لا يثيرها بجزرة او مذبحة في مكة مخافة ان يلم به ما الم بيزيد بن معاية بعد مذبحة الحرة من غضب المسلمين عليه ونقمتهم على خلافته ، فاوصى الحجاج بان لا يحارب ابن الزبير في مكة ، ويبعث له بالامان لابن الزبير ومن شايعه إن اطاعوا ، وهذا سبب ما نراه من وقوف الحجاج موقف المتريث اول الامر...قدم الى الطائف ولم يعرض للمدينة ، وكان يبعث الخيل الى عرفة ، ويبعث ابن الزبير خيله ايضاً فيقتتلون ساعة من نهار ، ثم تنهزم خيل ابن الزبير وتعود خيل الحجاج ظافرة غانمة .

وعندئذ كتب الحجاج الى عبد الملك يعلمه بضعف ابن الزبير ويستمده ويستأذنه في دخول الحرم ، وحصر ابن الزبير ، فكتب عبد الملك الى طارق احد قواده يأمره باللحاق بالحجاج ، فقدم المدينة في ذي القعدة من سنة ٧٢ للهجرة ، واخرج عامل ابن الزبير عنها، وقدم على الحجاج وهو بمكة في اواخر السنة ومعه خمسة آلاف مقاتل .(١)

رمي البيت

ولما وصلت النجدات الى الحجاج جعل معسكره في جبل ابي قبيس ، واخذ يقاتل ابن الزبير في الشهر الحرام والبلد الحرام ، ونصب المنجنيق على الجبل واخذ يرمي به الكعبة ، ثم توقف عن ذلك اياماً لنقمة الحجاج عليه واستنكارهم لعمله ، ولكنه ما كاد ينتهي موسم الحج حتى عاد الى شأنه .

وكان عبد الملك ينكر رمي البيت في ايام يزيد بن معاوية ، ثم امر بذلك لما ولي الخلافة ، فكان الناس يتعجبون منه ويقولون : خذل في دينه .

وحج عبد الله بن عمر في تلك السنة ، فارسل الى الحجاج : ان اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس، فانك في شهر حرام ، وبلد حرام ، وقد قدمت وفود الله من اقطار الارض ، يضربون آباط الابل ويمشون على اقدامهم ليؤدوا فريضته ، او يزدادوا مزداد خير .. فان المنجنيق تمنعهم من الطواف .

فكف الحجاج عن الرمي حتى قضى الناس ما يجب عليهم بمكة، وخرجوا الى منى وعرفه ، فوقف بالناس بها وشهد معهم المشاهد ، ولم يعرض ابن الزبير للحجاج في هذه الزيارة .

---

(١) جاء في انساب الاشراف :

« ثم ان الحجاج كتب الى عبد الملك بعد مدة :

« انك متى تدع ابن الزبير وتكف عنه ، ولا تأمر برجمه ومصادمته ، يكثر عدده وسلاحه ... » فامره ان يناجزه وامده بالجنود .

ونادى منادي الحجاج في الناس: ان انصرفوا الى بلادكم فانا نعود بالمنجنيق على ابن الزبـــير .

سوء سياسة ابن الزبير

وانضم بعض الناس الى ابن الزبير ليقاتلوا معه اعظاماً للبيت وحرمته، وقدم عليه قوم من الاعراب، فطلبوا منه ان يعينهم على قتال العدو، فنظر فاذا مع كل امرىء سيف كانه شفرة فقال :

- يا معشر الاعراب ان سلاحكم لرث، وان حديثكم لغث، وانكم لعيال في الحرب .. اعداء في الخصب ... فتفرقوا عنه .

وهذا من سؤ سياسة ابن الزبير وضعف تدبيره فما كان يضيره ان يحاربوا معه فيزداد بهم على عدوه قوة ومنعة .

وقال الواقدي : كان مع ابن الزبير مئتان من الحبشة قاتلوا معه، فكانوا يرمون بزاريقهم فلا يقع مزراق إلا في رجل، فقتلوا من الشاميين جماعة ...

وحارب معه جماعة من الخوارج من اصحاب الشجاعة والبأس، فقاتلوا معه مدافعين عن البيت، معظمين لحرمته، وكانت لهم نـكاية في اهل الشام، فبلغه عنهم ما يقولون في عثمان فقال : والله ما احب ان استظهر على عدوي بمن يبغض عثمان ... ولا بأن القى الله إلا ناصراً له .

وجعل يماكرهم فقالوا : والله ما نرى ان نقاتل مع احد يكفر اسلافنا، وما قاتلنا الا لحرمة هذا البيت، وان نردها شوري .

فتفرقوا عنه، فاختل عسكره، وعريت مصافه، ودنا منه عدوه حتى قاتلوه في جوف المسجد .

فقال عبيد الله بن عمير : عجباً لك .. ولما صنعت بهؤلاء القوم وهم اهل البلاء الحسن والاثر الجميل، هلا سكت عنهم واحتملتهم الى ان يصنع الله،

وتضع الحرب اوزارها : وقد قلت : لو ان الشياطين اعانتني على هؤلاء القوم لقبلتهم ، وقد كان رسول الله يستعين في حربه بالمنافقين واليهود ...

ولم يزل القتال شديداً دائراً والحصار قائماً حتى نقصت الاطعمة عند ابن الزبير ، وارتفعت الاسعار ، واصابت الناس مجاعة شديدة ، حتى ذبح ابن الزبير فرسه ، وقسم لحمه بين اصحابه .

ولما رأى الناس شدة البلاء اخذوا يتفرّقون عن ابن الزبير ، وخرج بعضهم بالامان الى الحجاج ، وكان ممن فارقه ابناء حمزه وحبيب ..

اشتداد الحرب والحصار :

ولما صدر الناس عن الحج اعاد الحجاج الرمي بالمنجنيق ، فلقد كان الحجر يقع بين يدي ابن الزبير ، وهو يصلي فلا يبرح مكانه ، ورميت الكعبة حتى ارتجت ووهنت، فارتفعت سحابة ذات برق ورعد، فسقطت صاعقة على المنجنيق فاحرقتها وقتلت من اصحابه اثني عشر رجلاً ، فذعر اهل الشام من ذلك ، وكفوا عن القتل ... فقال الحجاج :

— انا ابن تهامة ، وهي بلاد كثيرة الصواعق ، فلا يروعكم ما ترون فإن من قبلكم كانوا اذا قربوا قرباناً بُعثت نار فاكلته فيكون ذلك علامة تقبل ذلك القربان .

واتى الحجاج بمنجنيق اخرى وعاود الرمي .

ابن الزبير في الحرب :

وقال اسحق بن عبدان الاسلمي : شهدت حصار ابن الزبير ، فرايته يباشر القتال بنفسه ، ولقد رأيته يقتل بيديه مثل جميع من يقتله اصحابه ، ورايته اليوم الذي قتل فيه ، وهو يوم الثلاثاء ، وانه لبين الركن والمقام يقاتلهم اشدّ قتال ، حتى انهم ليغشونه من كل ناحية ، حتى قُتل .

وكانوا يدعونه الى تبييت الحجاج – اي ان يهجم على جماعة الحجاج وهم نيام – فيقول : البيات لا يصلح ولا نستحله .

قالوا : وعرض على ابن الزبير ان يدخل الكعبة .

فقال : والله اني لاكره ان ادخلها فأؤخذ كما تؤخذ الضَّبعُ من وِجَارها ، ولكني اقاتل بسيفي هذا حتى اقتل ، والله ما باطن الكعبة عند الحجاج إلا كظاهرها .

وشرب ابن الزبير الصبر اياماً.. ثم المسك مخافة ان يصلب فيشم نَتْنُهُ .

وقال طارق وهو احد قواد الحجاج . وقد رأى ابن الزبير يقاتل ويحارب :

- ما ولدت النساء اذكر من هذا !

فقال الحجاج : اتقرظ مخالفاً لامير المؤمنين وطاعته ؟ .

قال : ذلك اعذر لنا في محاصرته عدة اشهر .. وهو في غير حصن ولا منعة .. فبلغ ذلك عبد الملك فضرب طارقاً .

بين ابن الزبير وامه :

ولما رأى ابن الزبير انه لم يبق معه الا قليل لا يغنون عنه شيئاً.. دخل على امه اسماء بنت ابي بكر فقال :

« يا اماه ، خذلني الناس حتى ولدي واهلي ولم يبق معي الا اليسير ، ومن ليس عنده اكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطونني ما اردت من الدنيا فما رأيك ؟

فقالت : انت اعلم بنفسك ، ان كنت تعلم انك على حق واليه تدعو ، فامض له فقد قتل عليه اصحابك.. ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني امية ، وان كنت انما اردت الدنيا فبئس العبد انت اهلكت نفسك ومن قتل معك ، وان قلت كنت على حق فلما وهن اصحابي ضعفت فهذا ليس فعل الاحرار ولا اهل الدين ، كم خلودك في الدنيا ؟ .. القتل احسن .

فقال : يا اماه اخاف ان قتلني اهل الشام ان يمثلوا بي ويصلبوني .

قالت : يا بني ان الشاة لا تتألم بالسلخ فامض على بصيرتك واستعن بالله .

فقبل رأسها وقال :

« هذا رأيي والذي خرجت به دائباً الى يومي هذا .. ما ركنت الى الدنيا ولا احببت الحياة فيها وما دعاني الى الخروج الا الغضب لله وان تستحل حرماته ، ولكنني احببت ان اعلم رأيك فقد زدتني بصيرة ، فانظري يا اماه فاني مقتول يومي هذا فلا يشتد حزنك وسلمي الامر الى الله ، فان ابنك لم يتعمد ايثار منكر ، ولا عملا بفاحشة ، ولم يجر في حكم الله ، ولم يغدر في امان ، ولم يتعمد ظلم مسلم او معاهد ، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل انكرته ، ولم يكن شيء آثر عندي من رضاء ربي ، اللهم لا اقول هذا تزكية لنفسي ، ولكني اقوله تعزية لأمي حتى تسلو عني » .

فقالت امه : لأرجو ان يكون عزائي فيك جميلا ، ان تقدمتني احتسبتك وان ظفرت سررت بظفرك ، اخرج حتى انظر ما يصير اليه امرك .

فقال : جزاك الله خيراً فلا تدعي الدعاء لي .

قالت : لا ادعه لك ابداً ، فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق .

ثم قالت : اللهم ارحم هول ذاك القيام الطويل في الليل الطويل ، وذلك النحيب والظمأ في هواجر مكة والمدينة ، وبره بأبيه وبي ، اللهم قد سلمته لامرك فيه ، ورضيت بما قضيت ... فاثبني فيه ثواب الصابرين الشاكرين .

فتناول يديها ليقبلها ، فقالت : امض على بصيرتك وادن مني حتى اودعك .

فدنا منها فعانقها وقبلها ، فوقعت يدها على الدرع ، فقالت :

-- ما هذا صنيع من يريد ما تريد .

فقال : ما لبسته الا لأشد متنك .

قالت : فانه لا يشد متني .

فنزعها ثم خرج يقاتل القوم حتى قتل .. في جمادي الاخرة من سنة ٧٣ للهجرة ..

وبمقتل ابن الزبير ، صفا الجو لعبد الملك بن مروان في جميع الامصـــار الاسلامية ، واجمعت عليه الكلمة ، ولم يبق له منازع او مخالف ، وامـــا ابن الزبير فقد دامت خلافته تسع سنين .. لانه بويع له سنة ٢٤ للهجرة .

بعد قتل ابن الزبير :

ولما قتل ابن الزبير حمل رأسه الى الحجاج ، فبعث به الى عبد الملك ،وصلب بدنه .. ثم سلمه الى والدته فوارته التراب .

ولما قتل ابن الزبير كـبّر جند الحجاج فقال عبدالله بن عمر بن الخطاب :

ـ لمنْ كبرّ من الاخيار لمولده ، اكثر ممن كـبّر من الاشرار لقتله .

وكان اول مولود ولد بالمدينة من ابناء المهاجرين وكان ابن عمر يقول :

ـ اهل الحجاز امرع الناس في فتنة ، واهل الشام اطوع الناس لمخلوق في معصية ... واهل العراق اسأل النـاس عن صغـــيرة واركبهم لكبيرة ، يسألون عن قتل جرادة ، وقد قتلوا ابن بنت نبيهم .

— ١٠ —

سياسة الحجاج في الحجاز والعراق

في الحجاز :

اراد عبد الملك بن مروان بعد ان صفا له الجو في الامصار الاسلامية ان يكافىء القائدين اللذين نجحا في محاربة عبدالله بن الزبير ، فعين الحجاج لمكة ، وقلد طارق بن عمرو المدينة ، ثم زاد في واجبات الحجاج فضم اليه اليمن واليمامة ، وما لبث ان ضم اليه المدينة ايضاً بعد ان عزل طارقاً عنها .

وليس بين ايدينا عن اعمال الحجاج في مكة ثم في المدينة ما يستلفت النظر سوى ما صرف همه له من الشدة والقسوة على كل من كان يظن فيهم الكره لبني امية ، والتنكر لسلطانهم ، وقد قسا في ذلك قسوة انكرها الناس عليه خصوصاً اهل المدينة ، فقد اساء الى اهلها كثيراً ، واستخف بهم وقال : « انتم قتلة امير المؤمنين عثمان » ، وختم على ايدي جماعة من الصحابة بالرصاص ، استخفافاً بهم ، كما يفعل باهل الذمة ، منهم جابر بن عبد الله ، وانس بن مالك وسهل بن سعد ، فاغضب هذا اهل المدينة ومكة وشكا بعض كبّارهم امرهم

الى عبد الملك بن مروان ..

وهنا تختلف روايات المؤرخين في الاسباب التي دعت عبد الملك الى نقل الحجاج من الحجاز الى العراق ، فمن يقول منهم بهذه الاسباب العاطفية ، ورغبة عبدالملك في رفع الشدة عن سكان الحجاز ، لا يجد من يؤيده من المؤرخين المعاصرين لاننا في الواقع لانرى في هذه الاسباب مبرراً للنقل ، وعبد الملك انما اوفد الحجاج الى الحجاز لقمع الفتن ، وتثبيت الامن ، وقد وفق الحجاج في ذلك الى حد بعيد ، فلا سبيل والحالة هذه الى نقله ، وهو انما يقرر رغبات عبد الملك وينفذها ، ولكن السبب الاساسي في نظرنا هو موت بشر بن مروان في الكوفة سنة ٧٥ للهجرة (٦٩٤ش) ، وهو شقيق عبدالملك فوجد عبد الملك الحاجة ماسة الى من يخلفه خصوصاً والعراق بحاجة الى حاكم قوي شديد والخوارج لا تزال تهدده ، فلم ير الخليفة غير الحجاج اهلا لهذا المنصب الخطير ، فولاه اياه ، وامره بالسير له ، والتشمير في عمله الجديد ..

هذا هو الرأي الحق في الاسباب التي دعت الى نقل الحجاج الى العراق ، ولولا وفاة بشر بن مروان في اعتقادنا لظل الحجاج في الحجاز مدة اخرى من الزمن ..

ولعل اهم عمل قام به الحجاج في الحجاز هو تعمير الكعبة التي دمر بعض جدرانها اثناء الحصار بما كان يلقيه عليها من الحجارة الكبيرة ، واذا استثنينا هذا فلا نرى للحجاج عملاً عمرانياً مدة ولايته على الحجاز التي طالت الى ثلاث سنوات بما فيها الايام التي قضاها في الطائف قبل مهاجمته لأبن الزبير في مكة .

عمارة الكعبة :

وكانت الكعبة في عهد ابن الزبير على نحو ما كانت عليه في عهد محمد بن عبد الله ، فلما آل الامر الى يزيد بن معاوية كان عبدالله بن الزبير ما يزال منتقضاً

على امارة الامويين ثائراً بهم بمكة ، فجرد عليه يزيد جيشاً لاخضاعه وكان عليه الحصين بن نمير ، فسار اليه وضيق عليه الحصار بمكة ، ولم يطق ابن الزبير ورجاله مقاومته فلجأوا منه الى الحرم وبنو حول الكعبة خصاصاً من القصب يحتمون بها من حجارة المنجنيق ، الذي نصبه ابن نمير ، على جبلي مكة ابي قبيس وقيقعان ، ولم تمنع هذه الخصاص اللاجئين اليها من شر الحجارة ، وكان ابن نمير قد امر اصحابه ان يرموا الكعبة من المنجنيق بعشرة الاف حجر ، وكانوا يرمون ويرتجزون ، وكانت الحجارة تصيب الكعبة حتى تمزقت كسوتها وبدت احجارها ، واصاب الذين يقيمون بالخصاص والخيام حول الكعبة الفزع ، حتى ان احدهم ليوقد ناراً في خيمة قائمة بين ركن الحجر الاسود والركن اليماني ؛ إذ طارت منه شرارة احرقت الخيام وتعلقت باستار البيت ، ولما كان بناء الكعبة يومئذ مدماكا من حجر ، ومدماكا من خشب الساج فقد احترق الخشب ووهن البناء كله ، حتى كان وقوع الحمام على الكعبة كافياً لتناثر حجارتها .

ولقد فزع لذلك اهل مكة واهل الشام جميعاً ، وترك ابن الزبير الكعبة ليراها الناس ، فيكون مرآها محرضاً لهم على اهل الشام ، وظل الامر كذلك ، وظل الحصين بن نمير محاصراً البلد الحرام حتى بلغه نعي يزيد بن معاوية ، فرجع الى الشام تاركا الكعبة واهية توشك ان تنقض .

وتحدث عندئذ ابن الزبير الى اهل مكة ، ما يصنع بالبيت ؟ ايصلح ما وهي منه ، ام ينقضه ويعيد بناءه ، وكان عبدالله بن عباس على رأس المعارضين للهدم واعادة البناء ، وقال موجها كلامه الى ابن الزبير :

-- دعها على ما اقرّها رسول الله ﷺ ، فأني اخشى أن يأتي بعدك من يهدمها ثم بعد ذلك اخر ، فلا تزال ابداً تهدم وتبنى فتذهب حرمة هذا البيت من قلوبهم ، ولا احب ذلك .. ولكن ارقعها ..

فاجابه ابن الزبير : والله ما يرضى احدكم ان يرقع بيت ابيه وامه فكيف ارقع بيت الله سبحانه ، وانا انظر اليه ينقضّ من اعلاه الى اسفله ، حتى ان الحمام ليقع عليه فتتناثر حجارته .

واقام اياماً يشاور ويستخير ، ثم اجمع على هدم الكعبة ، وهدمها واعاد بناءها ، ولما كانت خالته عائشة ام المؤمنين تذكر ان رسول الله قال لها :

ـ يا عائشة ، لولا ان قومك حديثو عهد بالجاهلية لامرت بالبيت فهدم ، فادخلت فيه ما اخرج منه والزقته بالارض وجعلت له باباً شرقياً وباباً غربياً، فبلغت به اساس ابراهيم . »

لذلك زاد ابن الزبير في مساحة الكعبة فادخل فيها حجر اسماعيل ، بعد ان كشف عن اساسها وجعل لها بابين والصقها بالارض .

ولما هدم ابن الزبير الكعبة وشرع في اعادة بنائها بعث اليه عبد الله بن عباس يقول :

ـ لا تدع الناس بغير قبلة ، انصب لهم حول الكعبة الخشب ، واجعل عليها الستور حتى يطوف الناس من ورائها ويصلوا اليها .

ونفذ ابن الزبير مشورة ابن عباس .

ولما تم بناء الكعبة اعتمر ابن الزبير مُحرماً من التنعيم ، واعتمر الناس معه ونحروا واقاموا يَطعمون ويُطعمون شكراً لله على تيسير بناء بيته الحرام ، وكان ذلك في السنة الخامسة والستين من الهجرة .

وظلت الكعبة كما بناها ابن الزبير عشر سنوات ، فلما كان عهد عبد الملك بن مروان وحاصر الحجاج ابن الزبير وقتله ، كتب الى عبد الملك يخبره ان ابن الزبير زاد في الكعبة ما ليس منها واحدث فيها باباً آخر ، ويستأذنه في رد ذلك الى ما كان عليه في الجاهلية ، واذن عبد الملك ،وغيّر الحجاج الجدار الذي من جهة الحجر وسد الباب الغربي ورفع البناء ، ورفع باب الكعبة على

ما كانت في الجاهلية .. ويذكرون ان عبد الملك ندم على اذنه للحجاج ولعنه وقال : وددنا انا تركنا ابن الزبير وما تولى من ذلك .

واذا نظرنا الى الحالة السياسية في الحجاز لما غادره الحجاج الى العراق نرى ان المعارضة فيه قد خنقت حقاً ، فابناء علي بن ابي طالب رضي الله عنه قد سكنوا الى حظهم العاثر ، وانصرفوا الى العناية بالثقافة المعاصرة في عهدهم فبرعوا فيها ، وعائلة ابن الزبير لم تعد لها قائمة ، ولا استقام لها عز ولا سلطان في مقبلات الايام ..

الحـــالة في العراق :

وكان العراق لما عين عبد الملك ..الحجاج بن يوسف عليه في حالة دقيقة من الاضطراب وعدم الاستقرار ، ويظهر لنا ان بشر بن مروان شقيق عبد الملك وحاكم الكوفة لم يكن بالرجل الاداري الحازم ، بحيث يستطيع جمع الشمل ، وتوثيق الاطراف ، وتهدئة النفوس ، والقضاء على الخوارج الذين كانوا لا يبرحون يهددون العراق من معاقلهم في فارس وخراسان ، ويتبسطون في الثغور التي حولهم حتى حدود الهنـــد ، ولا أدلّ على ضيق صدره ، وضعف نفسه ، من رغبته في الاستغناء عن القائد اليمني البــارع المهلب بن ابي صفرة ، وكان عبد الملك قد افضى اليه برغبته في ان يكون المهلب امير الجيش لمحاربة الخوارج ، وكان هو يريد ان يكل هذا الامر الى شخصاً آخر دون المهلب مقدرة وجرأة وبراعة عسكرية ، ولو انه كان من الفطنة والذكاء بالقدر الذي يجب ان يكون معه الحاكم الحكيم ، لما ترك لعواطفه مجالاً للتغلب على عقله ، ولكنه لما رأى تشدد الخليفة في امر المهلب انفذه في جيش ضعيف ، وانفذ عبــد الرحمن بن مخنف في احسن جند الكوفة ، وامره بالاستقلال في رأيه ، وعدم الاخذ برأي المهلب في حروبه وزحوفه .

ولكن امر (بشر) لم يطل ، فما كاد الجيشان يذهبان لقتال الخوارج حتى

جاءهم نعيه ، فنفر كثير من الجند ولحقوا بأهلهم ، فلما رأى ذلك المهلب غضب وارسل الى عبد الملك كتاباً يقول فيه :

« إما ان تبعث لي رجالاً ، او فافتح طريق البصرة للعدو » .

وعندئذ اعتزم عبد الملك ان يرسل الى العراق رجـــلا شديداً قوياً فوقع اختياره على الحجاج فبعثه اليها .

في طريق الكوفة :

سار الحجاج من المدينة الى الكوفة في شهر شعبان من سنة ٧٥ للهجرة ، ومعه اثنا عشر راكباً على النجائب ، فدخلها في رمضان وقد انتشر النهار[١] فبدأ بالمسجد فصعد المنبر ، وهو متلثم بعمامة خز حمراء .

ونظر الناس الى هذا الشاب المتلثم – وكان الحجاج لا يزيد عمره على ٣٣ سنة – وجماعته ، فاستخفوا بهم ، وحسبوهم من الخوارج ، فهموا بهم ، ولكنهم لما رأوا هدوءهم ، وعدم اهتمامهم تريثوا في امرهم ، ليروا مـــا يكون منهم ، فقال الحجاج لاحد اصحابه :

– عليّ بالناس !

فاخذ رجاله يدعون اهل الكوفة للصلاة جامعة ، فاجتمع النـــاس ، والحجـــاج ساكت قد اطال السكوت ، والناس لا يزالون في شك من امره ، حتى لقد فكر احدهم في حصبه ، فلما عجّ المسجد بالناس ، وقف الحجـــاج وكشف عن وجهه وقال :

---

(١) يشك بعض المستشرقين في التاريخ الذي غادر فيه الحجاج المدينة الى الكوفة . ويظهر ان الحجاج غادر المدينة وهو ناقم على اهلها غاضب عليهم ، حتى حمد الله على خروجه منها ، وخلاصه منهم ، وذكر فيما ذكره عند خروجه انه:لولا امر امير المؤمنين له بالكف عنهم لأغلظ لهم ، وجعلهم لا يستقرون في بلدهم .

انا ابن جلا وطلاع الثنـــايا متى اضع العمامة تعرفوني .

« أما والله اني لأحمل الشر محمـله ، وآخذه بفعله ، واجزيه بمثله ، واني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها ، واني لصاحبها وكأني انظر الى الدماء بين العمائم واللحى قد شمرت عن ساقها تشميراً » ...

« ان امير المؤمنين عبد الملك قد نثر كنانته فعجم عيدانها ، فوجدني امرها عوداً ، واصلبها مكسراً ، فوجهني اليكم ورمى بي في نحوركم ، فانكم اهل بغي وخلاف وشقاق ونفاق ، فانكم طالمـــا اوضعتم في الشر ، وسننتم سنن الغي ، فاستوثقوا واستقيموا ، فوالله لأذيقنكم الهوان ، ولاضربنكم ضرب غرائب الابل حتى تذروا العصيان وتنقادوا ، ولأقرعنكم قرع المروة حتى تلينوا ، اني والله مـــا اعد إلا وفيت ، ولا اهمّ الا مضيت ، وان امير المؤمنين أمرني باعطائكم اعطياتكم وان اوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن ابي صفرة ، واني اقسم بالله لا اجد رجلاً تخلف بعد اخذ عطائه بثلاثة ايام إلا ضربت عنقه » .

ثم امر غلامه بقراءة كتاب امير المؤمنين عليهم .

فقرأ غلامه : «بسم الله الرحمن الرحيم . من عبدالله عبد الملك اميرالمؤمنين الى من بالكوفة من المسلمين ، سلام عليكم » ..

فلم يقل احد من الحضور شيئاً ..

فقال الحجاج : اكفف يا غلام ...

ثم اقبل على الناس فقال : يسلم عليكم امير المؤمنينفلا يرد راد منكم السلام، اما والله لأودبنكم غير هذا الادب .

ثم قال للقارىء : اقرأ ، فلما قرأ السلام عليكم قـــالوا باجمعهم : سلام على امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فاذا انتهى الحجاج من خطبته ، دخل منزله ولم يزد على ذلك ، وتفرق الناس وقد اذهلهم تهديده ، واخافتهم جرأته ، فقد

سمعوا منه شيئاً جديداً لا عهد لهم به ، ولا مثيل له في تاريخ ولاة الكوفة الا ما كانوا يسمعونه عن زياد بن ابيه وشدته ، ولكن زياداً ، لم يطاول الحجاج في مثل هذا التهديد والوعيد في كثير ولا قليل ...

وينظر الحجاج في امره فاذا هو امام امر داهم ، ارسال الناس الى المهلب مخافة ان يدهمه من الخوارج ما لاقبل له به ، فيدعو العرافين اليه ويأمرهم بالحاق الناس بالمهلب ، وان يأتوه بالبراءة بموافاتهم ، وامر بفتح الجسر فلا تغلق ابوابه ليلاً ولا نهاراً .

ويصف لنا المبرد [1] اجتماع الحجاج الى وجوه اهل الكوفة بعد الخطبة ، وسؤاله اياهم : ما كانت الولاة تفعل بالعصاة ؟

فقالوا : كانت تضرب وتحبس .

فقال الحجاج : ولكن ليس لهم عندي الا السيف ، ان المسلمين لو لم يغزوا المشركين لغزاهم المشركون ، ولو ساغت المعصية لاهلها ما قوتل عدو ، ولا جبي فيء ، ولا عزّ دين .

ثم جلس لتوجيه الناس الى المهلب وابن مخنف ، وقال للناس :

– قد اجلتكم ثلاثاً ، واقسم بالله لا يتخلف احد من اصحاب ابن مخنف بعدها ، ولا من اهل الثغور الا قتلته .

ثم قال لصاحب حرسه وصاحب شرطته :

– اذا مضت ثلاثة ايام فاتخذا سيوفكما عصياً ...

فجاءه عمير بن ضابيء البرجمي بابنه وقال :

– اصلح الله الامير ، ان هذا انفع لكم مني ، وانا في هذا البعث ، ولكني كبير عليل ، وابني هذا انسب مني .

---

(١) الكامل للمبرد

فقال الحجاج : ان عذرك لواضح وان ضعفك لبين ، ولكني اكره ان يجترىء بك الناس علي ، وبعد فانت ابن ضابىء صاحب عثمان ، ثم امر بــه فقتــل .

فاحتمل الناس انفسهم ، وان احدهم ليتبعه اهله بزاده وسلاحه ، وازدحم الناس على الجسر ، وخرج العرفاء الى معسكر المهلب فاخذوا كتباً بوصول الناس اليه

الحجاج في البصرة :

وفي اواخر هذه السنة ٧٥ للهجرة ، خرج الحجاج من الكوفة الى البصرة ، فخطب اهلها وتوعدهم بمثل ما توعد به اهل الكوفة ، وتوعد من رآه منهم بعد ثلاثــة لم يلحق بالمهلب ، فجاءه رجــل يعتذر بمرضه فضرب عنقه ، فلم يبق بالبصرة احد من عسكر المهلب إلا لحق به ، وتتابع الناس مزدحمين اليه ، حتى كثر جمعه .

وخرج الحجاج الى (رستقا باز) وبينها وبين المهلب ثمانية عشر فرسخاً ، وانما اراد ان يشد ازر المهلب واصحابه بمكانه منهم .

ثم خطب يوماً فقال : ان الزيادة التي زادكم اياها ابن الزبير انمــا هي زيادة مخسر باطل ملحد فاسق ، ولسنا نجيزها .

وكان مصعب بن الزبير قد زاد الناس في العطاء مائة مائة ، فقال عبــدالله بن الجارود :

— انها ليست بزيادة ابن الزبير ، انما هي زيادة امير المؤمنين عبد الملك قــد انفذها واجازها على يد اخيه بشر .

فقال له الحجاج : ما انت والكلام ... لتحسنن حمل رأسك والا لاسلبنك اياه ...

فقال : ولمَ ؟ فاني لك لناصح وان لهذا القول من يؤيده .

فسكت الحجاج عن الزيادة شهراً ،ثم اعاد القول فيها فردّ عليه ابن الجارود مثل رده الاول .

واخذ بعض رجالات العراق يؤيدون ابن الجارود ويبايعونه سراً على اخراج الحجاج من العراق ، ثم الكتابة الى عبد الملك ليولي امورهم غيره ، واظهر ابن الجارود وجماعته امرهم في ربيع الآخر من سنة ٧٦ للهجرة ،وكان الحجاج قد علم بخبرهم فاستعد لهم ، ولكنه كان قليل الرجال ضعيف الاعوان فلم يكن بطوقه والحالة هذه ان يحارب القوم وقد ثاروا جميعاً ضده ، وكان الثائرون في الوقت نفسه لا يريدون قتله ، وانما اخراجه من العراق ، والخلاص من ظلمه وشدته ، ولكن الحجاج صمد لهم وابى مغادرة العراق، وراح يتحايل ليجمع الناس حوله ، حتى تمكن من ضم بعض العراقيين اليه فحارب بهم ابن الجارود وجماعته فغلبهم ، وقبض على رجال الثورة فقطع رؤوسهم ، وارسلها الى المهلب لتكون نذيراً الى كل من تحدثه نفسه بالثورة والعصيان .

ثورة عراقية :

والواقع ان ثورة ابن الجارود كانت ثورة من رجالات العراق وزعمائها على الحجاج ، فقد أساء اليهم وامتهنهم ، واغرق في ايذائهم واحتقارهم ، ثم راح يحاول تخفيض مخصصاتهم من بيت المال ، فثاروا عليه ، وحاولوا اخراجه من العراق دون ما حرب ولا قتال ، لانهم في الواقع لم يكونوا يريدون غير الخلاص منه ، لا الثورة على الخليفة القائم ، وكانوا يظنون انهم اذا تمكنوا من اخراج الحجاج عنهم فان امير المؤمنين لا بد ان يبعث لهم غيره .. ويبدلهم خيراً منه .

ولكن الثائرين لم يكونوا اهل خبرة كما يظهر في اغتنام الفرص السانحة ،فان حرصهم على سلامة الحجاج ، واخراجه من العراق فحسب، جعلهم لايسرعون في مهاجمته،ولو فعلوا لكان للحجاج في العراق غير هذا التاريخ الذي نرويه عنه اليوم.

- ١١ -

الخوارج في عهد عبد الملك بن مروان

المهلب بن ابي صفرة وحروبه معهم

الخوارج في العراق :

فرقة خلقتها معركة صفين ، وجماعة كانوا من انصار علي بن ابي طالب في حربه مع معاوية ، فلما رضي علي بالتحكيم نقموا عليه وانكروا التحكيم على نحو ما وصفناه قبلا ، ثم راحوا يحاربون عليا في معركة النهروان ، ويعيثون فساداً في الارض ، حتى قتل علي وظهر معاوية واستتب له الامر.. فشدّد عماله عليهم الخناق ، خصوصاً زياد وابنه اميرا العراق ، فسكتوا على مضض وهدأت ثوراتهم بعض الشيء ، وان كانت لم تنقطع كل الانقطاع ..

فلما اضطربت الحالة السياسية في الدولة العربية بعد موت يزيد بن معاوية واعتزال معاوية الثاني ابنه الخلافه ، وثار عبد الله بن الزبير في مكة اواخر ايام يزيد بن معاوية ، ولما كان الخوارج يقولون بوجوب محاربة الامام الجائر ، فقد راحوا يساعدون ابن الزبير ، يوم ارسل له يزيد بن معاوية جنداً لقتاله

وحربه ، وذلك لاعتقادهم الجور في يزيد وضرورة حربه وقتـاله ، وظلوا مع ابن الزبير حتى مات يزيد وانجلى جيشه عن مكة ، فراحوا عندئذ يسألون عبد الله بن الزبير عن آرائهم ومعتقداتهم وموقفه منها ، فلما رأوه لايؤيدهم ويخالفهم تركوه وشأنه ، وانصرفوا عنه .

وتاريخ الخوارج فيه من الطرافة ما ليس في تاريخ جمـاعة ثائرة سواهم ، كانوا من اخلص الناس لعقيدتهم ، ومن ابسل الناس في الدفـاع عنها ، ومن أصرح الناس وأصدقهم ، ولكنهم كانوا من السذاجة بالمكان الارفع ،فعقائدهم ساذجة ، وسبيلهم في دعوة الناس اليها لا يحتمل المواربة والالتواء ، فهم بدو ما في ذلك شك في اخلاقهم وحروبهم ومذاهبهم ، ولما اختلفوا فيما بينهم كما سيأتي تفصيله ... كان اختلافهم ظاهر البساطة ، بادي السذاجة .

ومن اهم فرقهم الازارقة،وكانوا من امنعم واشدهم بأساً ومراساً ، وزعيمهم نافع بن الازرق يقال انهمن بني حنيفة اصحاب مسلمة...او انه كانمقيماً معهم فنسب اليهم ، وكان يكنى ابا راشد .

وفي عهد ابن زياد ، كان نافع في حبسه مع زملاء له من الخوارج في رواية ضعيفة ، فلما مات يزيد بن معاوية خرج من الحبس مع اربعمائة من الخوارج ، فافسدوا الناس على ابن زياد ، فتحول الى الأزد مستجيراً بهم ، واقبلالخوارج يأتون (المربد) كل يوم ، فيقفون به ، ويعيبون الظلم،ويدعون الى قتالالسلطان والجبابرة ، وكان (المربد) لايزال كزميله السابق سوق عكاظ مركز الحركة الادبية والتجـارية في العراق ، وليس للخوارج رأس منهم ، ثم أمرّوا عليهم نافع بن الازرق وكان لسناً بارعـاً صبوراً عـلى المنازعة ، وكان نافـع في رواية اخرى ممن دافع عن مكة مع عبدالله بن الزبير في حياة يزيد بن معاوية فلما اختلفوا تفرق الخوارج فسار جماعة الى اليمامة وطائفة الى البصرة ، وكان فيمن سار الى البصرة نافع بن الازرق وبنو الماحوز – وهم الزبير وعثمان وعلي وعبد الله وعبيدالله بنو بشير بن يزيد المعروف بالماحوز وهم من بني تميم وكلهم

كانوا زعماء بين الازارقة — فلما صاروا الى البصرة نظروا في امورهم ، فأمرّوا عليهم نافعاً ، فمضى بهم الى الاهواز — وهي ولاية كبيرة بين البصرة وفارس — في سنة اربع وستين فاقاموا بها لايهيجون احداً ، ويناظرهم الناس ، وليس بينهم اختلاف ، وهم لا يزيدون عن ثلاثمائة وخمسين رجلا ، وفيهم نجدة بن عامر من بني حنيفة ، وبنو الماحوز من تميم .

اختلاف الخوارج :

وكان سبب خروجهم الى الاهواز ما ذكرناه سابقاً من خروج اربعمائة رجل من الخوارج من السجن بعد موت يزيد بن معاوية، وافسادهم البيعة على ابن زياد ، وقاموا بين الناس يدعون الى محاربته ، مما دعا زياداً الى التحول عن دار الامارة ملتجاً الى الأزد ، ونشأت الحرب بسببه بين الأزد وربيعة وبين بني تميم ، فاعتزل الخوارج المختلفين ورحلوا الى الاهواز ، ولم يعودوا الى البصرة ، وطردوا عمال ابن زياد ، وجبوا الفيء ، ولم يزالوا على رأي واحد يتولون اهل النهر ، ومعهم مرداس ومن خرج معه ، سائرين على سيرة هذا السلف من الخوارج حتى جاء مولى بني هاشم الى نافع فقال له :

— ان اطفال المشركين في النار ، وان من خالفنا مشرك ، فدماء هؤلاء الاطفال لنا حلال .

فقال نافع : كفرت ..

فقال له: إن لم آتك بهذا من كتاب الله فاقتلني: «قال نوح: رب لا تذر على الارض من الكافرين دياراً، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجراً كفارا».

فمال نافع الى مقالته ، وذكر صاحب الاغاني سبباً آخر لتبدل مذهب نافع ، فيقول : ان نافعاً لما قام بسوق الاهواز لا يعترض الناس قالت له امرأته :

ان كنت قد كفرت بعد ايمانك وشككت فيه فدع نحلتك ودعوتك،

وان كنت قد خرجت من الكفر الى الايمان فاقتل الكفار حيث لقيتهم، واثخن في النساء والصبيان ... وذكرت آية نوح، فقبل قولها واستعرض الناس، وبسط سيفه فقتل الرجال والنساء والولدان ، وقال : انهم ككفار العرب لانقبل منهم إلا الاسلام - على مذهب الخوارج - او السيف ، وهنا ظهر الاغراق في المذهب الخارجي اذ اعتبروا انفسهم المؤمنين المسلمين وحدهم ، واعتبروا غيرهم ممن لا يؤيد مقالتهم في النظام السياسي مشركاً ، وهذا منتهى السخف والتطرف .

وبرىء نافـع من القاعدين عن القتال واستحل قتلهم متأولاً الآية :

« وقعد الذين كذبوا الله ورسوله . »

وقال : إن من تخلف عن القتال من الخوارج لا نجاة له ، ودعا اصحابه الى البراءة منهم ، وانه لا يحل لهم منـــاكحتهم ، ولا اكل ذبائحهم ، ولا يجوز قبول شهادتهم ، واخذ علم الدين منهم ولا يحل ميراثهم ، ورأى قتل الاطفال، فاجابه الى ذلك بعضهم وفارقه البعض الآخر .

وكان ممن خالفه (نجدة) وقال : « المقام في دار الكفر حلال » وصار الى اليمامة مع بعض اصحابه ، وبرىء من نافع بن الازرق وجماعته .

وكتب نجدة الى نافع كتاباً يدعوه فيه الى معاودة ما كان من قوله الاول، وقال له : لقد قعد على عهد رسول الله قوم ولم يحـاربوا معه فلم يكفروا . . فرفض نافع الاخذ برأيه ، وكتب الى عبدالله بن الزبير يدعوه الى امره ، ويقول له : انك تتولى عثمان وكان ابوك وعلي وطلحة اشدّ الناس عليه ، حتى قتل ، وانت تتولى اباك وطلحة، فكيف تجتمع ولاية قاتل ومقتول في دين الله، فاتق الله الذي اليه المصير ، ولا تتول الظالمين .

وكتب نافع الى من بالبصرة من الخوارج يدعوهم الى الجهاد ويرّغبهم فيه ، ويحذرهم الدنيا وغرورها ، وينهاهم عن القعود ، فاختلف الخوارج فيما بينهم بكتابه ، وكتب عبدالله بن اباض ، والصُفرية - وقد سموا بذلك كما يقـــال

لصفرة وجوههم – الى نافع ينكرون عليه قوله وشهادته على القاعدين منهم عن القتال بالكفر ، واستحلال المال قبل الحرب ، وقتل الاطفال ، فلم يرجع نافع عن مقالته ، وظل قوم من الخوارج على ولائه ..ثم استولى على الاهواز ، واشتدت شوكته ، وكثرت جموعه ، واخذ يعترض الناس ويقتل الاطفال ، فاذا أجيب الى مذهبه جبى الخراج ، وفشا عماله في السواد ،فقرر المضي الى البصرة برجاله لعله يوفق هذه المرة الى الاستيلاء عليها ، واستباحة اهلها .

وكان اهل البصرة لما رأوا من ابن الازرق هذه الآراء ، وما يقوم به من اعتراض النـــاس وقتل الاطفال ، وكيف ان امره يفشو ويتضخم ، ارتاعوا لذلك ، واجتمعوا الى الاحنف بن قيس وقالوا له :

- ليس بيننا وبين العدو إلا ليلتان وسيرتهم ما ترى .

فقال الاحنف :

– ان فعلهم في مصركم انظفروا بكم كفعلهم في سوادكم ، فجدّوا في جهاد عدوكم ..

فاجتمع اليه عشرة آلاف مقاتل اختير لقيادتهم سليم بن عبيس بن كريز وكان ديناً شجاعاً ، فقاد الناس ،وسار بهم حتى وصل (دولاب)..وهناك قابله الخوارج فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى تكسرت الرماح وعقرت الخيل ، وكثرت الجراح والقتلى ، وتضاربوا بالسيوف والعمد ، حتى قتل ابن عبيس قـــائد البصريين ... وقتل نافع بن الازرق زعيم الخوارج .

ويذكر البلاذري في انساب الاشراف : ان ابن كريز لما خرج بالناس لحرب الخوارج خطبهم قائلاً :

– ايها الناس انا لسنا نخرج بالذهب ولا بالفضة ، وانما نسير الى قوم ان ظهرنا عليهم كانت غنائمهم اطراف الاسنة ، وانما يُقدِمون على الموت ، ويَلْقَوْن المنايا ، فمن احب المضي ، فليمض ، ومن كرهه فلينصرف من قريب» .

فتفرق عنه جماعة ، وخرج فيمن بقي معه ، فلقي نافعاً بالاهواز ونافع في ستمائة ، فحاربه وقتله ، وقتل ابن كريز في المعركة ايضاً ، وقد وقعت معركة دولاب هذه سنة ٦٥ للهجرة ..

ابن الماحوز :

وبايع الخوارج بعد نافع عبدالله بن الماحوز ، فأقام بالاهواز هو واصحابه ثلاثة اشهر ، وهاج الناس بالخوارج ، وكتب اهل البصرة الى ابن الزبير بأمر الخوارج وكيف ان عاملهم لا يحاربهم ، فولى ابن الزبير البصرة عمر بن عبدالله ابن معمر ، وندب عمر لقتال الخوارج اخـــاه عثمان ، وبلغ الخوارج امره ، فأقبلوا من الاهواز يريدون البصرة، فسار اليهم عثمان في عشرة آلاف من اهلها ويقال في اثني عشر الفاً ، ولم يحسن الحيلة معهم ، فقاتلوه وقتلوه ، وذلك في شهر ذي القعدة من سنة ٦٥ ، وعاد الخوارج الى الاهواز لا يخافون احداً ولا يخشون شراً ..

وكان من اسباب فشل هذا الجيش ما يذكره صاحب الكامل ، من انه لما عبر الجيش نهردجيل الى الخوارج، نهض اليهم الخوارج وذلك قبيل الظهر، فقال عثمان قائد الجيش لحارثة بن بدر وقد استقل الخوارج :

ـ أما الخوارج إلا ما أري .

فقال له حارثة : حسبك بهؤلاء .

فقال : لا جَرَمَ والله لا اتغدى حتى اناجزهم .

فقال حارثة : ان هؤلاء لا يُقاتَلون بالتعسف فابق على نفسك وجندك .

فقال عثمان : ابيتم اهل العراق إلا جبناً ، وانت يا حارثة ما علمك بالحرب انت والله بغير هذا اعلم ـ يعرّض له بالشراب ـ ..

فغضب حارثة فاعتزل ، وحاربهم عثمان يومه الى ان غابت الشمس فأنجلت

الحرب عنه قتيلاً وانهزم الناس ، واخذ حارثة الراية وصاح بالناس : انا حارثة ابن بدر ... فثاب اليه قومه ، فعبر بهم دجيلاً ، وبلغ قتل عثمان البصرة ، فخاف الناس الخوارج خوفاً شديداً ، وكتبوا الى ابن الزبير بما جرى من الفشل وخطر الخوارج القريب .

المهلب :

واقام ابن الماحوز وانصاره يجبون ما حولهم الى الفرات ، وكان ابن الزبير قد عزل عمر بن عبيدالله عن البصرة، وولى مكانه القباع الحارث بن عبد الله بن ابي ربيعة ، فأتى الاحنف بن قيس القباع ، وشكا اليه ما الناس فيه فقال :

- اشيروا علي بمن اولي حربهم ..

فلم يروا لامر الخوارج الا المهلب بن ابي صفرة ،فكلموه بذلك فقبل حربهم شرط ان تكون له ولاية ما غلب عليه ، وان يُعطى من بيت المال ما يقوى به معه ، وان ينتخب من وجوه الناس وفرسانهم من يريد ، فأجابوه الى ذلك فانتخب المهلب من اهل البصرة اثني عشر الفاً من جميع النـــاس ، وعسكر بالجسر ، واخذ ما في بيت المال من الاموال ، واعان التجار والناس المهلب ، واتخذ ألوية ورايات ، وقـاتل الخوارج فهزمهم وكسرهم كسرة منكرة ، ثم قام الى نهر (تيري) بناحية الاهواز فاجلى الخوارج عن ما حوله ، واقام يجبي ما حواليه من الكور ، وكتب بالنصر الى امير البصرة القباع ..

ودسّ المهلب الجواسيس الى عسكر الخوارج فأتوه بأخبارهم ومن في عسكرهم - وهذا من حسن السياسة وروائع المكيدة في الحرب - فاذا هم من رعاع الناس ما بين قصاب وصبـاغ وخبيث مفسد وحداد ، فخطب المهلب الناس فذكر من هناك وقال لهم : امثل هؤلاء يغلبونكم على فيئكم .

ومـــا زال المهلب في مكانه حتى احكم امره ، وقوى اصحابه وكثرت فرسانه ، وانتمى اليه زهـــاء عشرين الفاً ، ثم مضى يؤُم سوق الاهواز وفي

مقدمته المغيرة بن المهلب ابنه حتى قارب الخوارج، فناوشوه، فانكشف عنه بعض اصحابه ، وثبت المغيرة بقية يومه وليلته يوقد النيران ، ثم غاداهم القتال فاذا هم قد ارتحلوا عن سوق الاهواز فدخلها المغيرة ، وجاءت اوائل خيل المهلب ، فأقام بسوق الاهواز ، وكتب بالنصر الى امير البصرة عبدالله بن ابي ربيعة ..

وكان المهلب يبث الاحراس -الحراس- في الامن..اي حين لا يكون حرب كما يبثهم في الحرب ، ويذكي العيون في الامصار كما يذكيها في الصحاري، ويأمر اصحابه بالتحذر حتى لا يهاجمهم الخوارج بغتة وهم غافلون ، وان بعد عنهم العدو ، ويقول : احذروا ان تكادوا كما تكيدون ، ولا تقولوا هزمناهم وغلبناهم ، والقوم خائفون وجلون .. فان الضرورة تفتح باب الحيلة » .

وكان عبيد الله بن بشير بن الماحوز رئيس الخوارج قد وجه خمسين من اصحابه الى نهر تيرى وبها المعارك بن ابي صفرة نائباً عن المهلب فيها ، فقتلوه وصلبوه ، فنمي الخبر الى المهلب فوجه ابنه المغيرة فدخل نهر تيري ، وقد غادرها الخوارج ، فدفن المعارك وسكّن الناس ورجع الى ابيه وقد حل بسولاف - وهو غربي دجيل وقرب مناذر الكبرى - والخوارج بها ، فقاتلهم ومال الخوارج باجمعهم على عسكر المهلب فانهزم الناس ، وقتلوا سبعين رجلاً وثبت المهلب ، وابلى المغيرة يومئذ بلاء حسناً وعرف مكانه ، وبات المهلب ليلة هذه المعركة في الفين فلما اصبح رجع بعض المنهزمين فصار في اربعة آلاف فخطب اصحابه فقال :

- والله ما بكم من قلة ، وما ذهب عنكم إلا اهل الجبن والضعف والطمع واصحاب الاوزار ، فان يمسسكم قرحٌ فقد مسّ القوم قرح مثله فسيروا الى عدوكم على بركة الله .

ثم ارتحل المهلب الى حيث كان الخوارج في سلىّ وسلبري وهما موضعان

بالاهواز فنزل قريباً منهم ، ثم كانت المعركة الرهيبة التي حمل فيها الخوارج حملة واحدة على معسكر المهلب كما فعلوا في سولاف ، فضعضعوا النـــاس ، وثبت المهلب وابنه المغيرة في جمع اكثرهم من اهـــل (عُمان) ، ثم انكفأ الجيشان الواحد عن الاخر ،وأمر المهلب اصحابه بان يعدوا الحجارة ويرموا بهـــا في وقت الغفلة ، فانها تصد الفارس ، وتصرع الراجل ففعلوا ،وطال القتـــال الى المساء ،وابلى جيش المهلب بلاء حسناً حتى اذا كان المساء قتل ابن الماحوز زعيم الخوارج وانصرف الخوارج الى ارجان وهي مدينة كبيرة بينهـــا وبين سوق الاهواز ستون فرسخاً ..

وكتب المهلب بالنصر الى امير البصرة ، فكتب اليه هذا وهو (القباع) :

« قد قرأت كتابك يا اخا الازد ، فرأيتك قد وهب الله لك شرف الدنيا، وعزّها ، وذخر لك ثواب الاخرة انشاء الله واجرها ، ورأيتك اوثق حصون المسلمين ، وهادّ اركان المشركين واخا السياسة وذا الرئاسة »

وكتب اليه اهل البصرة يهنئونه ، وبعث اليه الاحنف رسالة شفهية يقول له فيها : انا لك على ما فارقتك عليه ...

وكان مقتل عبيدالله بن الماحوز زعيم الخوارج في شوال سنة ٦٦ هجرية ، وكان امره ستة عشر شهراً ، وبايع الخوارج بعده الزبير بن علي المـــاحوز ، وكتب المهلب بالنصر الى عامل ابن الزبير على البصرة ..

وجزع الخوارج لمقتل زعيمهم، عبيـــد الله بن الماحوز ، وظهر الانكسار والضعف فيهم ، فشدّد الزبير بن الماحوز قلوبهم ، وقال لهم : لقد اصابوا منكم واصبتم منهم ، وقد اشجيتم المهلب وقتلتم اخاه (المعارك) ، ثم تحمس لمحـــاربة المهلب فرده هذا ، فا كمن له فلم يوفق ، فيئس من ناحيتـــه وضرب الى ناحية اصبهان ، ثم كرّ راجعاً الى ارجان وقد جمع جموعاً ، وكان المهلب قد استعد لهم وكأنه ينتظرهم ، فلما جاءوه الفوه مستعداً اخـــذاً بافواه الطرق فحاربوه

فظهر عليهم ظهوراً بيناً .

ولم يزل المهلب يقاتل الخوارج في ولاية الحرث القباع حتى عُزل القباع سنة ٦٧ ، وولى مصعب ابن الزبير، فكتب الى المهلب بالقدوم عليه فقدم واستخلف ابنه المغيرة على حرب الخوارج وقال لاصحابه :

ـ انكم لا تفقدوني ما كان المغيرة عليكم ، فانه ابو صغيركم في الشفقة ، وابن كبيركم في البر والطـــاعة ، فلتحسن طاعتكم له ، فمـا اردت صواباً قط الا سبقني اليه .

واقبل المهلب الى العراق فشهد مع مصعب حرب المختار بن عبيدالله وتمزق امره ، وانهيار سلطانه، ثم ولى مصعب المهلب بن ابي صفرة على الموصل والجزيرة وارمينية واذربيجان فشخص المهلب اليها ، وصار مصعب الى البصرة يبحث عن شخص يوليه امر الخوارج حولها ، فوقع اختياره على عمر بن عبيد الله بن معمر ، وكان كما يقول الخوارج فيه : « بطلاً شجاعاً فارساً جاداً يقاتل لدينه وملكه ، ماتودي بحرب إلا كان اول فارس يطلع » ، وقد ولاه مصعب فارس .. والخوارج بارجان وعليهم الزبير بن علي ، فشخص اليهم فقاتلهم وألحّ عليهم حتى اخرجهم منها فالحقهم باصبهان .

ولما علم المهلب بتولية مصعب عمر بن عبيد الله قال : رماهم بفارس العرب وفتاها . وجمع الخوارج لعمر بن عبيدالله واستعدوا وأتوا سابور ـ وهي كورة مشهورة بارض فارس ـ فسار اليهم ، وحاولوا مهاجمته ليلاً فلم يوفقوا وظهر عليهم ، ثم زحف على الخوارج عند ذلك اليوم فقاتلهم قتالا شديداً وقتل ابنه في هذه المعركة فلما عرف بقتله حمل على الخوارج حملة لم يُرَ مثلها وحمل اصحابه بحملته فقتلوا في وجوههم تسعين من الخوارج ، وحمل على قَطَرِي فضربه على جبينه ففلقه وانهزمت الخوارج ، وخرجوا من فارس ثم عادوا الى ناحيـــة ارجان فقاتلهم عمر بن عبيد الله حتى هزمهم ، وحمل عليه اربعة عشر من

شجعانهم ، وفي يده عمود ، فجعل لا يضرب رجلاً منهم ضربة إلا صرعه ، فارتد الخوارج مرة اخرى الى اصبهان ، وكانوا في الواقع لا يستقرون في مكان معين ، وارتحل عمر بن عبيدالله الى اصطخر ، ثم رجع الخوارج الى الاهواز بعد ان سار عمر بن عبيدالله الى اصطخر . . . فعاد اليهم المهلب فحاربهم واخرجهم من الاهواز ، وتتابعت الحوادث والخوارج لا يزالون يعيثون فساداً في الارض ، والقواد الذين يتداولون على حرب الخوارج ليسوا في حزم المهلب العسكري ودهائه وجرأته وبسالته ، حتى هددوا الكوفة وقتلوا النساء والاطفال وجبوا الخراج .. فلم ير اهل العراق بداً من ان يطلبوا الى مصعب ارجاع المهلب لقتالهم فعاد المهلب اليهم وتلاقى بهم وعلى رأسهم قطري بن الفجاءة ودار القتال بينه وبينهم ثمانية اشهر صمد لهم المهلب فيها صموداً قوياً شديداً .

ثم يقتل مصعب بن الزبير ، ويصفو الجو لعبد الملك بن مروان ، فيولي خالد بن عبدالله بن اسيد البصرة ، فيصرف هذا المهلب عن حرب الخوارج ، ويرسل اخاه لحربهم ، فيهزمه الخوارج هزيمة منكرة ، فيغضب عبد الملك ، ويكتب الى عامله يؤنبه ويقبح رأيه في ابعاد المهلب ويأمره باسناد حربهم اليه ، فيعود المهلب الى حرب الخوارج سنة ٧٢ للهجرة والحرب سجال بينه وبينهم .

ويبعث عبد الملك بالحجاج الى العراق ليعمل مع المهلب للقضاء على الخوارج ، فيأتي الحجاج الى العراق كما قدمنا ، ويأخذ الناس بالشدة ، ويبعثهم الى مساندة المهلب في حروبه وزحوفه ، وقد عرفنا شأن الحجاج فمن هو المهلب ؟؟

المهلب بن ابي صفرة :

كان ابو صفرة والد المهلب من الاعراب الذين نزلوا البصرة في عهد الخليفة الاول ابي بكر الصديق ، وولد له المهلب بها فرباه تربية عالية ، فظهر بين الناس سيداً نبيلاً وفارساً مغواراً وشجاعاً مقداماً ..

وظهر المهلب بين الناس كرجل حرب وكفاح ، يحسن الادارة ، ويحسن الزحوف والهجوم ، حتى لقد اعجز الخوارج وضايقهم ، ولم يمكنهم من نفسه وجنده ، وكان في وقائعه معهم يحكم تدبير حركات الجيوش ، ويخندق عليهم، ويضع المسالح [1] ويذكي العيون ، ويقيم الاحراس ،ولا ينزل بلداً او يعسكر في مكان الا وعسكره على ترتيبهم ومصافهم ، وقواه على راياتهم ، والموكلون بالحرب على ابواب الخنادق وافواه الطرق .

وكان الخوارج اذا أرادوا ان يبيتوه او يهاجموه ، وجدوا أمره محكماً فلم يقاتلهم انسان قط كان أشد عليهم ولا أغيظ لقلوبهم منه ، كادهم بالحيل ، ومزّق جموعهم بالحروب ، وكان يساعده في تلك الوقائع بنوه الابطال وكلهم على غراره بأساً وقوة وجرأة ، ولبث يقاتل الخوارج هو وبنوه وجنوده زهاء اثنتي عشرة سنة ، حتى شتت شملهم ، وكان الحجاج اثناء ذلك يرسل اليه الرسل اثر الرسل ليستحثوه بالقتال ، ويبعث اليه بالكتب تلو الكتب يثير بها حميته،ويهيجه بقوارص الكلم،فما كان يزيد على ان يفرق الرسل مع بنيه في الجنود ليشاهدوا قتالهم مع الخوارج ، فكان بعض الرسل يقتلون ، وبعضهم يهربون من هول الحرب ، وكانت اجوبته على كتب الحجاج ان: «سل رسلك يخبروك كيف نقاتل الخوارج ويقاتلوننا » وكان الرسل يرجعون الى الحجاج ويقولون له:
— رأينا قوماً لا يعين عليهم إلا الله ..

وأغلظ الحجاج القول للمهلب ذات مرة في كتاب كتبه يأمره فيه في آخره أن يلقي الخوارج يوم كذا في مكان كذا ، والا اشرع اليه صدر الرمح .. فاغلظ له المهلب في الجواب ، وكتب في اخره :

« وزعمت اني ان لم القهم يوم كذا في مكان كذا ... اشرعت اليّ صدر

(١) الفرقة التي يوكل اليها امر تدبير الاسلحة الحربية والذخائر والمؤن والنقليات وغيرها ...

الرمح . فلو فعلت لقلبت اليك ظهر الجن والسلام »

وفي بعض المرات وجه اليه الجراح بن عبد الله يستبطئه في مناجزة القوم وكتب اليه :

« اما بعد فانك جبيت الخراج بالعلل ، وتحصنت بالخنادق ، وطاولت القوم ، وانت اعز ناصراً ، واكثر عدداً ، ولا اظن فيك مع هذا معصيةولا جبناً ، ولكنك اتخذت عذراً وكان بقاؤهم ايسر عليك من قتالهم ، فناجزهم وإلا انكرتني والسلام »

فقال المهلب للجراح :

« يا ابا عقبة ، والله ما تركت حيلة الا احتلتها ، ولا مكيدة الا عملتها ، وما العجب من ابطاء النصر وتراخي الظفر ، ولكن العجب ان يكون الرأي لمن يملكه دون من يبصره . »

ثم ناهض الخوارج يغاديهم القتال الى الرواح،امام عين الرسول ، فينصرف اصحابه وبهم قروح ومنهم قتلى . . .

فقال للرسول : كيف رأيت ؟

قال : قد اعذرت .

وكتب المهلب الى الحجاج :

« اتاني كتابك تستبطئني في لقاء القوم ، على انك لا تظن بي معصية ولا جبناً ، وعاتبتني معاتبة الجبان ، واوعدتني وعيد العاصي ، فأسأل الجراح والسلام .»

فقال الحجاج للجراح : كيف رأيت أخاك ؟

قال : والله ما رأيت ايها الامير ، مثله قط . ولا ظننت ان احداً يبقى على مثل ماهو عليه ، شهدت اصحابه اياماً ثلاثـــة ، يغدون الى الحرب ، ثم

ينصرفون عنها ، يتطاعنون بالرماح ، ويتضاربون بالسيوف ، ويتخـــابطون بالعمد ، ثم يروحون كأن لم يصنعوا شيئاً .

فقال الحجاج : لشد ما مدحته ، ابا عقبة !

قال : الحق اولى .

وكان الخوارج يسمون المهلب الساحر : لانهم كانوا يدبرون الامر فيجدونه قد سبق الى نقض تدبيرهم ، وكانوا يسمونه الاعور لانه أصيب بعينه في غزوة سمرقند مع سعيد بن عثمان بن عفان في خلافة معاوية سنة ٥٦ .

وكانوا يسمونه الكذاب: لانه كان فقيهاً ، وكان يعلم ما جـاء عن رسول الله ﷺ من قوله : كل كذب يكتب كذباً ، إلا ثلاثة ... الكذب في الصلح بين الرجلين ، وكذب الرجل لامرأته يعدها ، وكذب الرجل في الحرب يتوعـد ويتهدد . وقوله عليه الصلاة والسلام : انما انت رجل فخذِّل عنا..فانما الحرب خدعة ، وغير ذلك .

فكان المهلب ربما صنع الحديث ليشد به من امر المسلمين ، ويضعف من امر الخوارج . وليس المراد من وضع الاحاديث عن النبي ﷺ ، بل المراد احاديث الحرب لتخذيل الاعداء .

وهو مخترع الرُكب الحديدية ، وكانت الركب تصنع من الخشب ، فكان الرجل يعتمد على الركاب منها في الضرب والطعن فينقطع فيبقى بلا معتمـد ، فأمر المهلب فضربت من الحديد .

ولما انتهى المهلب من امر الخوارج وجه الى الحجاج كعب ابن معدان الاشقري ليبشره بالانتصار عليهم وتمزيق شملهم .

فاقبل عليه الحجاج وقال له ، في حديث طويل :

— اخبرني عن بني المهلب .؟

قال : «المغيرة» فارسهم ، وكفى «بيزيد» فارساً شجاعاً ، وجوادهم «قبيصه»

ولا يستحي الشجاع ان يفر من « مدرك » ، و « عبـــد الملك » سم ناقع ، و «حبيب» موت زعاف ، و «محمد» ليث غاب ، وكفاك «بالمفضل» نجدة .

ولما جمع عبد الملك بن مروان الى الحجاج خراسان وسجستان والعراق ، استعمل الحجاج المهلب على خراسان ، فلم يزل والياً عليها حتى ادركته الوفاة سنة ٨٢ .

ثم استقدم الحجاج المهلب وأجلسه بجانبه ، واظهر اكرامه وبره ، وقال :

– يا اهل العراق ، انتم عبيد المهلب .

قال ذلك لانــه لولا المهلب لاستولى الخوارج على العراق ، ولولاه لسقطت البصرة في ايديهم ، ولذلك تسمى البصرة بصرة المهلب .

وكان للمهلب كلمات لطيفة واشارات مليحة تدل على مكارمه ورغبتــه في حسن السمعة والثناء الجميل ، فمن ذلك قوله :

« الحياة خير من الموت . والثناء الحسن خير من الحياة . ولو أعطيت ما لم يعط احد لاحببت ان تكون لي اذن اسمع ما يقال بها ما يقال فيّ غــــداً اذا مت ... »

المهلب والخوارج :

ولقد عرضنا الى اول حروب المهلب مع الخوارج ..ويوم خرج الى الازارقة بجيشه وكانوا قد انتهوا الى الجسر الاصغر وعليهم عبيد الله ابن المـــاحوز ، فحصلت بين الفريقين معارك متعددة تمكن المهلب في آخرهـــا من دفعهم نحو الاهواز ،وقد ضاق صدر الخوارج ذرعاً بالمهلب اذ كان لا يمكنهم من نفسه ولا جيشه كما قدمنا ، فهو ابداً على استعداد لملاقاتهم ومحاربتهم ، وقد حدث ان ارادوا مهاجمته ليلاً في احدى المعارك التي حدثت في سنة ٦٥ للهجرة ،فارسلوا الى جناحه الايسر عبيدة بن هــلال ، وذهب الى جنـــاحه الايمن.. الزبير

بن الماحوز ، ومع كل منهما عدد عظيم من المقاتلة ، فلما بلغوا الى جيشه صاحوا وكبّروا فوجدوه على تعبية ،والجنود على مصافهم حذرين مستعدين فلم يصيبوا منه غرة ، ولم يظفروا منه بشيء ، وتمكن المهلب من تشتيتهم وقتل رئيسهم عبيد الله بن الماحوز ، فانكفأوا راجعين محرومين مغلوبين الى كرمان وجانب اصبهان ، وكان المغيرة بن المهلب في هذه الوقعة ، اذا نظر الى الرماح قد تشاجرت في وجهه نكس على سرجه وحمل من تحتها فبراها بسيفه ، ومزق ميمنة جيش الخوارج ،وكان اشد ما تكون الحرب.. اشد ما يكون انطلاقاً وسروراً ، وكان المهلب يقول فيه : ما شهد معي حرباً قط إلا رأيت البشر في وجهه .

وتشتد المعارك بين المهلب والخوارج ، فلا يوفقون معه في كثير ولا قليل .

وفي سنة ٦٧ نراهم في ارجان وقد بايعوا الزبير بن الماحوز بعد مقتل رئيسهم عبيد الله بن الماحوز ، يعاودون المهلب فيكسرهم ويشتت شملهم فيعودون الى اصبهان ، ويتوجه المهلب نحو الموصل .

وفي اواخر ٦٨ ، يعود المهلب الى قتال الخوارج وقد بايعوا قطري بن الفجاءة بعد ان قتل زعيمهم الزبير في معركة لم يكن المهلب فيها ، وقد ساروا الى كرمان فلحقهم وحاربهم في (سولاف) ثمانية اشهر أشد قتال رآه الناس ، وقتل في هذه الوقائع كثير من اصحاب المهلب ، وثبت فيها المهلب وابنه المغيرة ، وفي هذه الاثناء يتغلب عبد الملك على العراق ويولي على البصرة خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد ، فبعث شقيقه عبد العزيز لقتال الخوارج مع جيش عليه مقاتل بن مسمع ، وصرف المهلب الى الاهواز ، فارسل اليه قطري تسعمائة فارس ، فاستقبلوا عبد العزيز بفارس وهو يجري بجيشه من غير تعبية فهزموه وقتلوا مقاتل بن مسمع واخذوا امرأة عبد العزيز ، وقد ذكرنا كيف ان عبد الملك بن مروان غضب لما علم بخبر هذا الفشل ،وامر والي البصرة خالد بن عبد الله ان يأخذ رأي المهلب في حرب الخوارج ، وان لا يخرج عن رأيه ، وأمر

عبد الملك خالداً ان يخرج الى الازارقة بنفسه ، وكتب الى بشر بن مروان عامله على الكوفة ان يمده بجيش من عنده ، فامدّه ببضعة آلاف عليهم عبد الرحمن محمد بن الاشعث . فخرج خالد بجيشه ومن معه من اهل الكوفة ، والتقوا بالازارقة بالقرب من الاهواز .

وأشار المهلب على عبد الرحمن ان يخندق على جيشه .

فقال له : والله لهم اهون علي من هذا ...

فقال المهلب : يا ابن اخي ، لا يهونوا عليك فانهم سباع العرب .

ولم يتركه حتى خندق .

ثم ان خالداً زحف الى الخوارج بالناس فرأوا ما هالهم ، واقتتل الفريقان قتالا شديداً فانتصر جيش خالد، وهزموا الخوارج واتبعوهم يقتلونهم ويسلبونهم. ثم ارسل خالد وراءهم داود بن قحذم ليستأصلهم وكتب بذلك الى عبد الملك فأمر عبد الملك اخاه بشر بن مروان ان يبعث من قبله رجلاً شجاعاً بصيراً بالحرب في اربعة الاف فارس لينضم الى داود بن قحذم ويكون تحت امرته فارسل بشر بن مروان ، عتاب بن ورقاء في اربعة الاف من اهل الكوفة ، فخرجوا حتى التقوا بداود بن قحذم بارض فارس ، ثم اتبعوا القوم يطلبونهم حتى نفقت خيول عامتهم ، واصابهم الجهد والجوع ، ورجع عامة الجيشين مشاة الى الاهواز سنة ٧٢ للهجرة .

وفي هذه السنة سنة ٧٢ للهجرة وهي التي قتل فيها مصعب بن الزبير كان الخوارج في (برامرمز) والمهلب بازائهم . لان الخوارج في الواقع كانوا اذا فشلوا في مكان ، ظهروا في مكان آخر ، فاذا فشلوا في الثاني عادوا يحاربون في مكان ثالث ... لا يملون ولا يهدأون .

- ١٢ -

الحجاج والخوارج

شبيب بن يزيد الشيباني الخارجي

حروبه وحوادثه

الحجاج والخوارج :

كان المهلب بن ابي صفرة قائد جيش العراق اكثر القواد حظاً مع الخوارج، وابعدهم تمزيقاً فيهم وتأثيراً في افنائهم ، فما كاد يصل الحجاج الى العراق حتى تمكن الخوارج من تمزيق جيش عبد الرحمن بن مخنف القائد الثاني الذي كان يقـاتل الخوارج مع المهلب وقتلوه ،ولم يوفقوا مع المهلب في كثير ولا قليل . فكتب المهلب الى الحجاج بخبر الفاجعة ، فبعث الحجاج على جيش عبد الرحمن عتاب بن ورقاء ثم استقدمه اليه وضم جيشه الى جيش المهلب فأمّر عليه ابنه حبيبـاً .

ولعل من اروع ما في تاريخ الخوارج زحوف شبيب بن يزيد الخـارجي وحروبه مع ولاة الحجاج ، فان فيها لوناً جديداً من الوان التضحية والجرأة

والبسالة والايمان بالعقيدة، مما لا يرى القاريء مثله في تاريخ جماعة غير الخوارج، ولا يرى له نظيراً في غير تاريخ الجماعة الاسلامية الاولى التي خرجت لتنشر دين الله في الارض ، ولتروّج لتراث محمد من مشرق الارض الى مغربها ..

ونظن اننا نحسن صنعاً اذا عرضنا لأخبار شبيب بشيء من التفصيل .. فان اخبار الخوارج موزعة في كتب الادب والتاريخ بحيث يصعب جمعها في صعيد واحد على القاريء فاذا نحن بسطنا اخبارهم ، وتلطفنا في ترجمة زحوفهم ومعاركهم .. استقام معنا هذا البحث الذي غلبت فيه حوادث الخوارج على غيرها وسواها .

تحرك في سنة ٧٥ للخروج رجل من بني امرىء القيس يقال له صالح بن مسرح – وكان يرى رأي الصفرية – وقيل انه اول من خرج منهم ، فحج في هذه السنة ، ومعه ابو الضحاك شبيب بن يزيد الشيباني ، وسويد ، والبطين ، واشباههم من الخوارج ، وكان عبد الملك بن مروان قد حجّ في هذا العام ، فهمّ شبيب بالفتك به ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، وكان صالح بن مسرح المذكور ناسكاً خاشعاً مصفر الوجه ، صاحب عبادة .

وكان يقيم بأرض الموصل ، وله اصحاب يقرئهم القرآن ، ويفقههم في الدين، ويقص عليهم القصص ، ومن جملة ما كان يقصه عليهم استئثار عثمان بن عفان بالفيء ، وتعطيله الحدود ، والجور في الحكم ، واستذلال المؤمنين وتعزيز المجرمين ، ومن جملة ذلك ايضاً تحكيم علي – كرم الله وجهه – الرجال في امر الله والشك في اهل الضلال والركون اليهم . . . وصار يتبرأ من هذين الامامين ومن ولاة الامور بعدهما ، ويسميهم ائمة الضلال الظلمة ، ويدعو اصحابه للخروج من دار الفناء الى دار البقاء واللحاق باخوانهم المؤمنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة وجاهدوا بأموالهم وانفسهم التماساً لرضوان الله ، ورغب الى اصحابه ان يراسلوا كل من كان على رأيهم ليوافوهم للخروج على الولاة ، وبينما هم في ذلك اذ قدم على صالح ... ابن المحلّل بن وائيل اليشكري بكتاب من

ابي الضحاك شبيب بن يزيد الخارجي يعرض فيه الانضمام الى صالح واصحابه، وان يكون صالح امير المؤمنين وشيخ المسلمين .. فاستجاب له صالح وكتب اليه يحثه على الاسراع بالاقبال اليه . فجمع شبيب اصحابه وقدم على صالح وتواعد الجميع الخروج في صفر سنة ٧٦ .

خروج الخوارج :

ولما جاء الميعاد اجتمعوا وهموا بالخروج ، ورأى شبيب استعراض الناس وقتل كل من يعرض لهم ممن لا يرى رأيهم ، فمنعه صالح وقال له :

- بل ندعوهم فان من يرى رأينا مجيبنا .. ومن لم ير رأينا فنحن في حل من قتله .

ولما ابتدأوا في الخروج وكانوا نحواً من مائة وعشرين معظمهم رجالة ، وكان لمحمد بن مروان دوابّ في رستاق بتلك الجهة .. فشدوا عليها واخذوها فحملوا رجالتهم عليها ، وبلغ محمد بن مروان خروجهم ، وهو يومئذ امير الجزيرة ، فاستخف بأمرهم وارسل اليهم عدي بن عميرة في الف ، فسار من حران ، وكان (عدي) يتنسك ، فخرج الى صالح المتنسك وكأنما يساق الى الموت ، ودس الى صالح رجلاً يدعوه الى الخروج الى بلد آخر ، ويعلمه ان عدياً يكره قتاله ، وان لم يكن على رأيه ، فحبس صالح الرسول وانقض على عدي ، وهو قائم يصلي الضحى ، وحمل شبيب وسويد عليه وعلى عسكره معه. فانهزموا بلا قتال ، وركب عدي فرسه ومضى على وجهه ، ورجع فله الى محمد ابن مروان، فغضب وارسل الى الخوارج خالد بن جزء السلمي في الف وخمسمائة والحارث بن جعونة في الف وخمسمائة ، فخرجا اليهم واقتتل الفريقان اشد قتال، فترجل خالد والحارث ومن معهما واستقبلوا الخوارج بالرماح، ورشقتهم رماتهم بالنبل ، وطاردتهم خيلهم ، وفشت الجراحة في الجيشين ، وكثرت فيهما القتلى ، فلما امسوا رجعوا الى عسكرهم ، وتشاور الخوارج فيما بينهم ، فقر

رأيهم على ان يخرجوا من تحت ليلتهم الى مكان آخر ..

فمضوا حتى قطعوا ارض الجزيرة ودخلوا في ارض الموصل ، فلما بلغ الحجاج ذلك سرّح اليهم الحارث بن عميرة الهمذاني في ثلاثة آلاف رجل من اهل الكوفة : الف من المقاتلة الاولى، والفين من الفرض الذي فرضه الحجاج ، فلحقوهم في قرية يقال لها المدّبج، على التخوم بين ارض الموصل وارض جوخا، واقتتلوا فقتل صالح وثبت شبيب مع جماعة وجاء حتى انتهى الى موقف صالح فوجده قتيلاً ، فامر المعسكر بان يجعل كل رجل منهم ظهره الى ظهر صاحبه ويطاعنوا عدوهم الى ان يدخلوا حصناً هناك، ففعلوا ودخلوا الحصن، واحاط بهم الحارث ممسياً ، فجمع شبيب اصحابه وطلب منهم ان يبايعوا من شاؤوا بعد صالح ، ويخرج بهم ليلاً ليشدوا على الحارث وعسكره فبايعوه هو ، وخرج بهم فلم يشعر الحارث ولا اهل عسكره إلا وشبيب واصحابه يضربونهم بالسيوف ، فحارب الحارث حتى صرع ، واحتمله اصحابه وانهزموا ومضوا حتى نزلوا المدائن ، فكان ذلك الجيش اول جيش هزمه شبيب ثم ارتفع بأصحابه الى ارض الموصل ثم الى اذربيجان .

انتصارات شبيب :

وكان الحجاج قد كتب الى سفيان بن ابي العالية ان ينزل الدسكرة [1] فيمن معه ويقيم بها حتى يأتيه جيش الحارث بن عميرة الهمذاني الذي قتل صالح بن مسرح ، ويأتيه جيش آخر عليه سورة بن ابجر التميمي ، ثم يسير بعد ان تجتمع اليه هذه الجيوش الى شبيب ويناجزه .

وأمر الحجاج بأن ينادي في جيش الحارث بن عميرة بالكوفة :

«ان برئت الذمة من كل من لم يواف جيش سفيان بن ابي العالية » فأتاه

(١) قرية كبيرة في غرب بغداد .

جيش الحارث ، إلا سورة بن ابجل فانه تخلف عنه مع خمسين رجلا ، وارسل الى سفيان ان لا يبرح حتى يأتيه ، فتعجل سفيـان وارتحل في طلب شبيب فلحقه بخانقين ، في سفح جبل ، فأكمن له شبيب اخـاه ، واستطرد له يريه انه ينهزم ، فاتبعه سفيان - وكان عدي بن عميرة الشيباني قد اشار عليه بأن يأخذ حذره من الكمين فلم يسمع له - حتى اذا توسط بين الكمين وبين شبيب ، رجع اليه شبيب وثار عليه اخوه فهُزم هو وجيشه، وصرع سفيان وكاديقتل، لولا ان حمله غلام له على فرسه ، وصار يدافع عنه حتى نجا ، وقتل الغلام ..

وكتب (سفيان) الى الحجاج بما جرى له ، فاستحسن فعله ، ولام سورة بن ابجر على تخلفه ، وامره ان ينتخب رجلاً ممن معه الى الخيل التي بالمدائن لينتخب منها خمسمائة فارس ليسير (سورة) بهم الى الخوارج، وان يستعمل الحزم والكيد لعدوه ، فان افضـل الحرب حسن المكيدة ، فخرج سورة في طلب شبيب ، وشبيب يجول في جوخا ، حتى انتهى الى المدائن ، ومنها الى النهروان، فنزل بها هو واصحابه وصلوا بها ، وأتوا الى مصارع اخوانهم الذين قتلهم علي رضوان الله عليه فاستغفروا لاخوانهم وتبرأوا من علي واصحابه وبكوا اطول بكاء ، ثم خرجوا فقطعوا جسر النهروان فنزلوا من جانبه الشرقي ، وجـــاء (سوره) فاخبره عيونه بموضع الخوارج ، فاختار من اصحابه ثلاثمائة من اهل الجلد والقوة والشجاعة وحملوا عليهم فثبتوا لهم وقاتلوهم قتالاً شديداً فهزموهم؛ ورجع سورة بأصحابه الى المدائن واتبعهم الخوارج ، فخرج اليهم اهل المدائن ورموهم بالنبل والحجارة ، فارتفع شبيب بأصحابه عن المدائن وخرج يسير في ارض جوخا ، ثم مضى نحو تكريت .

وارجف الناس في المدائن ان شبيباً قد دنا يريد ان يبيّت اهل المدائن ، فارتحل عامة الجيش الذي كان بها فلحقوا بالكوفة ، فلما رأى الحجـاج ذلك قـــال :

ـقبّح الله (سورة) ضيّع العسكر والجند .

ودعا بعثمان بن سعيد المعروف بالجزل،وارسله الى الخوارج في اربعة آلاف فمضى الجزل ، ومضوا في اثر شبيب في ارض جوخا ، فجعل شبيب يستطرد له من قرية الى قرية ، ومن ناحية الى اخرى ، ليفرق عنه اصحـــابه فيلقاه في يسير من الناس على غير تعبية ، وجعل الجزل لا يسير الا على تعبية ولا ينزل إلا خندق على نفسه ، واراد شبيب ان يبيت الجزل واصحابه ، فعبى اصحـــابه وكانوا مـــائة وستين – وجعلهم كراديس ، كل كردوس اربعون رجلاً ، وجعل لكل كردوس اميراً ، فبيتوا عسكر الجزل فوجدوهم محترسين واضعين بكل جهة مسلحة ، فتركوهم ومضوا الى جرجرايا . وارسل الحجاج الى الجزل يستحثه على قتالهم ، فخرج في جيشه يجدون في طلبهم ، وبعث الحجاج سعيد بن المجالد ليقاتلهم مع الجزل ، وان يطلبهم طلب السبع ، ويحيد عنهم حيدان الضبع ، فلما انتهى سعيد الى الجزل عزم على ان يخرج الى الخوارج في الحال، واشار عليه الجزل بالتؤدة واحكام التدبير فلم يسمع له ، فبرىء من رأيه والقى عليه تبعة تسرعه ... فخرج سعيد واخرج الناس معه وقد أخذ شبيب الى براز الروز ، فنزل قطيطيا ، وامر دهقانها ان يشتري لهم ما يصلحهم ويتخذ لهم غذاء ففعل ، وامر شبيب بباب المدينة فأغلق ، فلم يمض الا قليل من الزمن حتى اتى سعيد في اهل ذلك العسكر ، فصعد الدهقان السور ونظر الى الجند مقبلين ، فنزل ـوقد تغير لونهـ واخبر شبيباً بان الجنود اتته من كل ناحية ..

فقال له : لا بأس . هل ادرك غداؤنا ؟

قال : نعم ... فقرّبه فتغدوا وصلوا ثم خرجوا الى جيش سعيد . وحمل شبيب على سعيد فقتله ، وحمل الخوارج على من معه فقتلوا منهم كثيراً . وفر الباقون حتى انتهوا الى الجزل ، فجمع الجزل جميع من معه وقاتـلوا الخوارج قتالاً شديداً ، وابلى الجزل بلاء حسناً ، ولا زال يقاتل حتى جرح وحمـــل الى المدائن جريحاً ، وانهزم الجيش ورجع الكوفة مفلولا ، وكتب الجزل الى

الحجاج بما جرى من تؤدته وعجلة سعيد ، وما تمّ من قتـــل سعيد وانهزام الجيش ..

ولما قرأ الحجاج كتاب الجزل استحسن فعله ورضي ماصنعه سعيد وترحم عليه ، وارسل الى الجزل طبيباً يداويه من جراحه والفي درهم ينفقهـــا في حاجتـــه .

ثم اقبل شبيب نحو المدائن ، فوجد اهلها متحصنين فيها ولا سبيل اليهم ، فراح الى الكرخ ، وعبر دجلة وامّن اهل سوق بغـــداد – وكانوا يخافونه – وخرج سويد بن الرحمن السعدي في اثره من قبل الحجـاج ، ولا زال يطارده حتى قطع بيوت الكوفة ، الى الحيرة . واستمر شبيب في سيره الى الانبار ثم ارتفع الى اذربيجان . فتركه الحجاج هناك وخرج الى البصرة ، واستخلف على الكوفة ،عروة بن المغيرة بن شعبة ، فأتى عروة كتاب من دهقـــان بابلى يخبره فيه ان شبيباً عازم على ان يدخل الكوفة في الشهر المقبـــل ، فارسل عروة الى الحجاج بكتاب الدهقان ، فرجع الحجـــاج الى الكوفة من فوره ، واقبل شبيب يسير حتى انتهى الى قرية يقال لها حربى ، على شاطىء دجلة ، فتطير منها أصحابه لايذانها بالحرب ، وقال هو : حرب يصلى بها عدوكم وحَرَب تدخلونه بيوتهم ... ثم نزل عقرقوف .

فقال له اصحابه : يا امير المؤمنين لو تحولت بنا من هذه القرية المشؤومة الاسم ..

فقال : انما شؤمها ان شاء الله على عدوكم.. فالعقر لهم .ثم سار حتى انتهى الى سبخة الكوفة ، فسبقه الحجاج ودخلها عند الظهر . وبعد ان صلى شبيب واصحابه العشاء واصابوا يسيراً من الطعام ركبوا خيولهم ودخلوا الكوفة . وشدّ شبيب حتى ضرب قصر الامارة بعموده فأثر فيه اثراً عظيما .

دخول شبيب الى الكوفة :

ثم اقتحموا المسجد الاعظم فقتلوا من كانوا يصلون فيه ، فنادى الحجاج في الناس بالنفير ، وجرد على الخوارج عدة امراء اجتمعوا بجيوشهم في اسفل الفرات ، فترك شبيب الوجه الذي هو فيه واخذ نحو القادسية .

فوجه اليه الحجاج بزحر بن قيس فيما يقرب من الف وثمانمائة فارس من نقاوة الفرسان ، وامره باتباع شبيب ومواقعته حيثما يدركه ، فالتقى زحر بشبيب في السيلحين [1] وتقاتل الجيشان فانهزم زحر واصحابه وجرح زحر ثم اقبل الخوارج على الامراء المذكورين انفاً ، وهم على نحو اربعة وعشرين فرسخاً من الكوفة ، فقاتلوهم قتالا شديداً وقتل بعض الامراء وجرح بعضهم ووضع السيف في عساكرهم ، ثم امر شبيب برفع السيف عنهم ودعوتهم الى بيعته فبايعه بعضهم بالليل ، فلما أصبح الصبح هربوا ...

وبلغ الحجاج ما كان من امره فهاله ، وظن انه يريد المدائن - وهي باب الكوفة - من اخذها فتحت له الكوفة . فبعث الى عثمان بن قطن وولاه المدائن ، ليمنعها من الخوارج ، ودعا بعبد الرحمن بن محمد بن الاشعث فامره بانتخاب ستة الاف من فرسان الناس ووجوههم ، واستحثه على مواقعة الخوارج وكتب الى العسكر يتوعدهم بالايقاع بمن يهرب منهم باشد من ايقاع العدو ، فخرج عبد الرحمن يطلب شبيباً ، فارتفع عنه شبيب الى شهرزور . ولحقه عبد الرحمن ، وصار شبيب لا يلقاه الا وجده على تعبية او في خندق فلا يصيب له غرة ولا يعثر منه على علة ، فصار كلما دنا منه يتركه ويمضي حتى عذب عسكره وأحفى دوابهم ولقوا منه كل بلاء ، الى ان وصل الى قرية على تخوم ارض الموصل يقال لها (البت) ليس بينها وبين الكوفة ، الا نهر حولايا

(١) قرب الحيرة ضاربة في البر قرب القادسية .

فنزل بها ونزل عبد الرحمن في راذان الاعلى ، من ارض جوخا ، فارسل اليه شبيب ان يوادعه في ايام العيد فاجابه عبد الرحمن الى ذلك ، فكتب عثمان بن قطن الى الحجاج يخبره بذلك، فامره الحجاج بتولي رئاسة الجيش ففعل واراد ان يناجز الخوارج في الحال فلم يساعده الجو اذ كانت الرياح شديدة ، وكانت تهب على الجيش ، فأقام يوماً وليلة حتى هدأت الرياح ، ثم عبى جيشه وزحف به على شبيب ، وزحف شبيب باصحابه عليه وكانوا نحو مـــائة وثمانين رجلاً . فهزم الخوارج جنود عثمان ووضعوا السيف فيهم ، وقتلوا معظم عرفائهم ، ثم رفعوا السيف عنهم ودعوهم الى البيعة لشبيب فبايعه كثير منهم ، ورجع عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث الى الكوفة ، فاختبأ من الحجاج حتى اخذ منه الامان ، وكان ذلك سنة ٧٧ للهجرة .

وبعد ان هزم شبيب جيش عبد الرحمن وقتل عثمان بن قطن وكان ذلك في صيف شديد الحر ، اتى ماه بهراذان ، فصيف بهـــا ثلاثة اشهر ، واتاه ناس كثير ممن يطلب الدنيا ، وممن كان الحجاج يطالبهم بمال او غيره فلحقوا به ، ولما انفسخ الحر عن شبيب خرج من ماهبهراذان ، في نحو ثمانمــائة فاقبل نحو المدائن ، فكتب دهقان بابل مهروز ، الى الحجاج يخبره بذلك ، فقام الحجاج في اهل الكوفة ، يدعوهم الى المدافعة عن بلادهم وعن فيئهم ، وإلا بعث الى اهل الشام ليقوموا مقامهم ، فوعد الناس من كل جانب بالقتال والعمل بمــا يسره ، وقام اليه زهرة بن حوية ، وهو شيخ كبير لا يقدر على القيام إلا اذا أخذ بيده ، فاشار عليه باستنفار الناس جميعهم الى الخوارج تحت امرة رجل ثبت شجاع مجرب للحرب . فرغب اليه الحجاج ان يكون هو امير العسكر ، فاعتذر بانه شيخ هرم ضعيف البدن ضعيف البصر ، وانما يصلح لهـذا رجل يحمل الرمح والدرع ويهز السيف ويثبت على متن الفرس ، وتطوع على ان يكون مع الامير في عسكره يشير عليه برأيه ، فجزاه الحجاج خيراً على نصحه وصدقه ، ثم أمر الناس بالمسير فساروا ولا يدرون من هو اميرهم .

وكتب الحجاج الى عبد الملك بن مروان ان شبيباً شارف المدائن ، وانما يريد الكوفة ، وقد عجز اهلها عن قتاله في مواطن كثيرة ، ورغب اليه في ان يبعث اليه جنداً من أهل الشام، فارسل اليه سفيان بن الابرد في اربعة الاف، وحبيب ابن عبد الرحمن الحكمي المذحجي في الفين ، فسار اهل الشام حتى دخلوا الكوفة ، من طريق مختصر ارشد اليه الحجاج ، وارسل الحجاج الى عتاب بن ورقاء ، فجاء اليه عتاب فجعله اميراً على جيش اهل الكوفة ، فخرج بهم وعسكر بحمام اعين ،واقبل شبيب ،فقطع دجلة ونزل بمدينة بهرسير وصار بينه وبين مطرف بن المغيرة بن شعبة جسر دجلة فقطعه مطرف وارسل الى شبيب ان يرسل اليه بعض وجوه اصحابه ليدرسهم القران وينظر في رأيهم، فارسل اليه شبيب رجالا منهم قعنب وسويد والمحلل ، فمكثوا عند مطرف اربعة ايام دون ان يتفقوا على شيء . فلما تبين لشبيب ان مطرفاً غير تابعه ، تهيأ للمسير الى عتاب واهل الشام،وخاف مطرف ان يبلغ الحجاج ما كان منه مع شبيب فينتقم منه فخرج الى المدائن ، مع اصحابه وسار شبيب مع اصحابه الى عتاب بسوق حكمة . وكانوا نحواً من الف تخلف منهم اربعمائة . وكان مع عتاب عدةآلاف .. ونشب القتال بين الخوارج وجيش عتاب فهزم جيش عتاب .

وكان عتاب جالساً في قلب الجيش مع زهرة بن حوية اذ غشيهم شبيب .
فقال عتاب لزهرة : هذا يوم كثر فيه العدد وقلّ الغناء .

فقال زهرة : ابشر فاني ارجو ان يكون الله قد اهدى الينا الشهادةعند فناء اعمارنا .

فلما دنا منه شبيب وثب في عصابة قليلة صبرت معه ، وقاتل قتالا شديداً حتى قتل ، وقتل معه زهرة بن حوية ، واستمكن شبيب من اهل العسكر وامر اصحابه برفع السيف عنهم ،ودعاهم الى البيعة ، فبايعه الناس ، ولكنهم هربوا من ليلتهم ، ثم اقبل شبيب الى الكوفة ... وقد دخلها سفيان بن الابرد

باهل الشام ، فاشتد الحجاج بهم واستغنى عن اهل الكوفة وقال لهم :

« يا اهل الكوفة لا أعزّ الله من اراد بكم العز، ولا نصر من اراد بكم النصر »

وانتهى شبيب حتى نزل موضع حمام اعين ، فدعا الحجاج الحارث بن معاوية بن ابي زرعة الثقفي فوجهه في ناس من الشرط لم يشهدوا يوم عتاب ، ومعهم نحو مائتين من اهل الشام ، فبلغ عدد الجميع نحو الف مقاتل ، فالتقوا بشبيب في زرارة ، فحمل عليهم فهزمهم وقتل رئيسهم الحارث ، واقبل الى الكوفة ، ونزل بالسبخة وابتنى بها مسجداً ، وأمر الحجاج اهل الكوفة ، بالاخذ بافواهها وصار يخرج الى شبيب جماعة بعد اخرى ، وعلى كل جماعة احد غلمانه في ثياب فاخرة وخيل فارهة ، وشبيب يظنه الحجاج فيقتله ويقول : ان كان هذا الحجاج فقد ارحتكم منه .

ودخل اخيراً الكوفة ومعه امرأته غزالة ، وكانت نذرت ان تصلي في مسجد الكوفة ركعتين تقرأ فيها البقرة وآل عمران ففعلت .

الحجاج يقاتل شبيباً :

فلما رأى الحجاج ذلك نزل اليه بنفسه في اهل الشام وهو على بغل محجل تباشر به وقال :

ـ هذا اليوم اغر محجل .

وكان شبيب في ستمائة فارس ، فاقبل عليه شبيب يقاتله ، ودعا الحجاج بكرسي وجلس عليه وحث اهل الشام على صدق القتال . فاستقبلوا القوم باطراف الاسنة ، وجثوا على الركب واشرعوا الرماح ، وثبتوا لاصحاب شبيب ، وصاروا يطعنونهم قدماً ، وصار الحجاج يقدم كرسيه شيئاً فشيئاً ، وهو يحرّض اهل الشام على القتال . وصار شبيب يستحث اصحابه ويحرضهم على الصبر . واقتتل الفريقان اقتتالاً شديداً واهل الشام يدفعون اصحاب

شبيب الى ان انتهوا الى المسجد الذي ابتناه . فقال الحجاج : يا اهل الشام ، ياأهل السمع والطاعة ، هذا اول الفتح ، والذي نفس الحجاج بيده ... وحمل خالد بن عتاب بن ورقاء على شبيب واصحابه من ورائه حملةموتور حران، فقتل مصاداً اخا شبيب ، وقتلت في هذه الوقعة غزالة امرأته ، وانهزم شبيب ومن بقي معه من اصحابه ، فأمر الحجاج خالد بن عتاب باتباعهم فاتبعهم ، حتى قطعوا جسر المدائن ، فدخلوا ديراً هناك فحصرهم خالد فيه ، فخرجوا عليه فهزموه ومن معه نحواً من فرسخين حتى القوا بانفسهم وخيلهم في دجلة ، والقى خالد بنفسه وفرسه .

فنظر اليه شبيب فقال :قاتله الله فارساً وفرسه...هذا اشد الناس،وفرسه اقوى فرس ..

فقيل له : هذا خالد بن عتاب .

فقال : معرق في الشجاعة والله لو علمت لاقحمت خلفه ولو دخل النار .

مقتل شبيب :

ثم دعا الحجاج حبيب بن عبد الرحمن الحكمي وبعثه في اثر شبيب في ثلاثة آلاف من اهل الشام وقال له :

ـ احذر بياته وحيثما لقيته فنازله ، فان الله قد فلّ حده وقصم نابه .

فسار وراءه حتى بلغ الانبار ، وهناك بيّتهم شبيب فوجدهم حذرين ، فقاتلهم هو واصحابه ـ وكانوا ثلاثين ـ قتالا شديدا حتى قال بعض اصحاب حبيب : لو كان هؤلاء الخوارج يزيدون على مائة رجل لاهلكونا ، فلما يئس شبيب واصحابه من القوم انصرفوا عنهم ومضواحتى قطعوا دجلةالى الاهواز، ثم الى فارس ثم ارتفعوا الى كرمان ، فأمر الحجاج سفيان بن الابرد ان يسير

اليه ، فلحقه بجسر دجيل الاهواز ، وانضم اليه زياد بن عمرو العتكي في اربعة آلاف . فقاتلهم شبيب واصحابه اشد قتال قاتله قوم ، فلما اتى عليهم المساء أمر شبيب اصحابه ان يعبروا النهر حتى اذا اصبحوا باكروهم ، فعبروا امامه فوقع حافر جواده على حرف السفينة ، فسقط في الماء وسقط معه شبيب وهو مثقل بالحديد من درع ومغفر وغيرهما، فغرق وقال له بعض اصحابه وهو يغرق : أغرقاً يا امير المؤمنين ؟

قال : ذلك تقدير العزيز العليم .

فلما رأى اصحاب شبيب غرق اميرهم انصرفوا وتركوا معسكرهم ليس فيه احد .

ولما اصبح سفيان وبلغه غرق شبيب وانصراف اصحابه كبّر وكبّر اصحابه معه ، وطلبوا شبيباً واستخرجوه من النهر ، وشقوا بطنه واخرجوا قلبه فرأوه مجتمعاً صلباً كأنه صخرة ، وكان يضرب به الارض فينزو نحو قامة انسان . فشقوه فرأوا في داخله قلباً صغيراً كالكرة، فشقوه فاصابوا علقة الدم في داخله .

وكان غرقه في سنة ٧٧ على اختلاف في الرواية ، ودجيل الذي غرق فيه شبيب هو دجيل الاهواز منبعه من جبال اصبهان ، وهو غير دجيل بغداد فان ذلك منبعه من دجلة بين تكريت وبغداد .

وام شبيب يقال لها جهيزة اصلها من سبي الروم ، رآها بالشام ابو شبيب يزيد بن نعيم — وكانت جميلة تأخذها العين — فاشتراها واحبته حباً شديداً ، وأسلمت معه بعد أن امتنعت عليه زمناً وأولدها شبيباً وهي مسلمة . وكانت ولادته يوم النحر سنة ٢٥ او ٢٦ . وقد رأت في حملها انه خرج منها شهاب سطع بين السماء والارض وملأ الافاق ، ثم وقع في الماء فخبا ، فأولته ان

ولدها سيعلو ويعظم سريعاً . وانه بولادته يوم النحر سيكون صاحب دماء يهرقها . وان منيته ستكون بالغرق . فكان ينعي اليها بالقتل فلا تصدق . حتى اذا قيل لها : غرق صدقت . وكانت هي وامرأته غزالة من الشجاعة بمكان عظيم ..وكانتا تشهدان معه الحروب والمعارك ، وتشاركان فيـــها ..

- ١٣ -

القضاء على الخوارج

السياسة العسكرية عند المهلب

اختلاف الخوارج :

وقع الاختلاف بين الازارقة – اصحاب قطري بن الفجاءة – سنة ٧٧ هـ. فخالفه بعضهم واعتزله عبد ربه الكبير. واقام بعضهم على بيعة قطري .

وسبب ذلك ان المهلب بعد ان اخذ الحجاج منه عتاب بن ورقاء لقتال شبيب اقام بسابور ، يقاتل قطرياً واصحابه نحواً من سنة ، ثم انه زاحفهم يوم البستان ، فقاتلهم قتالاً شديداً ، وكانت كرمان في ايدي الخوارج ، وفارس في يد المهلب . فبعدت على الخوارج ديارهم ، وانقطعت عنهم المواد من فارس فخرجوا حتى أتوا مدينة كرمان ، فقاتلهم المهلب بها اكثر من سنة ، وملك عليهم فارس جميعها ، فاخذها الحجاج منه وبعث اليها عماله . فبلغ ذلك عبد الملك بن مروان ، فكتب الى الحجاج يأمره بأن يترك للمهلب خراج فارس ، وجملة كور اخرى ليستعين به على قتال الخوارج ، فتركها ، فبعث المهلب عليها

عماله ، فكان له من ذلك قوة .

ويعث الحجاج الى المهلب البراء بن قبيصة لينهضه الى قتال الخوارج ، فأخرج المهلب بنيه ، كل واحد منهم في كتيبة ، واخرج الناس على راياتهم ومصافهم ، ووقف البراء على تل قريب منهم ليشاهد القتال . فاقتتل الفريقان اشد قتال رآه الناس ، من الصبح الى منتصف النهار ثم انصرفوا . فجاء البراء الى المهلب فقال له : لا والله ، ما رأيت فرساناً كبنيك قط ، ولا كفرسانك من العرب فرساناً ، ولا رأيت قط اصبر وأبأس من القوم الذين يقاتلونك ، فأنت والله معذور ..

ثم ان المهلب خرج بالناس وبأبنائه الى قتال الخوارج عند العصر فقاتلوهم كقتالهم في اول النهار وانصرفوا عند المساء .

فقال المهلب للبراء : كيف رأيت ؟

قال : رأيت قوماً والله ما يعينك عليهم إلا الله .

فاعاده المهلب الى الحجاج ، وكتب اليه ان يسأله عما شاهد ، فاخبره بما رأى وقال له ما قاله للمهلب ، ولم يزل المهلب يقاتل الخوارج ثمانية عشر شهراً لا ينال منهم كبير شيء الى ان قتل عامل لقطري على ناحية من كرمان يقال له المقعطر الضبي ،رجلا من الخوارج كان ذا بأس وكان كريماً عليهم ، فجاؤا الى قطري يسألونه ان يسلم اليهم الضبي ليقتلوه فأبى ، فانكروا عليه ذلك . وكان رجل من الازارقة حداد يسمى (ابزي) يعمل لهم نصالا مسمومة فيرمون بها اصحاب المهلب ، فشكوا اليه ذلك ، فقال لهم : سأكفيكموه ان شاء الله ، ثم وجه رجلا من اصحابه الى ابزي بالف درهم ومعه كتاب نصه بعد الديباجة : «اما بعد فان نصالك قد وصلت اليّ وقد وجهت اليك بالف درهم فاقبضها . » وقال للرجل : الق هذا الكتاب والدراهم في عسكر قطري ، واحذر على نفسك ... فوقع الكتاب والدراهم الى قطري ، فدعا بابزي فقال :

ـ ما هذا الكتاب ؟

قال : لا ادري .. قال : فهذه الدراهم ؟ قال : ما اعلم علمها ... فأمر به فقتل .

فجاء عبد ربه الصغير فقال له : اقتلت رجلا على غير ثقة ولا تبيّن ؟

فقال له : ما حال هذه الدراهم ؟

قال : يجوز ان يكون امرها كذباً ، ويجوز ان يكون امرها حقاً .

فقال له قطري : قتل رجل في صلاح الناس غير منكر ، وللامام ان يحكم بما يراه صلاحاً ، وليس للرعية ان تعترض عليه .

فتنكر له عبد ربه في جماعة ولكنهم لم يفارقوه .

فلما بلغ ذلك المهلب دسّ الى قطري رجلاً نصرانياً وقال له :

ـ اذا رأيته فاسجد له ، فاذا نهاك فقل : انما سجدت لك .

ففعل النصراني ذلك . فقال قطري : انما السجود لله .

فقال : ما سجدت إلا لك .

فقال له رجل من الخوارج : قد عبدك من دون الله .

وقام رجل من الخوارج الى النصراني فقتله ، فانكر عليه ذلك وقال :

ـ آقتلت ذمياً ؟

فكان ذلك مما قوّى الاختلاف بين الخوارج .

وبلغ المهلب فوجه اليهم رجلا يسألهم عن رجلين خرجا مهاجرين اليهم ، فمات احدهما في الطريق ، ووصل اليهم الآخر ، فامتحنوه في عقيدتهم فلم يؤمن بها . ما قولهم فيهما ؟

فقال بعضهم : اما الميت فمؤمن من اهل الجنة .. واما الآخر فكافر .

وقال آخرون : بل هما كافران .

فاشتد الخلاف بينهم فثاروا على قطري وخلعوه (١) ، وولوا عليهم عبدربه الكبير ، وبقي مع قطري عصابة قليلة منهم ، ووقع القتال بينهم ، واعلم المهلب الحجاج بما كان من اختلافهم واقتتالهم ، فامره الحجاج ان يناهضهم وهم على اختلافهم ، فأبى المهلب وكتب الى الحجاج : « ان الرأي ان يتركهم يقتل بعضهم بعضاً فان في ذلك إما هلاكهم وإما اضعافهم ، وليس من الرأي ان يناهضهم لئلا يتفقوا عليه ... » وقد اصاب فانهم مكثوا نحو شهر يقتل بعضهم بعضاً . ورحل عنهم قطري مع من تبعه ، ثم رجع اليهم فقام فيهم صالح بن مخراق احد رؤسائهم وقال : يا قوم انكم اقررتم عين عدوكم ، واطمعتموهم فيكم لما ظهر من اختلافكم ، فعودوا الى سلامة القلوب ، واجتماع الكلمة . ثم خرج الى اصحاب المهلب فنادى :

يا ايها المحاون . هل لكم في الطراد فقد طال العهد به .

فتهايج القوم واسرع بعضهم الى بعض وأبلى المغيرة يومئذ بلاء حسناً ، وصرعه عبيدة بن هلال .

فاستنقذ المغيرة فرسان من الازد ، وقال له رجل :

كنا نعجب كيف تصرع ، والان نعجب كيف تنجو .

وبعث الحجاج الى المهلب رجلين أحدهما من كلب والآخر من سُلَيم يستحثانه على القتال ، فتمثل المهلب بقول أوس بن حجر :

ومستعجب مما يرى من أناتنا ولو زبنته الحرب لم يترمرم

وقال ليزيد ابنه : حرك الخوارج.. فحركهم فتهايجوا ،وحمل رجل منهم على رجل من اصحاب المهلب فطعنه فشك فخذه بالسرج . فقال المهلب للسلمي والكلبي : كيف نقاتل قوماً هذا طعنهم ، وجاء الرقاد -- وهو من اعظم فرسان المهلب - وبه نيف وعشرون جراحة وضع عليها القطن، وحمل

---

(١) الكامل للمبرد جزء ٧ ص ٢٣٠ ٢٣١

يزيد بن المهلب على جماعة منهم فولوا،فحماهم فارسان، فحمل رجل يقال لهقيس الخشني على أحد الفارسين فصرعه . وحمل عليه الآخر وتعانقا فسقطا جميعاًعلى الارض ، فصاح قيس : اقتلونا جميعاً ، فاسرع فرسان من الفريقين فحجزوا بينهما : فاذا معانقه امرأة . فقام قيس مستحيياً . فقال له يزيد :

ــ اما انت فبارزتها على انها رجل .

فقال : أرأيت لو قتلت، أما كان يقال : قتلته امرأة ؟

ثم حاربهم المهلب بعد ذلك بالسيرَجان حتى نفـــاهم عنها الى جيرفت ، وهناك اختلفت كلمتهم مرة اخرى . وكان سبب ذلك ان عبيدة بن هلال كان يختلف الى امرأة رجل حداد في بيته ويدخل عليها بغير اذن ، فشكوه الى قطري ، فقال لهم : ان عبيدة من الدين بحيث علمتم ، ومن الجهـــاد بحيث رأيتم . فقالوا : انا لا نقاره على الفاحشة ، فبعث اليه قطري فقام فيهم وقال:

« بسم الله الرحمن الرحيم ان الذين جاؤوا بالافك عصبَة مِنكم لا تحسبوه شر لكم بل هو خير لكم .. الآيات . فبكوا واعتنقوه وقالوا : استغفر لنا .

فقال لهم عبد ربه الصغير : لقد خدعكم .. فرجعوا الى اعتقادهم الاول ، ولكنهم لم يجدوا سبيلاً الى اقامة الحد عليه . وكان قطري قد استعمل رجلاً من الدهاقين فظهرت له اموال كثيرة . فقالوا لقطري :

ــ ان عمر بن الخطاب لم يكن يقار عماله على مثل هذا .

فقال قطري : اني استعملته وله ضياع وتجارات ... فاوغر ذلك صدورهم وقالوا له : ألا تخرج بنا الى عدونا ، فقال : لا . فقالوا : كذب وارتد ، فأتبعوه يوماً فأحس بالشر منهم فدخل داراً مع جماعة من اصحابه ، فصاحوا به : يا دابة اخرج الينا . فخرج اليهم وقال : رجعتم بعدي كفارا . فقالوا : اما انت فانك دابة . قال الله تعالى : « وما من دابة في الارض الا على الله رزقها » . فقالوا : واما نحن فلسنا كفاراً . فانت كافر بتكفيرك ايانا . فقال له بعض اصحابه :

قل لهم : اني استفهمت ولم اخبر . فقبلوه منه . ولما رأى منهم هذا التغير بايع المقعطر العبدي . فكرهوا ذلك وسألوه اعفاءهم من مبـايعة المقعطر فأبى ، فاختلفوا وتهايجوا ، وحمل فتى على صالح بن مخراق فقتله . ثم اقتتلوا فيما بينهم قتالاً شديداً . وارتحل قطري مع اتباعه الى طبرستان .

وجلس المهلب للناس بعد ارتحال قطري ، فدخل اليه وجوههم يهنئونه ، ووجه المهلب الى الحجاج يبشره بالنصر على الخوارج وتمزق شملهم ، فقدم اليه رسول المهلب وانشده قصيدة في مدحه ومدح المهلب .

فلما انتهى من انشاده اقبل عليه الحجاج وقال له :

فكيف خلفت جماعة الناس ؟

قال : خلفتهم بخير : قد ادركوا ما امّلوا وامنوا ما خافوا .

قال : فكيف كان بنو المهلب فيكم ؟

قال : كانوا حماة السرج نهاراً ، فاذا أليلوا ففرسان البيات .

قال : فأيهم كان انجد ؟

قال : كانوا كالحلقة المفرغة لا يدري اين طرفها .

قال : فكيف كنتم انتم وعدوكم ؟

قال : كنـــا اذا اخذنا عفونا . واذا اخذوا يئسنا منهم . واذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم .

قال الحجاج : ان العاقبة للمتقين . كيف افلتكم قطري ؟

قال : كدناه ببعض ما كادنا فصرنا الى الذي نحب .

قال : فكيف كان لكم المهلب وكنتم له ؟

قال : كان لنا منه شفقة الوالد وله منا برّ الولد .

قال : فكيف كان اغتباط الناس ؟

قال : فشا فيهم الامن وشملهم النفَل .

قال : أكنت اعددت لي هذا الجواب ؟

قال : لا يعلم الغيب الا الله ... (اي ما كنت تسألني عنه كان مغيباً عني ولا يعلم الغيب الا الله) .

فقال الحجاج : هكذا والله تكون الرجـال . كان المهلب اعلم بك حيث وجهك ..

ثم استقدم الحجاج المهلب . فلما قدم عليه اجلسه الى جانبه واظهر اكرامه وبره ...

قطري في طبرستان :

ولما توجه قطري الى طبرستان ، وجّه اليه الحجـاج سفيان بن الابرد في جيش عظيم من اهل الشام ، وامر اسحاق بن محمد بن الاشعث ، رئيس جيش الكوفة بطبرستان ، ان ينضم بجيشه الى سـفيان ، فسار سفيان بجيش الشام وجيش الكوفة في طلب قطري حتى لحقوه في شعب من شعاب طبرستان ، فقاتلوه فتفرق عنه اصحـابه ، ووقع عن دابته في اسفل الشعب ، وتدحرج حتى خرّ الى اسفله . وكان معه خمس عشرة امرأة عربية ، كن في الجمـال والبزازة وحسن الهيأة كما شاء ربك، ما عدا عجوز فيهن. فساقهن بعض رؤساء الجند الى سفيان ، فلما دنا بهن منه ، انتحت له العجوز بسيفها فضربت به عنقه فقطعت المغفر وقطعت جلدة من حلق درعه ، وكاد سيفهـا يصيب جسمه . فاخترط سيفه وضربها به فحف رأسها فخرت ميتة ، فضحك سفيان من العجوز ، وقال ، لذلك الجندي : ماذا اردت من قتل هذه المرأه ؟ فقال له :

ـ اصلح الله الامير ، أو ما رأيت من ضربتها اياي ! والله كادت تقتلني !

ونظر علج من اهل البلد الى قطري حيث تدحرج من الشعب فأتاه ـ وكان قد اشتد به العطش ـ فقال له : اسقني ماء . فقـال له : اعطني شيئاً حتى

اسقيك . فقال له ويحك ، والله ما معي الا ما ترى من سلاحي ، وانا اعطيكه اذا سقيتني . فقال له : اعطنيه الآن . فأبى . فارتفع العلج في الشعب وحدّر عليه حجراً عظيماً من فوقه ، فأصاب احدى وركيه فاوهنها . وصاح العلج بالناس ليقتلوا قطرياً وهو لا يعرفه ، وانما ظن انه من اشراف الناس لحسن هيئته وكمال سلاحه . فاقبل اليه نفر من اهل الكوفة ، فقتلوه وأتوا برأسه الى اسحاق بن محمد بن الاشعث ، فبعث به الى الحجاج .

ثم ان سفيان بن الابرد اقبل منصرفاً الى عسكر عبيدة بن هلال ، وقد تحصنوا في قصر بقُومس ، فحاصرهم حتى جهدوا وأكلوا دوابهم . ثم انهم خرجوا اليه فقتلهم وبعث برؤوسهم الى الحجاج . وكان ذلك سنة ٧٧ .

وفي سنة ٧٨ ولى عبد الملك بن مروان الحجاج على خراسان ، وعبيدالله بن ابي بكرة على سجستان .

وفي سنة ٨٠ ، غزا المهلب كش ، وصالح جنده اهلها على فدية حملوها اليهم . واغزى ابنه حبيباً (رَبِنْجَن) من اعمال بخارى ، واحرق قرية للترك فسميت المحترقة .

وفي سنة ٨١ بلغ المهلب شقاق عبد الرحمن بن محمد الاشعث ، وخروجه على الحجاج وعبدالملك، فكتب اليه ينصحه ويدعوه الى الطاعة والدخول في الجماعة . وارسل الى الحجاج ينصحه بترك قتال اهل العراق ، وهم جيش عبد الرحمن ، حتى يسقطوا الى اهليهم ويشتمّوا اولادهم ، فتضعف قوتهم . فخالفه الحجاج وخرج اليهم فهزموه . فلما قفل راجعاً دعا بكتاب المهلب فقرأه ، ثم قال :

— لله ابوه اي صاحب حرب هو ! . اشار علينا بالرأي ولكننا لم نقبل .

موت المهلب :

وفي سنة ٨٢ توفي المغيرة ، وأتى خبره اخاه يزيد ، فاحب ان يبلغه اباه ، فأمر النساء ، فصرخن ، فقال المهلب : ما هذا ؟ فقيل : مات المغيرة .

فاسترجع وجزع جزعاً شديداً ظهر على وجهه . وكتب اليه الحجاج يعزيه . وكان المهلب حينئذ (بكش) لحرب اهلها ، فصالح اهلها على فدية ، ومضى منصرفاً يريد مرو ، فلما كان بزاغول، من مرو الروذ اصابه مرض، فدعا حبيباً ومن حضره من ولده ، ودعا بسهام فحزمت ، وقال :

— اترونكم كاسريها مجتمعة ؟

قالوا : لا .

قال : أفترونكم كاسريها متفرقة ؟

قالوا : نعم .

قال : فهكذا الجماعة . فأوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم .. فان صلة الرحم تنسيء في الاجل ، وتثرى المال ، وتكثر العدد وانها كم عن القطيعة فان القطيعة تعقب النار ، وتورث الذلة والقلة . فتحابوا وتواصلوا واجمعوا امركم ، ولا تختلفوا ، وتباروا تجتمع اموركم . وعليكم الطاعة والجماعة . وليكن فعالكم افضل من قولكم ، فاني احب للرجل ان يكون لعمله فضل على لسانه . واتقوا الجواب وزلة اللسان ، فان الرجل تزل قدمه ، فينتعش من زلته ، ويزل لسانه فيهلك . اعرفوا لمن يغشاكم حقه.. فكفى بغدو الرجل ورواحه اليكم تذكرة له . وآثروا الجود على البخل واحبوا العرب ، واصطنعوا معهم العرف: فان الرجل من العرب تعده العدة فيموت دونك ، فكيف بالصنيعة عنده ؟ عليكم في الحرب بالاناة والمكيدة : فانها انفع في الحرب من الشجاعة ، واذا كان اللقاء نزل القضاء ... فان اخذ رجل بالحزم ، فظهر على عدوه قيل : اتى الامر من وجهه ، ثم ظفر فحمد ، وان لم يعد يظفر بعد الاناة قيل : ما فرّط ولا ضيّع ، ولكن القضاء غالب . وعليكم بقراءة القرآن ، وتعلم السنن وادب الصالحين واياكم والخفة ، وكثرة الكلام في مجالسكم .

ثم استخلف عليهم يزيداً ، وجعل حبيباً على الجند حتى يقدم يزيد فيكون عليهم ، ومات وكان اوصى الى حبيب فصلى عليه .

- ١٤ -

اخبار الخوارج وجرأتهم في سبيل عقيدتهم

القول الفصل في عقيدة الخوارج واغراقهم

اسباب انتصارات الخوارج :

لقد تلطفنا في التبسط قليلاً باخبار الخوارج، وزحوفهم وحملاتهم ومعاركهم وغرضنا من ذلك ان نلقي في روع القارىء صورة حيـــة عن هؤلاء الاعراب الاشداء الذين حاربوا الامويين فاثخنوا فيهم ، وقارعوا جنوداً تفوقهم عدداً وعُدةً فاستأصلوهم ومزقوهم شرّ ممزق .

وهنا يحار القارىء في معرفة الاسباب التي مكّنت للخوارج من هذه الانتصارات الرائعة ، على جيوش تفوقهم عدداً وسلاحاً كما قدمنا ، ثم لا توفق هذه الجيوش العديدة الى تشتيت شملهم الا بعد حروب دامت اربعين سنة .. ومع ذلك فالدولة لا تزال في نشاطها وقوتها ، ورعاياها يناضلون معها ضـــد الخوارج ويحاربونهم حرباً شديدة مفجعة ، ثم لا يوفقون معهم في كثير ولا قليل ..

ولعل السبب في ذلك ، ان الخوارج كانوا عرباً بكل مافيالكلمه منمعنى، كانوا ابطال حروب وفرسان معامع ، ينزلون الى الهيجاء في شجاعة الاسد وبأس الحديد ، ومضاء السيف ، ومروق السهم ، وانقضاض النسر ، والتهاب النار ، ويحرصون على الموت في سبيل عقيدتهم حرص اهل الدنيا على الحياة ، ويستعذبون مناياهم كما يستعذب الظمآن الماء الفرات ، ولا يهدأ لهم بال الا اذا تنادوا الى القتال ..

كانوا عرباً ، والعرب بطبيعتهم شجعان محاربون،انظر الىقول معقل بن قيس الرياحي للامام علي كرم الله وجهه : « اصلحك الله يا امير المؤمنين . انه كان ينبغي ان يكون مع من يطلب هؤلاء القوم مكان كل رجل منهم عشرة ليستأصلوهم فاما ان يلقاهم عددهم فلعمري ليصبرن لهم ... فانهم عرب .

اكسبتهم هذه الشجاعة وهذا البأس الشديد والصبر على شدائد الحروب طبيعة بلادهم التي يعيشون فيها في الاراضي الموحشة بين الوحوش الكاسرة ، وما كان بينهم في الجاهلية من الاغارات بعضهم على بعض ، وزاد في شجاعتهم وبأسهم واقدامهم على النزال ودربتهم على القتال ما باشروه من الحروب في الاسلام ، لاسيما مع ما وصلوا اليه من استعمال آلات الوقاية كالدروع والمغافر وغيرها .

ويدلك على ما لهم من تلك الصفات ما قاله البراء بن قبيصه فيهم ، لما ارسله الحجاج الى المهلب ليستحثه على قتالهم ، فشاهد من بأسهم وشدة مراسهم للحرب ما راعه ، فقال للمهلب :

ــ ما رأيت قط اصبر ولا أبأس من القوم الذي يقاتلونك .

وقال له ايضاً وللحجاج لما رجع اليه : رأيت قوماً لا يعين عليهم الا الله ، كما يدلك على ذلك ايضاً قول المهلب ، للكلبي والسلمي اللذين بعثهن الحجاج اليه ليحرضاه على قتال الخوارج ـ وقد طعن عبيدة بن هلال امامها رجلا من

اصحاب المهلب فشك فخذه بالسرج — :

— كيف نقاتل قوماً هذا طعنهم ؟

وقد كان رؤساء جيوشهم وقادة جنودهم بالدرجة العالية من البطولة والجلد والايد والصلابة ، مع سعة العلم بتدبير الحروب والتمرن على اعمالها وتمام الخبرة بحيلها ومكايدها ، كتعبية الجنود والخندقة عليهم وتموينهم بالاسلحة والذخائر واثارة الحماسة فيهم ، واذكاء العيون على الخصوم ، واستطلاع اخبارهم والغلبة عليهم وما اشبه ذلك .

وقد ذكر ابن خلكان[1] ان قطري بن الفجاءة احد زعمائهم ، خرج في بعض حروبه وهو على فرس اعجف وبيده عمود خشب ، فدعا الى المبارزة فخرج اليه رجل من الاعداء ، فحسر قطري عن وجهه ، فلما رآه الرجل ولى هاربا ، فقال له قطري : الى اين ؟

فقال الرجل : لا يستحي الانسان ان يفر منك .

وكان قطري شاعراً بليغاً ، وفارساً مقداماً ، انظر الى شعره ، فانه يمثله كل التمثيل :

اقول لها وقد طارت شَعاعا	من الابطال ويحك لن تراعي
فانك لو سألت بقاء يوم	على الاجل الذي لك لم تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً	فما نيل الخلود بمستطاع
سبيل الموت غاية كل حي	وداعيه لاهل الارض داعي
ومن لا يغتبط يسأم ويهرم	وتسلمه المنون الى انقطاع
وما للمرء خير من حياة	اذا ما عُدّ من سقط المتاع

وقد بلغ من جرأة شبيب وعدم اكتراثه بجيوش الحجاج ان دخل الكوفة وطاف فيها ، وقتل كثيراً ممن كانوا في مساجدها ، وادخل الفزع والهلع في

(١) وفيات الاعيان جزء ١ ص ٤٣٠ .

قلوب اهلها حتى اغلقوا بيوتهم دونه .

وفي شبيب يقول الشاعر :

ان صاح يوماً حسبت الصخر منحدراً والريح عـاصفة والموج يلتطم

زعماء الخوارج :

وكان كل زعماء الخوارج على هذا الغرار ، بسالة وجرأة وتضحية ، وكان الخوارج بهذه القوة البالغة ، والبأس الشديد ، والمعرفة التامة بأمور الحرب ، يستغنون عن كثرة العدد ووفير العُدد ، وقد رأينا كيف ان مرداسا واصحابه – وكانوا لا يزيدون على اربعين رجـــلاً – هزموا جيش بن زرعة وكان عدد مقاتلته الفين . فقال في ذلك شاعرهم :

أألفـــا مؤمن منكم زعمتم ويقتلهم (بآسك) اربعونا

وانظر الى ما قاله في اصحاب شبيب ، بعض اصحاب حبيب بن عبدالرحمن الحكمي ، احد قواد الحجاج ، وكان جيشه ثلاثة آلاف ، وكان اصحاب شبيب ثلاثين رجلاً فقط : « لو كان هؤلاء الخوارج يزيدون على مـائة لأهلكونا » .

ويجب ان نأخذ بعين الاعتبار ظاهرة اخرى لها خطورتها واهميتها ، وهي ايمـــان الخوارج بعقيدتهم ، وبذلهم انفسهم في سبيلها ، ثقة منهم ان في ذلك مرضاة الله سبحانه وتعالى .

وقد كان لهذا الاعتقاد اثره العظيم في بسالتهم واسراعهم الى الموت ، والموت يهرب منهم ، وفيما روي عن الخوارج من الاقوال ، وحكي عنهم من الافعال ، ما يدل دلالة بينة على انهم كانوا يؤمنون ايماناً قوياً بأنهم يحاربون في سبيل الله ، هذا الى ما تزيوا به من لبـــاس التقوى ، وتزينوا به من حلى الصلاح والنسك والزهد في متاع الحياة الدنيا ، وغير ذلك مما يدل على زهدهم في الحياة الدنيا وحبهم في الآخرة ، ورغبتهم في الوصول اليها والعمل في سبيلها .

هذا (حوثرة) اول من خرج بعد قتل الامام علي رضوان الله عليه ، دعـاه ابوه الى الطاعة والدخول في الجماعة فابى ، فأداره فصمم . فقـال له : يا بني

أجيئك بابنك فلعلك تراه فتحن اليه . فقال : يا ابت انا والله الى طعنة نافذة اتقلب فيها على كعوب الرمح اشوق مني الى ابني ! [١]

وقال ابو بلال مرداس بن ادية احد رؤسائهم الكبار الاولين في عبدالله بن وهب الراسبي قائد الخوارج الذين خرجوا على الامام علي كرم الله وجهه :

ابعد ابن وهب ذي النزاهة والتقى
ومن خاض في تلك الحروب المهالكا
أحبّ بقاء او ارجّى سلامة وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا
فيا رب سلّم نيتي وبصيرتي وهب لي التقى حتى آلاقي اولئكا[١]

وكان مرداس هذا مجتهداً كثير الصواب في لفظه ، وكان من التقشف والتنسك والعبادة بمكان عظيم ، حتى انتحلته الشيعة والمعتزلة فضلاً عن الخوارج. وفيه يقول عمران بن حطان :

يا عين ابكي لمرداس ومصرعه يا رب مرداس اجعلني كمرداس
تركتني هائماً ابكي لمرزئتي في منزل موحش من بعد ايناس
انكرت بعدك ما قد كنت اعرفه
ما الناس بعدك يا مرداس بالناس[٢]

وكان عروة بن ادية اخو مرداس ، مثل اخيه مرداس في الظهور بالعبادة والاجتهاد والتنسك ، ولما قتله عبيدالله بن زياد دعا مولاه فقال : صف لي اموره . فقال : أأطنب ام اختصر ؟ قال : بل اختصر .

قال : ما اتيته بطعام بنهار قط ، ولا فرشت له فراشاً بليل قط[٣] .

وكان المستورد كثير الصلاة شديد الاجتهاد ، وله آداب يوصي بها ، وهي

---

(١) الكامل جزء ٢ صفحة ١٥٠ ،

(١) الكامل جزء ٢ صفحة ١٥٦ .

(٣) الكامل جزء ٢ صفحة ١١٦ .

محفوظة عنه . منها قوله : لو ملكت الارض بحذافيرها ، ثم دعيت الى أن استفيد منها خطيئة ما فعلت .

وقال قطري بن الفجاءة :

فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الاله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم (١)

تأمل صياحهم امـام الامام علي كرم الله وجهه ، وبحضرة اصحابه ، وتناديهم : لا تخاطبوهم ولا تكلموهم . وتهيئوا للقـاء الرب ، الرواح الرواح الى الجنة .

وروى ان ابن عباس لما وجهه اليهم الامام علي كرم الله وجهه ليدعوهم الى الطاعة ، رحبوا به واكرموه . فرأى منهم جباهاً قرحة لطول السجود وعليهم قمص مرخصة (٢) .

وروي ان رجلا من الخوارج طعن فنفذ فيه الرمح فجعل يسعى الى قاتله وهو يقول : وعجلت اليك رب لترضى .

واعتبر مبلغ زهدهم في متاع الحياة الدنيا ، بصياحهم على من اخذ رطبة سقطت من نخلة ، وقذف بها في فمه ، فلم يلبث من انتهارهم اياه ان لفظها . وبما روى عن جماعة منهم انهم ساوموا ذمياً على ثمار نخلة ، فقال: هو لكم. فقالوا : ما كنا لنأخذه الا بثمن ، وغير ذلك مما روى عنهم من هذا القبيل. وكانوا — على ما كانوا عليه من غلظ الاكباد على اعدائهم — في غاية الرقة والرحمة بعضهم على بعض ، كما يرشدنا اليه وقوفهم على قبور اصحابهم بالنهروان ، وبكاؤهم عليهم بكاء طويلا وترحمهم عليهم واستغفارهم لهم .

واخبار الخوارج مملوءة من امثال هذه الآثار ويجد المطلع على تاريخهم

(١) الكامل جزء ٢ صفحة ١٨٣
(٢) مغسولة

انهم – مع ما قدمناه من تلك الاوصاف ـ كانوا على جانب عظيم من العلم والفهم ، وبدرجة عالية من البلاغة والبيان : ذكروا ان عبد الملك بن مروان ـ وكان من اكثر الناس علماً وابرعهم ادبا واحسنهم ديناً ـ اتي برجل منهم فبحثه فرأى منه ما شاء علماً وفهماً، ثم بحثه فوجد ما شاء ادباً ودهياً. فرغب فيه واستدعاه الى الرجوع عن مذهبه فرآه مستبصراً محققاً ، فزاده في الاستدعاء .

فقال له : لتغنك الاولى عن الثانية . وقد قلت فسمعت ، فاسمع اقل .

قال له : قل .

فجعل يبسط له من قول الخوارج ، وزيّن له مذهبهم بلسان طلق والفاظ بينة ومعان قريبة . فقال عبد الملك بعد ذلك على معرفته : لقد كاد يوقع في خاطري ان الجنة خلقت لهم ، واني اولى بالجهاد منهم ، ثم رجعت الى ما ثبت الله عليّ من الحجة وقرر في قلبي من الحق فقلت له : لله الآخرة والدنيا . وقد سلطني في الدنيا ومكّن لنا فيها . واراك لست تجيب بالقول ، والله لاقتلنك ان لم تطع .

فبينما عبد الملك في ذلك ، اذ دخل عليه بابنه مروان وهو يبكي لان مؤدبه ضربه . فشقّ ذلك عليه . فاقبل الخارجي عليه وقال : دعه يبك . فانه ارحب لشدقه واصح لدماغه واذهب لصوته واحرى الا تأبى عليه عينه اذا حضرته طاعة ربه فاستدعى عبرتها .. فاعجب ذلك من قوله عبد الملك .

فقال له متعجباً : اما يشغلك ما انت فيه عن هذا ؟

فقال : ما ينبغي ان يشغل المؤمن عن قول الحق شيء .

فأمر عبد الملك بحبسه وصفح عن قتله .

وقال يعتذر اليه : لولا ان تفسد بالفاظك اكثر رعيتي ما حبستك . ثم قال عبد الملك : من شككني ووهمني حتى مالت بي عصمة الله ، فغير بعيد ان يستهوي من بعدي [1]

---

(١) الكامل جزء ٢ صفحة ١٤٦

ويروى ان عمران بن حطان رأس القعدة من الصفرية، وخطيبهم وشاعرهم نزل عند روح بن زنباع سمير عبد الملك بن مروان ، وهو لا يعرفه ، فكان روح لا يسمع شعراً نادراً ولا حديثاً غريباً عند عبد الملك فيسأل عنه عمران الا عرفه وزاد فيه ، فذكر ذلك لعبد الملك . فقال له : خبرني ببعض اخباره فخبره وانشده . فقال : ضيفك عمران بن حطان ، اذهب فجئني به .

فرجع اليه فقال : ان امير المؤمنين قد احبّ ان يراك .

فقال له : امض فاني بالاثر . فرجع روح الى عبد الملك فاخبره .

فقال عبد الملك : اما انك سترجع فلا تجده . فرجع وقد ارتحل وخلف فيها ابيات منها :

يا رَوْحُ كم من اخي مثوى نزلت به
قد ظن ظنك من لخم وغسّان
حتي اذا خفته فارقت منزله من بعدما قيل: عمرانُ بن حُطان
قد كنت جارَك حولا ما تروّعني
فيه روائع من انس ومن جان
حتى اردتَ بي العظمى فادركني
ما ادرك الناس من خوف ابن مروان
واعذر اخاك ابن زنباع فان له في النائبات خطوباً ذات الوان

وكان نافع بن الازرق ينتجع عبدالله بن عباس ، ويتباحث معه في مسائل كثيرة في التفسير واللغة .. ذكر المبرد جملة منها في الكامل ... وساق الامام الراغب في سفينته طائفة عظيمة منها [1] .

الرأي في الخوارج :

وليس من شك اليوم في ان الخوارج قد شوهوا محاسن الدين الاسلامي

(١) نقلها من الاتقان للسيوطي .

تشويهاً غريباً ، فان هذا الاغراق في التـــأويل والاجتهاد اخرجهم عن روح الاسلام وجماله واعتداله . وهم في تعمقهم قد سلكوا طريقاً ما قال به محمد ، ولا دعا اليه القرآن ، واما التقوى التي كانوا يظهرون بها فهي من قبيل التقوى العميــاء ، والصلاح الذي كانوا يزينون به في الظاهر كان ظاهر التأويل بادي الزخرفة ، وقد طمعوا في الجنة وارادوا السعي لها عن طريق التعمق والتشدد والغلو في الدين غلواً اخرجهم منه ، ومجاوزة الحد توقع في الضد . وقد تبسط عمر بن عبد العزيز في ذلك لما ناظر شوذب الخـارجي وصاحبه ، اذ بعثها اليه الخوارج فقال مخاطباً انصارهم في شخصيهما :

« انكم اردتم الآخرة فاخطأتم طريقها . . فانتم تردون على الناس ما قبل منهم رسول الله حين بعثه الله اليهم وهم عبدة اوثان ، فدعاهم الى ان يتركوا الاوثان وان يشهدوا ان لا آله الا الله وان محمداً عبده ورسوله . فمن قال ذلك حقن دمه واحرز ماله ووجبت حرمته وامن به عند رسول الله ﷺ ، وكان اسوة المسلمين وكان حسابه على الله . افلستم تلقون من خلع الاوثان ورفض الاديان وشهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله ... فتستحلون ماله ودمه ويلعن عندكم ؟ ومن ترك ذلك واباه من اليهود والنصارى واهل الاديان فتحرمون دمه وماله ؟ (١)

وقد رأينا في تاريخهم الاول كيف قتلوا عبدالله بن خبّـــاب وامرأته ، وكيف كانوا يستحلون اموال المسلمين ويحترمون اموال الذميين ، وكيف كانوا يستعرضون الموحدين ويقتلون رجالهم ونساءهم واطفالهم ، وقـــد روي انهم كانوا يلقون الاطفال في القدور وهي تفور (٢) ، وكانوا يعتقدون ان ذلـك من

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه جزء ١ صفحات ٢٦٤ و ٢٦٥

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه جزء ١ صفحة ١٦٤ في رد الامام عمر بن عبـــد العزيز على الخوارج .

الدين وانهم ينالون به الثواب من رب العالمين ، ولقد بعث تناقض امرهم هذا عجب ذلك الذمي... الذي لم يقبلوا منه جنى نخلته الا بثمنه ، مع انهم قتلوا عبد الله بن خباب فقال :

– ما اعجب هذا ! أتقتلون مثل عبدالله بن خباب ولا تقبلون منا جنى نخلة .[1]

ولقد كان الناس حين يرونهم يعتريهم الفزع الاكبر ويرتاعون منهم اشد الارتياع . ويصيح بعضهم على بعض : الحرورية الحرورية[2] ليهربوا منهم . واخيراً انظر ماذا كانوا ينقمون من المسلمين ومن ولاة امورهم !

كانوا يزعمون انهم محلون ، اي يجيزون ما حرّم الله كتحكيم الرجال في الدين وتعطيل الحدود وجباية الاموال من غير حلها ، وانفاقها في غير حقها وما ماثل ذلك . وهو زعم باطل .

الخوارج ثوريون :

والحق ان الخوارج قوم ثوريون ، قصر فهمهم عن حكمة الحكومة ، ولم يهتدوا الى مذهب سياسي يعتمدون عليه في الخروج على الولاة . فلما عجزوا عن مثل ذلك الطريق السياسي زعموا ذلك الزعم الباطل ليكون مبرراً لخروجهم على الحكام من طريق الدين ، وهو اشد الطرق تأثيراً في الناس واسرعها في اجتذاب الانصار لمن يدعوا اليه ، ألم تر ان اولهم وهو (المخدج) انتقد على رسول الله ﷺ... انه في قسمة بعض الغنائم ،فضّل بعض القوم على بعض ؟ وانما كان هذا التفضيل منه عليه الصلاة والسلام تأليفاً لقلوب الذين ُفضلوا ، مع علمه برسوخ الاسلام في قلوب الذين قلّ عطاؤهم عن الاولين ،

---

(١) الكامل جزء ٢ صفحة ١٣٥

(٢) الكامل جزء ٢ صفحة ١٥٣

فلم يفقه ذلك الخارجي هذه الحكمة العالية ، وان التميز في هذه القسمة هو عين العدل لانه الكفيل بالمصلحة العامة . لقد كان ذلك الخارجي يريد ان ينال نصيباً من المال فلما لم يستطع الى ذلك سبيلا ذهب به الحرد الى انتقاه القسمة من جهة العدل . ثم انظر الى اولئك الذين اكرهوا علياً كرم الله وجهه على التحكيم حتى اذا حكم على كره منه عظيم ، ثاروا عليه وقالوا : لا حكم الا الله . وتأمل في اجابته رضي الله عنه على ذلك بانها كلمة عادلة يراد بها جور ، وانهم يريدون بها ابطال الامارة ، ولا بد من امارة برّة او فاجرة .

- ١٥ -

تعاليم الخوارج ومذاهبهم

مختلف فرقهم والقول الفصل فيها

تعـاليم الخوارج :

اثارت نظريات الخوارج وتعاليمهم عنـاية بعض المستشرقين الاوروبيين ، فاسماهم (فان فلوتن) بالجمهوريين .

وهم في الواقع اقرب في مبادئهم الى الجمهورية والشورى منهم الى شيء آخر ، ومبادئهم الديموقراطية متطرفة ، ولا يصح ان يقـال انهم اصحاب المذهب الجمهوري لان هذا المذهب قد اعتمده الاسلام قبلهم ، واقرّ الحكم شورى بين الناس ، وكان اول ما بدأوا بحث الخلافة ، لان العراك كان داميـاً حولها ، والدم يسيل في سبيلها ، فقالوا : ان الخلافة حق لكل عربي حر ، ولا يصح للخليفة ان يتنزل عنها اذا ما اختير لها ، واذا جار الخليفة استحلوا عزله وقتله اذا قضت الضرورة بذلـك . ثم عمـد الخوارج الى تعديل نظريتهم الاولى في الخلافة ، فاطلقوهـا بين المسلمين جميعهم لا فرق عندهم بين العربي وغير العربي

شرط ان يكون مسلماً عادلاً..[1] ولعل سبب ذلك انضمام بعض المسلمين من غير العرب اليهم ، فجعلوا عندئذ حق الخلافة شائعاً بين جميع المسلمين احراراً او عبيدا .. فخالفوا بذلك نظرية الشيعة التي تحصر الخلافة في آل محمد صلوات الله عليه ..

وانضم الى الخوارج وغذّى صفوفهم عرب خلص من ابناء الصحراء ، وبعض القبائل العربية ذات الخطر والشأن كقبيلة بني تميم مثلاً ، وابطال القادسية ، ورؤساء الجند، وغيرهم وانضم اليهم بعض القراء من جند علي خصوصاً بعد فشل المصلحين وخيبة الامل في حقن دمـــاء المسلمين ، ومن غريب امرهم انهم كانوا يغرقون في التدين اغراقاً ليس له ما يبرره ، ويتـأولون الاحكام الاسلامية تأويلاً لم يقل به محمد ، ولا دعـا اليه القرآن ، وقد احمس الخوارج واذكى نفوسهم ما رأوه من سعي اولي الامر الملح لمصالحهم الخاصة ، وآذاهم انهيـــار الشورى في السلام ، وقبول سكان المدن الاسلامية بالملك العضوض .

السياسة والدين :

وتعاليم الخوارج منذ ظهورهم مزيج من السياسة والدين ، فشعارهم (الحكم لله) شيء يمتزج بالدين والسياسة معاً ، فلا يصح والحالة هذه ان يقال ان دعوتهم هذه كانت دينية محضة او سياسية محضة [2] وظلت دعوتهم بسيطة حتى خلافة عبد الملك بن مروان حيث مزجوا فيها كثيراً من التعاليم الجديدة ، وذهبوا يتأولون الاحكام الدينية تأويلاً فيه كثير من الاغراق ، والتعقيد كما قدمنا ، فقالوا : «ان العمل بأوامر الدين من صلاة وصيام وصدق وعدل جزء من الايمان، وليس الايمان الاعتقاد بالله ورسالة محمد فحسب ، فمن اعتقد ان لا اله الا الله وان

---

(١) المسعودي مروج الذهب ج ٢ ص ١١٠ .

(٢) يقول نيكلسون ان الدافع الاساسي للحركة الخارجية انما هو دافع ديني رغم ما كان يشوبه من المظهر السياسي .

محمداً رسول الله ثم لم يعمل بما يفرضه الدين وارتكب الكبائر ، فهو كافر » وكذلك نرى ان اغراقهم في الدين كان على غرار اغراقهم في السياسة ، وانهم في ذلك قد شوّهوا روعة الدين الاسلامي الذي كان يسراً لا عسرا ، سهلا هيـــنا ...

وقد امتـــازوا بشدة تمسكهم بالقرآن واتباع احكامه ، وغلوا في ذلك غلواً شديـــداً ، حتى لقد تأولوا آياته على غير حقيقتهـــا ، وعدوا مرتكب الكبيرة ، بل مرتكب الصغيرة منـــافقا كافراً ، وخرجوا على ائمتهم للهفوة الصغيرة يرتكبها احدهم ، وتشدد كثير منهم في امر مخـــالفيهم في الرأي من المسلمين ، فعدوهم كفاراً ، حتى ليحكى ان واصل بن عطا رأس المعتزلة وقع في ايديهم ، فادعى انه مشرك مستجير ، اذ رأى ان هذا ينجيه اكثر مما تنجيه دعواه انه مسلم مخالف لهم [1] ..

ولو تكلفوا الترويج لنظرياتهم دون ارهاق مخالفيهم ، لتلطف التـــاريخ في شأنهم ، ولكنهم اغرقوا اغراقـــاً هو اقرب الى الاحراج منه الى شيء اخر ، فقد كانوا لا يرحمون المرأة ولا الطفل الرضيـــع ولا الشيخ الفاني ، وكانوا يأتون افظع المنكرات واكبر الكبائر ، دون ما شفقة ولا رحمة ، ثم يتحرمون عن تافه الاشياء وصغير الامور . . ومثل هذا التناقض في اعمالهم كان كفيلاً مع الايام بافنائهم والقضاء عليهم ، وهو ما اصبح امراً واقعاً ...

الخوارج وفرقهم :

وقد انقسم الخوارج الى عشرين فرقة كانت تخـــالف كل منها الاخرى في تعاليمها كلها او بعضها ، واشهر فرقهم :

الازارقة :

وهم اصحاب نافع بن الازرق المكنى بأبي راشد ، وكان من اكبر فقهائهم

(١) الكامل للمبرد ج ص ١٠٦ .

ولم تكن من الخوارج فرقة اكثر عدداً من جماعة الازارقة ولا اشد شوكة ، وقد كفّر هو واصحابـه علي بن ابي طالب وجميع المسلمين ؛ وقال نافع : انه لا يحل لاصحابه المؤمنين ان يجيبوا احداً من غيرهم اذا دعاهم للصلاة ، ولا ان يأكلوا من ذبائحهم ولا ان يتزوجوا منهم . وهم في نظره مثل كفـار العرب وعبدة الاوثان . وقال عن بلادهم : انها دار حرب . وحلـّل قتـالهم وقتل اطفالهم ونسائهم . وكان لا يجيز (التقية) في قول ولا في عمل ، وكان يستحل الغدر بمن خالفه ، ويكفر القعدة ممن كانوا على رأيه ..عن القتال مع قدرتهم عليه ، او عن الهجرة اليهم ، واوجب امتحان من ينضمون اليهم فكان يدفع اليه واحداً من اسرى مخالفيهم ويأمره بقتله فان فعل صدقوه وان ابى قالوا : « هذا منافق ومشرك »...وقتلوه .

وهم يكفرون ايضاً مرتكب الكبيرة مستدلين بكفر ابليس الذي يقولون عنه انه لم يرتكب إلا كبيرة واحدة حيث أمر بالسجود فابى . وزاد نافع على ذلك ان اسقط حد الرجم عن الزاني المحصن، لانه لم يرد عليه نص في القران ، واسقط الحدّ كذلك عن قذف الرجل المحصن ، ولكنه اقـامه على من قذف المحصنات من النساء ، وحكم بقطع يد السارق في القليل والكثير ..

وقد كفرهم المسلمون بهذه البدع التي استحدثوها [1] .

النجدية :

وهم اتباع نجدة بن عامر الحنفي . ومن تعـاليمه التي انفرد بها ان المخطيء بعد ان يجتهد معذور ، وان الدين امران : معرفة الله ومعرفة رسوله ،وتحريم دماء المسلمين وتحريم غصب اموالهم والاقرار بما جاء من عند الله جملة،وما عدا ذلك فالناس معذورون بجهله الى ان تقوم عليهم الحجة ، ومن اداه اجتهاد الى استحلال حرام او تحريم حلال فهو معذور ، ومن خاف العذاب على المجتهـد

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي ، والملل والنحل للشهرستاني .

المخطيء قبل قيام الحجة عليه فهو كافر ، وعظّم جريمة الكذب على الزنا ، واسقط حدّ شرب الخمر ، واجاز التقية ، وقال أن القعود عن القتال جائز ، والجهاد اذا امكن . . افضل ، واستحل دماء اهل الذمه واموالهم ، وحكم بالبراءة ممن حرمها،واجاز عدم اقامة امام، وانما على الناس ان ينصف بعضهم بعضاً فيما بينهم،فان رأوا ان ذلك لا يتم الا بامام يحملهم عليه فاقاموه جاز..

البيهسية

وهم اصحاب ابي بيهس بن جابر ، ومن تعاليمه انه لا يسلم احد حتى يقر بمعرفة الله ومعرفة رسله ومعرفة ما جاء به النبي ﷺ ، والولاية لاولياء الله . وكان يكفر(الواقفية)وهم الذين يقولون اننا نقف فيمن اقترف فعل الحرام وهو لا يعلم احرام ام حلال، لانه يعتبر ان من ضمن الاشياء التي جاء بها النبي والتي تجب معرفتها ، المحرمات التي جاء الوعيد والتهديد لمن فعلها ، فهذه يجب على المسلمين معرفتها بعينها وتفسيرها والاحتراز عنها ، ويقول ان هناك اشياء اخرى لا يجب على المسلم ان يعرفها الا باسمها ولا يضره الجهل بتفسيرها . وكان يقول ان الايمان هو العلم بالقلب دون القول والعمل . اما مخالفوهم فهم كاعداء رسول الله ﷺ تحل الاقامة معهم... كما فعل المسلمون في اقامتهم .

الاباضية

وهم اتباع عبد الله بن اباض التميمي . ويختلفون عن غيرهم من فرق الخوارج في انهم لم يغلوا في الحكم على مخالفيهم ؛ بل قالوا انه يحل التزوج منهم ، ويتوارث الخارجي وغيره . وهم الى المسالمة اميل حتى قالوا : انه لا يحل قتال غير الخوارج غيلة ولا سبيهم الا بعد الدعوة واقامة الحجة واعلان القتال ، فاذا قاتلوهم وغنموا اموالهم لم يستحلوا منها غير السلاح والخيل . اما الذهب والفضة او غيرهما فانهم يردونه الى اعدائهم ، وكانوا يرون ان بلاد

مخالفيهم من المسلمين هي ديار توحيد ... إلا معسكر السلطان (يقصدون منها عامل بني امية او غيره من الامراء الجائرين) ، فانه دار بغي . كما قالوا : ان مرتكب الكبيرة من اهل القبلة موحد لا مؤمن ، فهو كافر . كفر نعمة الله عليه ، وان افعال العباد مخلوقة لله تعالى احداثاً وابداعاً ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازاً ، ولم يعتبروا اوامر الله ونواهيه موجهة الى المؤمن فحسب ، بل ان الكافر مطالب بها ايضاً ، وليس في القران تخصيص الامر والنهي بواحد منهما ، وهم جماعة متفرقون في مذاهبهم .

الصفرية :

وهم اصحاب زياد بن الاصفر ، وهو لا يكفر الذين قعدوا عن القتال ما داموا متفقين في الدين والاعتقاد . وقال ان التقية جائزة في القول دون العمل ، ولم يحكم بقتل اطفال المشركين ولا بتكفيرهم او تخليدهم في النار ، وفرّق بين الكبائر التي يلزم فيها الحد والتي لا حد عليها ، فلم يكفر مرتكب الاولى ، وانما كفّر مرتكب الثانية . هؤلاء هم اشهر فرق الخوارج وان الناظر الى مبادئهم ليجد انهم قد اشتطوا جميعاً في الحكم على مخالفيهم حتى ساووا بينهم وبين الكفار عبدة الاوثان . فلا عجب اذا اشتطوا في حربهم وبذلوا نفوسهم في سبيل الذود عن مبادئهم . وقد ضربوا المثل في الشجاعة النادرة والبطولة الفذة ، وشغلوا – كما رأينا – الحزب الاموي وغيره مدة قليلة من الزمن ... وكلفوا الامة الاسلامية ثمناً غالياً من الارواح والاموال .

رأي نيكلسون :

ويرى الاستاذ نيكلسون [١] « ان الخوارج كانوا المثل الاعلى في الدفاع عن العقيدة والاستماتة في سبيل الانتصار للمبدأ رغم ما كان من اعتسافهم في ذلك المبدأ واشتطاطهم في تلك العقيدة مما عاد بالفشل عليهم ، وقد لانت قناتهم

(١) تاريخ العرب الادبي ..

قليلاً وابتدأ الاعتدال والتسامح يدب الى نفوسهم ويسود افكارهم ،حين وجدوا انفسهم امام خطر داهم كاد ينتهي بابادتهم واستئصال شأفتهم .

«ويري انه لم تكن لهم مآرب شخصية يرمون الى تحقيقها من وراء حركتهم هــذه كما كان لغيرهم من الاحزاب السياسية الاخرى من شيعة وامويين وزبيريين » .

وفيما يقول الاستاذ نيكلسون بعض الصواب ،وقد ذكر الطبري عن شبيب الخارجي وقد انتهى الى احدى المدن ، فندب من اصحـــابه من يأتيه برأس عاملها ، فساروا حتى اتوا دار العامل : ونادوا : اجيبوا الامير ...

فقــالوا : اي الامراء

قالوا : امير خرج من قبل الحجاج يريد هذا الفاسق شبيباً .. فاغترّ العامل بذلك وخرج اليهم ، فضربوا عنقه ، وقبضوا على ما كان في دار الامــارة من مال ولحقوا بشبيب ، فلما انتهوا اليه قال :

ما الذي اتيتموا به ؟

قالوا : جئناك برأس الفاسق وما وجدنا من مال ،والمال على دابة في بدره.

فقال شبيب : اتيتمونا بفتنة للمسلمين . هلم الحربة ياغلام .

فخرق بها البدر وامر فنخس بالدابة والمال يتناثر من بدرها على الارض هنا وهناك ...

ثم قال : ان بقي شيء فاقذفه في الماء ..

وفي هذا ما يدل على انهم في الواقع كانوا أبعد الناس عن المال والعمل له وانهم كانوا يروّجون لمذهبهم ، ويعملون لعقيدتهم ..

- ١٦ -

الاضطرابات الداخلية

وثورة ابن الاشعث

فترة من الهدوء والسلام :

وفق قواد عبد الملك بن مروان حوالي سنة ٧٨ للهجرة الى تهدئة الثورات الخارجية في اطراف الامبراطورية ، فاستتب السلام وفشا الامن ، وعاد الناس الى زراعتهم واعمالهم ، وانصرف القواد والجنود الى الراحة بعد عناء الحروب وكرّ الزحوف .

ورأى عبد الملك بن مروان تقديراً لجهود عامله الحجاج ، وتعزيزاً لشأنه ان يضم اليه خراسان وسجستان ، وكان عامله على الاولى امية بن عبدالله ، ولا يقدم خراجها الى الخزانة العامة في دمشق الا غراراً ، بينا الحجاج على العكس من ذلك كان لا يتأخر ابداً عن تقديم خراج البلاد التي كانت تحت حكمه وسلطانه ، ومن هذا التاريخ ٧٨ للهجرة ، حتى موته ، ظل الحجاج — اي مدى سبع عشرة سنة — حاكما مطلقاً على الامصار الشرقية ، للامبراطورية

العربية ،فكان يحكم العراقين ، وفارس وكرمــــان ، وسجستان وخراسان ، وضمت اليه بعد ذلك عمان واليمن والبلاد العربية ، ثم انصبت عليه ثروة مــا وراء النهرين حتى حدود السند .

وفي هذه السنة عهد الحجاج الى المهلب بولاية خراسان ، والى عبيد الله ابن ابي بكره بولاية سجستان ، فعهد المهلب الى ابنه حبيب للقيام مقامه ، باعباء هذه الولاية ، ريثما يتمكن من انهاء اعماله في العراق . وكان الحجاج في الوقت نفسه يطالبه بخراج الاهواز ، وقدره مليون درهم ، والظاهر ان المهلب كان من هؤلاء الامراء الذين يتلطفون كثيراً في البذل ، ويغرقون في العطاء ، فلما طالبه الحجاج بالخراج المتأخر ، صعب عليه دفعه ، اذ لم يكن عنده شيء منه فقام المغيرة ابنه بدفع النصف، وساعده مولى له ببعض الباقي، وباع المهلب حلى امرأته فتمكن بذلك من دفع المبلغ المطلوب .

ثورة مطرف بن المغيرة :

ومن الحق ان نختم حديث الخوارج بما كان من مطرف بن المغيرة بن شعبة ، وكان بنو المغيرة بن شعبة صلحاء شرفاء بانفسهم مع شرف ابيهم ومنزلتهم من قومهم ، فلما قدم الحجاج العراق ورأهم على انهم رجال قومهم ، استعمل عروة على الكوفه ، ومطرفاً على المدائن وحمزة على همذان ، وكانوا في اعمالهم احسن الناس سيرة ، وأشدهم على المريب .

وكان مطرف على المدائن عند خروج شبيب وقربه منهــــا ، فكتب الى الحجاج يستمده ، فأمده بسبرة بن عبد الرحمن بن مخنف وغيره ،واقبل شبيب حتى نزل بهرسير وكان مطرف بالمدينة العتيقة وهي التي فيها ايوان كسرى فقطع مطرف الجسر ، وبعث الى شبيب يطلب اليه ان يرسل بعض اصحابه لينظر فيما يدعون ..

فبعث اليه عدة منهم ، فسألهم مطرف عما يدعون اليه .

فقالوا : ندعو الى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وان الذي نقمنا من قومنا الاستئثار بالفيء ، وتعطيل الحدود والتسلط بالجبرية .

فقال مطرف : ما دعوتم الا الى حق ، ومـــا نقمتم الا جوراً ظاهراً ، فبايعوني على ما ادعوكم اليه ليجتمع امري وامركم .

فقالوا : اذكره ...فان يكن حقاً نجبك اليه .

قال : ادعوكم الى ان نقاتل هؤلاء الظلمة على احداثهم ، وندعوهم الى كتاب الله وسنة نبيه ، وان يكون هذا الامر شورى بين المسلمين يؤمرون من يرتضون على مثل هذا الحال الذي تركهم عليها عمر بن الخطاب، فان العرب اذا علمت انما يراد بالشورى الرضا من قريش ، رضوا ، وكثر تبعكم واعوانكم .

فقالوا : هذا ما لا نجيبك اليه ..

وقاموا من عنده ، وترددوا بينهم اربعة ايام فلم تجتمع كلمتهم ، فساروا من عنده ،واحضر (مطرف) نصحاءه وثقاته فذكر لهم ظلم الحجاج وعبدالملك، وانه ما زال يؤثر مخالفتهم ومناهضتهم ، وانه يرى ذلك ديناً لو وجد عليـه اعواناً ،وذكر لهم ما جرى بينه وبين اصحاب شبيب، وانهم لو تابعوه على رأيه لخلع عبد الملك والحجاج .. واستشارهم فيما يفعل .

فقالوا له : اخف هذا الكلام ولا تظهره لاحد .

وقال له يزيد بن ابي زياد مولى ابيه المغيرة بن شعبة :

– والله لا يخفى على الحجاج ما كان بينك وبينهم كلمة واحدة ، وليزاد على كل كلمة عشرة امثالها، ولو كنت بالسحاب لالتمسك الحجاج حتى يهلكك، فالنجاة النجاة ... فوافقه اصحابه على ذلك فسار الى المدائن نحو الجبال .

ثم ذكر مطرف لاصحابه بالدسكرة ما عزم عليه ودعاهم اليه ، وكان رأيه خلع عبد الملك والحجاج ، والدعاء الى كتاب الله وسنة نبيه ، وان يكون الامر شورى بين المسلمين يرتضون لانفسهم من احبوه ، فبـــايعه البعض ،

على ذلك ، ورجع عنه البعض ، وكان ممن رجع سبرة بن عبد الرحمن بن مخنف فجاء الى الحجاج ، وقاتل شبيباً مع اهل الشام ، وسار مطرف نحو حلوان ، ثم الى همذان ، وبها اخوه حمزة ، فارسل اليه يستمده بالمال والسلاح ، فارسل اليه اخوه سراً مـــا طلب ، وسار مطرف حتى بلغ (قم وقاشان) وبعث عماله على تلك النواحي ، واتاه الناس ، وكتب البراء بن قبيصة وهو عـــامل الحجاج على اصبهان اليه يعرفه حال مطرف ويستمده ، فأمده بالرجـال بعد الرجال على دواب البريد ، وكتب الحجاج الى عدي بن زياد عامل الري يأمره بقصد مطرف ، وان يجتمع هو والبراء على محـــاربته ، فسار عدي من الري فاجتمع هو والبراء ، وحاربوا مطرفاً فكسروه وقتل مطرف ..

والواقع ان هذه هي المحاولة الثانية التي يحاول فيها بعض وجوه اهـــل العراق الثورة على الحجاج ، وقد قصصنـــا ثورة الجارود في فصل سابق ، واذا كان الجارود قد ثار على الحجاج ، لما اعتزم هـذا انقاص العطاء ، فان مطرفاً ثار عليه لمذهبه السياسي ، وبطشه وسوء سيرته ، واجتماع مطرف الى الخوارج واستماعه الى كلامهم ، يدل على انه كان يؤمن ببعض مبادئهم ، او انه كان يحاول استمالتهم الى تعضيده ، لما رآه من فتكهم وبأسهم .

ابن الاشعث والحجاج :

فاذا اشرفت سنة ٧٩ للهجرة ، رأينا الحجـاج يفكر في القيام بالغزوات في الشرق ومحاربة ملك كابول ،رتبيل التركي .. الذي كان لا يدفع الجـــزية المفروضة عليه إلا غراراً ، فأوغر ذلك صدر الحجاج عليه فبعث الى عبيد الله بن ابي بكرة عامله على سجستان ان يناجزه وان لا يرجع عنه حتى يستبيح بلاده ويهدم قلاعه ، ويقيد رجاله ، فسار عبيد الله في اهل البصرة واهـــل الكوفة ، ودخل بلاد رتبيل ، فاصاب من الغنائم ما شاء ، وهدم حصوناً ، وغلب على ارض من اراضيهم ، واصحاب رتبيل من الترك يتركون لهم ارضاً

بعد ارض ، حتى امعنوا في بلادهم ، ودنوا من مدينتهم ، وكانوا منها عـــلى ثمانية عشر فرسخاً ، فأخــــذوا على المسلمين العقاب والشعاب ، فارتد الغزاة عنهم وتراجعوا بعد ان حدثت بينهم موقعة صغيرة لم تكن بذات شأن ، ولا كبير امر ..

واغضب الحجاج تراجع جنوده ، وكتب الى عبد الملك بن مروان ينبئه بالامر ، ويطلب منه الاذن ليرسل الى رتبيل جيشاً قوياً ، مخافة ان يدخل في روعه ان الامبراطورية الاسلامية تعجز عنه ، او لا تستطيع الوصول اليه ، فيغرق في سرفه ، ولا يبعد ان يهدد الامبراطورية ، وفي هذا ما فيه من الخطر الدائم ، والشر العظيم .

فاذن له عبد الملك في ذلك ، فاخذ الحجاج في تجهيز الجيش ، واخذ من اهل الكوفة عشرين الفاً ومن اهل البصرة مثل ذلك ، واعطى الناس اعطياتهم كاملة غير منقوصة ، وانفق فيهم الاموال ، وانجدهم بالخيل والسلاح الكامل ، ولما فرغ من ذلك ، عين عبد الرحمن بن محمد الاشعث قائدا عليهم ، فسار عبد الرحمن بهذا الجيش الكبير حتى قدم سجستان ، فجمع اهلها فخطبهم وقال :

- ان الحجاج ولاني ثغركم ، وامرني بجهاد عدوكم الذي استباح بلادكم فاياكم ان يتخلف منكم احد فتمسه العقوبة ، فعسكروا مع الناس وتجهزوا .

وسار بن الاشعث بجيشه نحو بلاد رتبيل ، فلما بلغ هذا خبره ، ارسل يعتذر ويبذل الخراج ، فلم يقبل منه وسار اليه ، ودخل بلاده وترك له رتبيل الارض بعد الارض ، والحصن بعد الحصن ، وعبد الرحمن يحوي ذلك ، وكلما حوى بلدا بعث اليه عاملاً وجعل معه اعواناً وجعل الارصاد على العقـاب والشعاب ، ووضع المسالح بكل مكان خطر ، حتى اذا جاز ارضاً كثيرة ، وملأ الناس ايديهم من الغنائم ، منع النـاس من الوغول في ارض رتبيـل وقال :

— نكتفي بما قد أصبناه العام من بلادهم نجبيها ونعرفها ، ويجتريء المسلمون على طرقها ، وفي العام المقبل نأخذ ما وراءها من بلادهم ان شاء الله حتى نقاتلهم في آخر ذلك على كنوزهم وذراريهم ، واقصى بلادهم حتى يهلكهم الله تعالى . ثم كتب الى الحجاج بما فتح الله عليه ، وبما يريد ان يفعل ..

اول الاختلاف :

فلما اتى كتابه الى الحجـاج كتب اليه : ان كتابك كتاب امرىء يحب الهدنة ، ويستريح الى الموادعة ، قد صانع عدواً قليلاً ذليلاً قد اصـابوا من المسلمين جنداً كان بلاؤهم حسناً وغناؤهم عظيماً، فامض لمـا امرتك به من الوغول في ارضهم والهدم لحصونهم ، وقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم .

وكتب اليه الحجاج كتاباً ثانياً بمثل ذلك ، وكتاباً ثالثاً ، يقول له فيه :

— ان مضيت لما امرتك ، والا فاخوك اسحق بن محمد امير الناس .

فدعا عندئذ عبد الرحمن بن الاشعث الناس وقال لهم :

— ايها الناس اني لكم ناصح ولصلاحكم محب ، ولكم في كل ما يحيط بـه نفعكم ناظر ، وقد كان رأيي فيا بيني وبين عدوي بما رضيه ذوو احلامكم واولو التجربة منكم ، وكتبت بذلك الى اميركم الحجاج ، فاتاني كتابه يعجزني ويضعفني ويأمرني بتعجيل الوغول بكم في ارض العدو . وهي البـلاد التي هلك فيها اخوانـكم بالامس ، وانما انا رجل منكم امضي اذا مضيتم ، وآبى اذا ابيتم .

فثار اليه الناس وقالوا : بل نأبى على عدو الله . . ولا نسمع ولا نطيع .

وتكلم بعض ذوي الرأي فقالوا بخلع الحجـاج ومبايعة عبد الرحمن ابن الاشعث ، ومحاربة الحجاج واخراجه من العراق ، وتبعهم الامراء وقادة الجند والناس على اختلافهم ، فلم بلغ الحجاج خلعه كتب الى عبد الملك بخبر عبد

الرحمن ، وسأله ان يعجل في بعث الجنود اليه ، ونزل الحجاج الى البصرة ، ثم خرج منها الى (تستر) ، فالتقت طلائعه بطلائع ابن الاشعث ، فانهزم رجال الحجاج امامهم، فلما اتى خبر الهزيمة الحجاج عاد الى البصرة، وتبعه اصحاب الاشعث فقتلوا منهم واصابوا بعض اثقالهم ، فترك عندئذ الحجاج البصرة فدخلها ابن الاشعث ، فبايعها اهلها جميعهم ، وكان السبب في سرعة بيعتهم معاملة الحجاج لمن اسلم من اهل الذمة ، وتوزعوا في الامصار ، فكتب الحجاج الى البصرة وغيرها يقول : ان من كان له اصل من قرية فليخرج اليها ، فأخرج النـاس لتؤخذ منهم الجزية ، فجعلوا يبكون ولا يدرون اين يذهبون ، فلما قدم ابن الاشعث عقيب ذلك بايعوه على حرب الحجاج .

الاتفاق مع رتبيل :

واذا فنحن امام ثورة عراقية ثالثة لعل المسؤول عنها في هـذه المرة هو الحجاج نفسه، لان الزحوف والحروب في بلاد بعيدة وارض صعبة جبلية ، لا يجب ان يقرر امرها وفاقاً لاهواء السياسة ، وانما يترك ذلك الى القائد في ساحة القتال ، وقد رأينا كيف ان عبد الرحمن بن الاشعث قائد الجيش رأى عـدم الوغول في ارض العدو صيانة لارواح جنده ، وتعويداً لهم على مجابهة الملاحم في هذه الارض الصعبة البعيدة خصوصاً وقد سبق عبد الرحمن بن الاشعث قائد من قواد الحجاج اوغل في ارض العدو فسدوا عليه طريقه ، واحاطوا به من كل جانب ، ولم ينج من عدوه الا بعد صعوبات كثيرة ، وخسائر عظيمـة في الارواح والاموال ... وكان هذا الفشل حافزاً لعبد الرحمن على ان لا يعرض جنده الى مثل هذا الفشل ، ومن ذلك كان تقديره لموقفه . . . وامعانـه في التؤدة امعاناً انكره الحجاج عليه ... وعده مخالفـاً لرأيه ، وخروجاً عن طاعته ...

ويذكر لنا المؤرخون فيما يذكرونه عن ابن الاشعث والحجـاج ان ابن

الاشعث كان تياهاً فخوراً ، وانه كان يعتقد ابداً انه فوق كل امير ، ويقول ابن الاثير : ان الحجاج كان يبغضه ويقول لاصحابه :

- ما رأيته قط إلا اردت قتله .

وسمع الشعبي من الحجاج ذلك ذات يوم فاخبر ابن الاشعث به فقال هذا :

- والله لاحاولن ان أزيل الحجاج عن سلطانه .

ولما اراد الحجاج ان يبعثه على ذلك الجيش اتاه احد اعوانه فقال له :

- لا تبعثه ، فوالله ما جاز جسر الفرات ، فرأى لوالٍ عليه طاعة ، واني اخاف خلافه .

فقال الحجاج : هو اهيب لي من ان يخالف امري ...

وذكر غيره من المؤرخين قصصاً اخرى على غرار ما ذكرنا ، فاذا كان كل هذا صحيحاً، فكيف بعث به الحجاج قائداً للجيش دون غيره من اهل الطاعة ؟؟

هذا ما يحار المؤرخ في تعليله الا ان يكون الحجاج من الايمان بنفسه والاعتداد بسلطانه بحيث لم يفطن الى ان احداً يستطيع مخالفته فيه ..؟

سنة ٨٢ للهجرة :

وتشرف سنة ٨٢ للهجرة والخلاف بين الحجاج وعبد الرحمن بن الاشعث لا يزال على حاله ، واهل العراق مع ابن الاشعث يحاربون جنود الحجاج من اهل الشام ، ويناجزوهم حتى تمكن جند الحجاج من كسر شوكة العراقيين وهزموهم [1] فانسحبوا نحو الكوفة ، وتبعته طائفة من اهل البصرة ، فلما علم اهل الكوفة بقدوم ابن الاشعث اليهم اخرجوا عامل الحجاج واستقبلوا ابن الاشعث استقبالا حافلا ..

(١) وذلك يوم الزاوية في اواخر المحرم من سنة ٨٢ للهجرة .

وهنا يذكر لنا المؤرخون فيما يذكرونه من اخبار هذه المعركة ، ان الحجاج قتل من اهل العراق احد عشر الفاً خدعهم بالامان ، وامر منادياً فنادى لا امان لفلان بن فلان ، فسمى رجالا ، فقال العامة :

ـ قد امّن الناس ، فحضروا عنده ... فامر بهم فقتلوا ...

دير الجماجم :

ولما انتهى الحجاج من امر الناس في الزاوية والبصرة ، مشى الى الكوفة لقتال ابن الاشعث فنزل (دير قرة) ، وترك ابن الاشعث الكوفة فنزل (دير الجماجم) واجتمع الى عبد الرحمن اهل الكوفة واهل البصرة والقراء واهل الثغور والمسالح . . . اجتمعوا جميعهم على حرب الحجاج لبغضهم له ، وكانوا مائة الف ممن يأخذ العطاء ومعهم مثلهم ،وجاءت الحجاج الامدادات من الشام بكثرة عظيمة ، واخذ الناس يقتتلون ، وقد خندق كل منهم على نفسه .

ونظر عبد الملك الى هذه الثورة الجديدة ، فخاف منها على ملكه وعرشه فقال :

ـ ان كان يرضي اهل العراق بنزع الحجاج نزعناه ، فان عزله ايسر من حربهم ، ونحقن بذلك الدماء .

وبعث عبد الملك ابنه عبدالله واخاه محمد بن مروان ـ وكان محمد بارض الموصل ـ الى الحجاج في جند كثيف ، وامرهما ان يعرضا على اهل العراق عزل الحجاج ، وان يجريا عليهم اعطياتهم ، كما يجري على اهل الشام ، وان ينزل عبد الرحمن بن الاشعث اي بلد اراد من العراق ، فاذا نزله كان والياً عليه ما دام حياً ، وعبد الملك خليفة ، فان اجاب اهل العراق الى ذلك ، عزل الحجاج عنها ، وصار محمد بن مروان امير العراق ، وان ابى اهل العراق قبول ذلك ، فالحجاج امير الجماعة ، ووالي القتال ، ومحمد بن مروان وعبدالله

بن الملك في طاعته .

وما كاد الحجاج يعلم بسياسة عبد الملك هذه ورغبته في انهاء النزاع وقتل الخصومة ، حتى اضطرب اضطراباً عظيماً وأسقط في يـــده ، ولم يكن امر اشدّ عليه ، ولا اوجع لقلبه من ذلك ، فخـــاف ان يقبل اهل العراق عزله ، فيعزل عنهم ، فكتب الى عبد الملك يقول :

« والله لو اعطيت اهل العراق نزعي ، لم يلبثوا الا قليلاً حتى يخـــالفوك ويسيروا اليك ، ولا يزيدهم ذلك الا جرأة عليك ، ألم تر ويبلغك وثوب اهل العراق مع الاشتر على عثمان بن عفـــان ، وسؤاله نزع سعيد بن العاص ، فاذا نزعه لم تتم لهم السنة... حتى ساروا الى عثمان فقتلوه ، وان الحديد بالحديد يفلح . »

ومن هذا نرى اختلاف الرجلين في سياستهما ، فعبدالملك كان يرغب السياسة الوادعة والاتفاق ، والحجاج ينادي بسياسة الشدة والقمع ، وحجته ما اورده في كتابه ، ولكن عبدالملك ابى الا ان يعرض عزله على اهل العراق ، فلمـــا اجتمع عبدالله ومحمد مع الحجـــاج خرج عبدالله بن عبدالملك الى اهل العراق وناداهم قائلاً :

– يا اهل العراق ، انا ابن امير المؤمنين وهو يعطيكم كذا وكذا ..

وقال محمد بن مروان :

– انا رسول امير المؤمنين وهو يعرض عليـــكم كذا وكذا ...

وذكر لهم شروط الصلح والموادعة وحقن الدماء .

فقال اهل العراق : نرجع العشية .

الاجتـــماع :

واجتمع الناس عند عبد الرحمن بن الاشعث فقال لهم :

- قد أعطيتم امراً .. انتهازكم اليوم اياه فرصة، وانكم اليوم على النصف ،

فان كانوا يعتدّون عليكم بيوم الزاوية ،فانتم تعتدّون عليهم بيوم تستر ،فاقبلوا ما عرضوا عليكم وانتم اعزاء اقوياء لقوم هم لكم هائبون وانتم لهم منتقضون ، فوالله لا زلتم عليه جراء وعندهم اعزاء ابداً ... ما بقيتم ان انتم قبلتم .

فوثب الناس من كل جانب فقالوا :

-- ان الله قد اهلكهم فاصبحوا في الضنك والمجاعة والقلة والذلة ونحن ذوو العدد الكثير والسعر الرخيص والمادة القوية ، لا والله لا نقبل . . .

واعادوا خلعه ثانية .

فقال عندئذ عبدالله بن عبد الملك ، ومحمد بن مروان للحجاج :

-- شأنك بعسكرك وجندك واعمل برأيك فانا قد أُمرنا ان نسمع لك ونطيع ..

فقال الحجاج : قد قلت لكم انه لا يراد بهذا الامر غيركم .

وعاد القتال سيرته الاولى ، والقوم يتزاحفون كل يوم ويقتتلون ، واهل العراق تأتيهم موادهم من الكوفة وسوادها ، وهم في خصب ، واهل الشام في ضنك شديد قد غلت عليهم الاسعار ، وفقد عندهم اللحم كأنهم في الحصار .

ودام القتال بين اهل العراق وجنود الحجاج بالموضع المعروف بدير الجماجم طويلاً ، وكانت الحرب سجالاً بين الفريقين ، فوقعت بينهم اكثر من ثمانين واقعة دارت الدائرة بعدها على ابن الاشعث [1] ، فهرب الى البصرة حيث لحقه الحجاج ودارت عدة معارك بينهما ،ثم انهزم ابن الاشعث الى سجستان حيث استقبله رتبيل استقبالاً حسناً وانزله عنده واكرمه وعظّمه ، وكان رجال عبد الرحمن وانصاره من الذين هربوا من وجه الحجاج قد وصلوا في هذا الحين -- اواخر سنة ٨٣ للهجرة -- الى سجستان ، ويقدرهم بعض المؤرخين بستين

---

(١) وكانت الهزيمة في دير الجماجم في ١٤ جمادي الآخرة سنة ٨٣ .

الفاً وهو عدد نعتقد انه مبـــالغ به ، وان كانوا لا يقلون عن بضعة آلاف ، وسألوا عبد الرحمن ان يأتيهم ، فقدم اليهم ، فقالوا له :

ـ اخرج بنا من سجستان الى خراسان .

فقال لهم : ان بها يزيد بن المهلب وهو رجل شجاع ولا يترك لكم سلطانه، ولو دخلناها لقاتلنا وتبعنا اهل الشام ، فيجتمع علينـا اهل خراسان واهل الشام ...

فقالوا : لو دخلنا خراسان لكان من يتبعنا اكثر ممن يقاتلنا .

فرضي عبد الرحمن بمـا دعوه اليه ، ودخل خراسان ، فبعث اليه يزيد بن المهلب عامل الحجاج فيها ان يخرج منها، وذكر له فيما ذكره من كتابه انه يكره ان يحـاربه ويقاتله ، فتردد ابن الاشعث في امره ، ثم اخذ يجبي الخراج فمشى اليه يزيد وحاربه ، فلم يكن بينهما كثير قتال ، وتفرق اصحاب عبد الرحمن عنه ، وصبر وصبرت معه طـائفة ثم انهزموا ، واسر يزيد بعضهم وانفذهم الى الحجاج بعد ان استبقى عنده بعض من كانوا يمتون الى قبيلته بحبال من العصبية او النسب .

موت ابن الاشعث

ومضى ابن الاشعث على وجهه مع بقية اصحابه حتى انتهى الى بلاد رتبيل ثانية ، فحذره اصحابه من رتبيل هذه المرة وقالوا : قد يكتب له الحجـــاج يرّغبه ويرهبه فاذا هو قد بعث بك اليه اسيراً او قتلك واصحابك ، فحمـد رأيهم ودخلوا حصناً تحصنوا فيه ، وقدم عليهم عمارة بن تميم في جنـــد من جنود الحجاج فحاصرهم فامتنعوا حتى امنّهم فخرجوا اليه ، فوفى لهم ، وهنا يختلف المؤرخون في مصير بن الاشعث فبعضهم يقول ان رتبيل قبض عليـه وقطع رأسه وارسله الى الحجاج ، والبعض يقول انه أصيب بسهم في اثنـــاء المعركة فمات ، فارسل رتبيل اليه من قطع رأسه قبل ان يدفن ، وارسله الى

الحجاج ،وقيل ان رتبيل لما اتفق مع رسول الحجاج على تسليم ابن الاشعث اليه مقابل اعفاء الحجاج رتبيل من الخراج سبع سنوات ، وقيل عشراً ، ارسل رتبيل الى عبدالرحمن وثلاثين من اهل بيته، فحضروا فقيدهم وارسلهم الى عمارة قائد جند الحجاج ، فالقى عبد الرحمن نفسه من سطح قصر فمات فأخذ رأسه وسيره الى الحجاج ... فسيره الى عبد الملك ...

الحجاج والاسرى

اما ان الحجاج قد اغرق في التقتيل والقمع فهذا ما لا ريب فيه ولا شك.، واما ان عبد الملك بن مروان قد اطلق يده في ذلك ، فهذا ما يزال مداراً لكثير من البحث والتأويل .

لقد كان الحجاج يكره العراقيين ، ولا يثق باحد منهم ، وكان يذكر فيما يذكره من امورهم كيف انهم لم يتركوا له فرصة للاستمتاع بامجاد الولايه التي غمرت المشرق من ادناه الى اقصاه ، فما يكاد ينتهي من ثورة حتى يعلق في ثورة ، وما يكاد يغمد سيفه من حرب ، حتى يعود الى سله لحرب ثانية ، وقد ظهرت نقمته هذه على العراقيين وشدته على المعارضين في ثورة ابن الاشعث ظهوراً تاماً ، وقد ذكرنا في فصل سابق كيف اسلم الحجاج للقتل احد عشر الفاً من العراقيين يوم الزاوية بعد ان امنّهم ، ولعل سبب ذلك ، انه كان يخشى ثورتهم عليه مرة ثانية ، ولكن هذا لا يدفع عن الحجاج ما لحق به من نكث الوعد وخيانة العهد ...

ومن اعمال الحجاج بعد معركة (دير الجماجم) ما لا يتفق في قليل ولا كثير مع اسرى الحروب ، ومنكوبي الزحوف والمعارك ، فقد جلس الحجاج بعد المعركة في الكوفة يبايع الناس ، وكان لا يبايع احداً إلا قال له :

— اشهد انك كفرت .

فان قال نعم ، بايعه وإلا قتله ، فاتاه رجل من (ضفم) كان معتزلا للناس

جميعاً فسأله عن حاله ، فاخبره باعتزاله ، فقال له :

- انت متربص ، أتشهد انك كافر . ؟

فقال له : بئس الرجل انا ، اعبد الله ثمانين سنة ثم اشهد على نفسي بالكفر .

فقال الحجاج : اذاً اقتلك ...

قال : وان قتلتني .

فقتله . فلم يبق احد من اهل الشام والعراق الا رحمه .

. . .

واتي بآخر من بعده ، فقال له الحجاج :

- ارى رجلاً ما اظنه يشهد على نفسه بالكفر .

فقال له الرجل : اتخادعني عن نفسي ، وانا اكفر اهل الارض واكفر من فرعون ... فضحك منه وخلى سبيله ..

. . .

وجيء الى الحجاج باحد الفرس (فيروز) وهو من الذين ايدوا ابن الاشعث وحاربوا معه ، وكان كثير الغنى وافر الثروة ، فقال له الحجاج :

-- ابا عثمان ما اخرجك مع هؤلاء ، فوالله ما لحمك من لحومهم ولا دمك من دمائهم . !

فقال : فتنة عمت الناس ... قال : اكتب لي اموالك ..

فقال : وانا امن على دمي .

قال : والله لتؤدينها ثم لاقتلنك .

قال : والله لا يجمع بين دمي ومالي .

. . .

وسيق (الشعبي) فقيه اهل العراق الى الحجاج وكان مع ابن الاشعث فقال له :

– ايها الامير ان الناس قد امروني ان اعتذر بغير ما يعلم الله انه الحق ، وايم الله لا اقول في هذا المقام إلا الحق ، قد والله مردنا عليكم وحرضنا وجهدنا ، فما كنا بالاقوياء الفجرة ولا بالاتقياء البررة ، ولقد نصرك الله علينا ، واظفرك بنا ، فان سطوت فبذنوبنا ، وان عفوت عنا فبحلمك ،وبعد فالحجة لك علينا .

فقال الحجاج : انت والله احب الي قولاً ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ، ثم يقول ما فعلت ولا شهدت ، وقد امنتك يا شعبي ..

. . .

ويروى ان الحجاج جلس لقتل اصحاب عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث فقام رجل منهم فقال :

– اصلح الله الامين ان لي عليك حقاً ...

قال : وما حقك ؟

قال : سبّك عبد الرحمن يوماً فرددت عليه .

قال : من يعلم ذاك ؟

قال : انشد الله رجلاً سمع ذاك الا شهد به .

فقام رجل من الاسرى فقال : قد كان ذاك ايها الامير .

قال : خلوا عنه ... ثم قال للشاهد :

– فما منعك ان تنكر سبي كما انكر ؟

قال : لقديم بغضي اياك ! قال : ويخلى عنه لصدقه .

. . .

وقال الحجاج لرجل من الخوارج : والله اني لأبغضكم .

فقال له الخارجي : ادخل الله اشدنا بغضاً لصاحبه الجنة .

واتى الحجاج بامرأة من الخوارج فجعلت لا تنظر اليه ، وكان يزيد بن ابي مسلم يرى رأي الخوارج ويكتم ذاك . فاقبل على المرأة فقال :

ـ انظري الى الامير .

فقالت : لا انظر الى من لا ينظر الله اليه .

فكلمها الحجاج وهي كالساهية ، فقال لها يزيد :

ـ اسمعي ويلك من الامير .

فقالت : بل الويل لك ايها الكافر الردي ...

والردي عند الخوارج الذي يرى رأيهم ويظهر خلافه رغبة في الدنيا .

ويروى عن (ابن ميره) انه قال :

ـ انا لنتغدى معه يوماً ـ مع الحجاج ـ إذ جاء رجل من سليم برجل يقوده فقال :

ـ اصلح الله الامير ، ان هذا الرجل عاص .

فقال له الرجل : انشدك الله ايها الامير في دمي ، فوالله ما قبضت ديواناً قط ، ولا شهدت عسكراً ، واني لحائك .

فقال : اضربوا عنقه .

فلما احس بالسيف سجد ، فلحقه السيف وهو ساجد ، فامسكنا عن الطعام . فاقبل علينا الحجاج فقال :

ـ مالي اراكم صفرت ايديكم واصفرّت وجوهكم وحدّ نظركم من قتل رجل واحد ، ان العاصي ، يجمع خلالا : يخل بمركزكم ويعصى اميره ، ويغر المسلمين وهو اجير لهم ، وانما يأخذ الاجرة لما يعمل ، والوالي مخير فيه ، ان شاء قتل ، وان شاء عفا .

بناء واسط

ولقد اشتد كره الحجاج للعراقيين بعد ثورة ابن الاشعث ، واخذ يخشى غوائلهم عليه ، بعد ان قتل كبّارهم ، ومزق اوساطهم ، وادمى قلوبهـــم ، فرأى ان يعمد الى بناء مدينة خاصة له ، يقيم فيها مع جند الشام ، خصوصاً بعد ان اخذت تكثر الحوادث بين بعض الجنود وبعض العراقيين .

ويقول (ياقوت) ان الحجاج فكر في بناء مدينة واسط بين سنة ٨٣ وسنة ٨٦ للهجرة ، وانه بعث بعض الاطباء يفحصون له افضل مكـــان في العراق لبناء مدينته الجديدة ، فاختاروا له (واسط)لطيب مائها واعتدال اقليمها .

ويذهب بعض المستشرقين الى ان اختيار واسط كان لاغراض عسكرية ادارية ، ولوقوعها بين البصرة والكوفة في مكان متوسط بينهما ، بحيث تسيطر على العراق كل السيطرة وتقوم في الجهة الجنوبية من نهر دجلة .

وقد اسرف الحجاج في البذخ على بناء مدينته هذه ، فصرف على القصر والمسجد والجدران الخارجية ما لا يقل عن ثلاثة واربعين مليوناً من الدراهم .

ويذكر لنا (ياقوت) ان كاتب الحجاج انتقد عليه امرافه واشار الى ان عبد الملك بن مروان قد ينكر عليه اسرافه هذا ، فاشار عليه الحجاج ان يذكر في قيوده مبلغ تسعة ملايين درهم لبناء المدينة ...و٤٣ مليوناً لمصارفات الحروب .

ولم يسمح الحجاج لغير السوريين من جنده وبعض الاجانب من غير العرب من سكان بخارى ومـا وراء النهر وغيرهم من اسرى الحروب بالسكنى في واسط ..

ولما انتهى الحجاج من بنائها ، نقل مركز الامارة اليهـا ، وظلت واسط بعد الحجاج مركزاً لعامل الخليفة في العراق .

- ١٧ -

عبد الملك والحجاج

وصف للسياسة الداخلية في عهد عبد الملك

عبد الملك والحجاج :

كيف كان موقف عبد الملك بن مروان امير المؤمنين من سياسة عامله في العراق ... ؟؟

اما ان عبد الملك كان اكثر ميلاً الى سياسة اللين والمسالمة فهذا مما لا شك فيه ، ولكنه كما يظهر لنا كان يترك الامر لعامله حين يستعصي عليه اقرار الشطر الاول من سياسته ، فقد عرض على اهل العراق عزل الحجاج كما قدمنا فابوا ذلك عليه ، فنفض عندئذ يده من امرهم ، وترك للحجاج مهمة محاربتهم واخذهم بالشدة ، ولكنه كان يعود احياناً الى نفسه ، لما يراه من انحراف الحجاج في سياسة القمع والارهاب ، فينكر ذلك عليه ، ويأسف لما وقع ، ويود لو يكون بالامكان اصلاح الحال ، وان كان في الوقت نفسه يعلم علم اليقين ان العراق بحاجة الى شيء من الشدة والحزم بعد الثورات الكثيرة التي وقعت

فيه ليخلد الناس الى السكينة والسلام ..

ولعل هذه الناحية تفسر لنا الاسباب التي من اجلها كان يمكن للحجاج في الحكم ،ولا يعرض لشؤونه الادارية ولاعماله الشديدة في كثير ولا قليل.. ثقة منه ان اهل العراق قد احرجوا الحجاج فاخرجوه ، ولو كان غيره ، لما وفق الى توطيد الامان والسلام في هذا القطر العظيم الخطير من الامبراطورية العربية الواسعة .

ويقول الجاحظ : كان عبد الملك بن مروان سنان قريش وسيفها رأياوحزماً وعابدها قبل ان يستخلف ، ورعاً وزهداً ، فجلس يوماً في خاصته ، وقبض على لحيته فشمها ملياً ثم اجتر نفسه ونفخ نفخة اطـــالهـا ثم نظر في وجوه القوم وقال :

« ما اقول يوم المسئلة عن امر الحجاج وقد ادحض المحتج على العليم بمـــا طوته الحجب ، اما ان تمليكي له قرن بي لوعة يلهبها التـــذكار كيف وقد علمت فتعاميت ، وسمعت فتصاممت،عما حمله الكرام الـكاتبون ، والله لكأني آلف هذا الطعن على نفسي ، بعد ان نعت الايام بتصرفها نفساً حق لهاالوعيد، بتصرم الزوال ، وما ابقت الشبهة للباقي متعلقاً ، وما هو الا الغل الكامن، اللهم انت لي اوسع ...غير منتصر ولا معتذر .»

قلت : هذا الكلام يختبر به ما في نفوس القوم الذين ظهر منهم امـــارات الغيظ من الحجاج على ثقة عبد الملك به واختياره على غيره، وطرح كل مايقال فيه علماً منه بان لا يقوم احد بما قام به الحجاج ثم قال :

— يا كاتب هات الدواة والقرطاس .. فقعد كاتبه بين يديه واملى عليه :

« من عبد الله عبد الملك بن مروان الى الحجاج بن يوسف ، اما بعد فقـد اصبحت بامرك برماً ، يقعدني الاشفاق ، ويقيمني الرجـــاء ، عجزت في دار السعادة ، وتوسط الملك ، وحين المهل ، واجتماع الفكر التمس العذر في امرك ،

فانا لعمر الله في دار الجزاء وعدم السلطان واشتغال النفس والركون الى الزلة من نفسي ، والتوقع لما طويت عليه الصحف اعجز ..

« وقد كنت اشركتك فيما طوقني الله حمله..والآث بحقوي من امانة الله في هذا الخلق المرعي، فدللت منه على الحزم والجد في اماتة بدعة وانعاش سنة، فقعدت عن تلك ونهضت بما عاندها ، حتى صرت حجة العائب ، وعذراللاعن والشاهد القائم ، فلعن الله ابا عقيل وما نجل ، فالأم والد ، واخبث نسل ، فلعمري ما ظلمكم الزمان ولا قعدت بكم المراتب ، لقـــد البستكم ملبسكم ، واقعدتكم على روابي خططكم ، واحلتكم على قدر منعتكم ، فكنتم بين حافر وناقل وماتح في الفلوات القفرة ، ما تقدم بكم الاسلام ولقد تأخرتم ، ومـــا الطائف منا ببعيد يجهل اهـــله ، ثم قمت بنفسك ، وطمحت بهمتك وسرك انتضاء سيفك ،فاستخرجك امير المؤمنين من اعوان (روح بن زنباع) وشرطته وانت على معاونته يومئذ محسود ، فهفـــا امير المؤمنين والله يصلح بالتوبة والغفران زلته، وكان بك، وكان ما لو لم يكن لكان خيراً مما كان ، كل ذلك من تجاسرك وتحاملك على المخالفة لرأي امير المؤمنين فقرعت صفاتنا وهتكت حجبنا ، وبسطت يديك تحفن بهما من كرائم ذوي الحقوق اللازمة والارحـــام الواشجة ، في اوعية ثقيف ، فاستغفر الله لذنب مـــا له عذر ، فلئن استقال امير المؤمنين فيك الرأي ، فلقد حالت البصيرة في ثقيف بصالح النبي ﷺ ، اذ ائتمنه على الصدقات وكان عبده، فهرب بها عنه وما هو الا اختبار للثقة ، والمطلب لمواضع الكفاية ، فقعد فيه الرجاء كاقعد بامير المؤمنين فيما نصبك له ، فكأن هذا ألبس امير المؤمنين ثوب العزاء ونهض بعذره الى استنشاق نسيم الروح ، فاعتزل عمل امير المؤمنين واظعن عنه باللعنة اللازمة والعقوبة الناهكة ان شاء الله اذا استحكم لامير المؤمنين ما يحاول من رأيه والسلام . »

سفر الرسول :

ودعا عبد الملك مولى له يقال له (نباتة) له لسان وفضل رأي ، فناوله الكتاب ثم قال له :

– يا نباتة العجل ثم العجل حتى تأتي العراق، فضع هذا الكتاب في يد الحجاج وترقب ما يكون منه ، فان جبن عند قراءته واستيعاب ما فيه ، فاقلعه عن عمله وانقلع معه حتى تأتي به ، وهدىء الناس حتى يأتيهم امري ، بما تصفني به في حين انقلاعك من حبي لهم السلامة ، وان هشّ للجواب ولم تأخذه الحيرة فخذ منه ما يجيب به ، واقرره على عمله ، ثم اعجل عليّ بجوابه .

قال نباتة: فخرجت قاصداً الى العراق فضمتني الصحارى والفيافي واحتواني القر واخذ مني السفر .. حتى وصلت فلما وردته أدخلت عليه وعليّ شحوب مضنى ، وقد توسط خدمه من نواحيه ، وتدثر بمطرف خز أدكن ، ولاث به الناس من بين قائم وقاعد ، فلما نظر الي وكان لي عارفاً ، قعد ثم تبسم تبسم الوجل ، ثم قال :

– اهلا بك يا نباتة اهلا بمولى امير المؤمنين، لقد اثرّ فيك سفرك ،واعرف امير المؤمنين بك ضنيناً .. فليت شعري ما دهمك او دهمني عنده . ؟

نباتة عند الحجاج :

فسلمت وقعدت فسأل :

– ما حال امير المؤمنين وخوله . ؟

فلما هدأ اخرجت له الكتاب فناولته اياه فاخذه مني مسرعاً ويده ترعد ، ثم نظر في وجوه الناس فما شعرت الا وانا معه ليس معنا ثالث ، وصار كل من يطيف من خدمه يلقاه خالياً لا يسمعون منّا الا الصوت فلا يقربون ، ففك الكتاب فقرأه ، وجعل يتثاءب ويردد تثاؤبه ويسيل العرق على جبينه وصدغيه

على شدة البرد من تحت قلنسوته ، وعلى رأسه عمامة خز خضراء ، وجعل يشخص اليّ ببصره ساعة كالمتوهم ، ثم يعود الى قراءة الكتاب ويلاحظني النظر كالمتفهم، الا انه واجم ثم يعاود الكتاب واني لأقول ما اراه يثبت حروفه من شدة اضطراب يده ، حتى استقصى قراءته ثم مالت يده حتى وقع الكتاب على الفراش ، ورجع اليه ذهنه فمسح العرق عن جبينه ثم قال متمثلاً :

واذا المنية انشبت اظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

« قبح والله منا الحسن يا نباتة، وتواكلتنا عند امير المؤمنين الالسن ، وما هذا الا سانح فكرة نمقها مرصد يكلب بقصتنا مع حسن رأي امير المؤمنين فينا ... يا غلام »

فتبادر الغلمان الصيحة ، فملىء علينا منهم المجلس ، حتى دفأتني منهم الانفاس .

فقال : الدواة والقرطاس .

فأتي بدواة وقرطاس ، فكتب بيده وما رفع القلم الا مستمداً حتى سطر مثل خدّ الفرس ، فلما فرغ قال لي يا نباتة :

– هل علمت ما جئت به فنسمعك ما كتبنا ؟

قلت : لا .

قال : اذا حسبك منا مثله .

ثم ناولني الجواب وامر لي بجائزة فاجزل وجرد لي كساً ودعا لي بطعام فأكلت ، ثم قال :

– نكلك الى مـــا أمرت به من عجلة او توان ، واني لاحب مقارنتك والانس برؤيتك ..

فقلت : كان معي قفل مفتاحه معك ، ومفتاح قفلك عندي ، فاجدت

لك الوافية بالامرين ، فاقفلت المكروه وفتحت العافية ، وما ساءني ذلك وما احب ان ازيدك بياناً .

ثم نهضت وقام مودعاً لي فالتزمني وقال :

– بابي انت وامي ، رب لفظة مسموعة ، ومحتقر نافع فكن كما اظن ..

فخرجت مستقبلاً وجهي حتى وردت على امير المؤمنين ، فوجدته منصرفاً من صلاة العصر فلما رآني قال :

– « ما اجتواك المضجع يا نباتة »

فقلت : « من خاف من وجه الصباح ادلج » ، فسلمت وانتبذت عنـــه فتركني حتى سكن جأشي ، ثم دفعت اليه الكتاب فقرأه مبتسماً فلمـا مضى فيه ضحك ، حتى بدت له سن سوداء ثم استقصاه فانصرف اليّ فقال :

– « كيف رأيت اشفاقه » ؟ فقصصت عليه ما رأيت منه ، فقال :

– صلوات الله على الصادق الامين ان من البيان لسحرا ...

ثم قذف الكتاب اليّ فقال اقرأ فقراته فاذا فيه :

كتاب الحجاج

« بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله امير المؤمنين وخليفة رب العـــالمين والمؤيد بالولاية المعصوم من خطل القول وزلل الفعل بكفـــالة الله الواجبة لذوي امره .. من عبد اكتنفته الذلة ومدّ به الصغار الى وخيم المرتع ووبيل المكرع ، من جائل قادح ومعتر فادح ، والسلام عليك ورحمة الله التي اتسعت فوسعت وكان بها التقوى الى اهلها قائداً ...

فاني احمد الله اليك راجياً لعطفك بعطفه ، الذي لا إله الا هو ، اما بعد كان الله لك بالدعة في دار الزوال ، والامن في دار الزلزال ، فانه من عنيت به فكرتك يا امير المؤمنين مخصوصاً . . فما هو الا سعيد يؤثر او شقي يوتر ،

وقد حجبني عن نواظر السعد لسان مرصد ونافث حقد ، انتهز به الشيطان ساعة الفكرة ، فافتتح به ابواب الوسواس بما تحتويه الصدور ..

فواغوثاه باستعاذة امير المؤمنين من رجيم انما سلطانه على الذين يتولونه ، واعتصاماً بالتوكل على من خصه بما اجزل له من قسم الايمان وصادق السنة ، فقد اراد اللعين ان يفتق لاوليائه فتقاً نبا عنه كيده ، وكثر عليه تحسره ، بليلة قرع بها فكر امير المؤمنين ملبساً وكادحاً ومؤرثاً ، ليفل منغربه الذي نصبني ، ويصيب ثأراً لم يزل به موتوراً ، واذكره قديم ما مت به الاوائل حتى لحقت بمثله منهم ، وبما كنت ابلوه من خسة اقدار ، ومزاولة اعمال الى ان وصلت ذلك بالتشرط لروح ابن زنباع ، وقد علم امير المؤمنين بفضل ما اختار الله له تبارك وتعالى من العلم المأثور الماضي ، بان الذي عير به القوم مصانعهم من اشد ما كان يزاوله اهل القدمة الذين اجتبى الله منهم ...

وقد اعتصموا وامتعضوا من ذكر ما كان وارتفعوا بما يكون ، وما جهل امير المؤمنين وللبيان موقعه غير محتج ولا معتد ، ان متابعة روح بن زنباع طريق الى الوسيلة لمن اراد مَن فوقه ، وان روحاً لم يلبسني العزم الذي به رفعني امير المؤمنين عن خوله، وقد الصقتني بروح بن زنباع همة لم تزل نواظرها ترمي بي البعيد وتطالع الاعلام ...

وقد اخذت من امير المؤمنين نصيباً اقتسمه الاشفاق من سخطه والمواظبة على موافقته ، فما بقي لنا بعد الاصابة امر تجول به النفس وتطرف النواظر ، ولقد سرت بعين امير المؤمنين سير المتثبط لمن يتلوه ، المتطاول لمن يقدمه ، غير منبت موجف ، ولا متثاقل مجحف ، ففت الطالب ولحقت الهارب، حتى ثارت السنة وبادت البدعة ، وخساء الشيطان وحملت الاديان الى الجادة العظمى والطريقة المثلى ، وامير المؤمنين ولي المظلوم ومعقل الخائف وستظهر له المحنة نبأ امري ولكل نبأ مستقر ...

وان امير المؤمنين لرابع اربعة احدهم ابنة شعيب النبي ، إذ رمت بالظن

غرض اليقين تفرساً في النجي المصطفى بالرسالة فحق لها فيه الرجاء ...

وزالت شبهة الشك بالاختبار ، وقبلها العزيز في يوسف ، ثم الصديق في الفاروق رحمة الله عليهما ... وامير المؤمنين في الحجاج ..

وما حسد الشيطان بامير المؤمنين خاملاولا شرقبغير شجن، ولقد سمعت لامير المؤمنين في صالح صلوات الله عليه في ثقيف، مقالا هجم بي الرجاء لعدله عليه ، بالحجة في رده بحكم التنزيل على لسان ابن عمه خاتم النبيين وسيد المرسلين ﷺ ، فقد اخبر عن الله عز وجل بحكاية غرّ الملأ من قريش عند الاختيار والافتخار ، وقد نفخ الشيطان في مناخرهم ، قالوا: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ... فوقع اختيارهم عند المباهات بنفخة الكبر وكبر الجاهلية على الوليد بن المغيرة المخزومي،وابي مسعود الثقفي فصارا في الافتخار بهما صنوين ، ما انكر اجتماعها من الامة منكر في مد صوت القرآن ومبلغ الوحي ، وما قدمتني يا امير المؤمنين ثقيف في الاحتجاج لها وان لها مقالا رحباً ومعاندة قديمة ، إلا ان هذا من ايسر ما يحتج به العبد المشفق على سيده المغضب والامر الى امير المؤمنين عزل ام اقرّ، وكلاهما عدل متبع وصواب معتدل ، والسلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله » .

قال نباته : فاتيت على الكتاب بحضر امير المؤمنين عبد الملك فلما استوعبته سارقته النظر على الهيبة منه ، فصادف لحظي لحظه ، فقال :

— اقطعه ولا تعلمن بما كان احداً .

فلما مات عبد الملك فشى عني الخبر .

وانتشر بين الناس ..

بين الحجاج وانس بن مالك

وهناك قصة ثانية جرت بين الحجاج وانس بن مالك خادم رسول الله ،

فقد شتم الحجاج انس بن مالك واغرق في ايذائه ، فكتب انس الى عبد الملك بالامر يشكوه ، وادرج كتاب الحجاج في جوف كتابه .

قال اسماعيل ابن عبد الله بن ابي المهاجر : بعث اليّ عبد الملك بن مروان في ساعة لم يكن يبعث اليّ في مثلها ، فدخلت عليه ، وهو اشدّ ما كان حنقاً وغيظاً ، فقال :

- يا اسماعيل ، ما اشد عليّ ان تقول الرعية ضعف امير المؤمنين، وضاق ذرعه في رجل من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، لا يقبل له حسنة ، ولا يتجاوز عن سيئة .

فقلت : وما ذاك يا امير المؤمنين .؟

قال : انس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ، كتب اليّ يذكر ان الحجاج قد اضرّ به واساء جواره ، وقد كتبت في ذلك كتابين ، كتاباً الى انس بن مالك ، والاخر الى الحجاج ، فاقبضهما ثم اخرج على البريد فاذا وردت العراق فابدأ بانس بن مالك ، فأدفع له كتابي وقل له : اشتد على امير المؤمنين ما كان من الحجاج اليك، ولن يأتي امر تكرهه ان شاء الله، ثم ائت الحجاج فادفع اليه كتابه وقل له : قد اغتررت بامير المؤمنين غرة لا اظن يخطئك شرها ، ثم افهم ما يتكلم به وما يكون منه ، حتى تفهمني اياه اذا قدمت عليّ ان شاء الله .

قال اسماعيل : فقبضت الكتابين وخرجت على البريد حتى قدمت العراق فبدأت بانس بن مالك في منزله ، فدفعت اليه كتاب امير المؤمنين وابلغته رسالته ، فدعا له وجزاه خيراً . فلما فرغ من قراءة الكتاب قلت له :

- ابا حمزة ان الحجاج عامل، ولو وضع لك في جامعة ... لقدران يضرك وينفعك ، فانا اريد ان تصالحه .

قال : ذلك اليك . لا اخرج عن رأيك . ثم اتيت الحجاج ، فلما رآني

رحّب وقال : والله لقد كنت احب ان اراك في بلدي هذا .

قلت : وانا والله قد كنت احب ان اراك واقدم عليك بغير ما أرسلت به اليك .

قال : وما ذاك ؟ قلت : فارقت الخليفة وهو اغضب الناس عليك .

قال : ولمَ ؟

فدفعت اليه الكتاب ، فجعل يقرأه وجبينه يعرق فيمسحه بيمينه ، ثم قال : اركب بنا الى انس ابن مالك .

قلت له : لا تفعل ، فاني سأتلطف به حتى يكون هو الذي يأتيك ، وذلك للذي اشرت عليه من مصالحته .

وكان كتاب امير المؤمنين ما يأتي : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الملك بن مروان الى الحجاج بن يوسف، اما بعد. فانك عبدٌ طمت بك الامور، فطغيت وعلوت فيها حتى جزت قدرك وعدوت طورك ، وايم الله لاغمزنك كبعض غمزات الليوث للثعالب ، ولاركضنك ركضة تدخل فيها في وجارك ، اذكر مكاسب آبائك بالطائف اذ كانوا ينقلون الحجارة على اكتافهم ويحفرون الابار في المناهل بايديهم ، فقد نسيت ما كنت عليه انت وآباؤك من الدناءة واللؤم والضراعة ، وقد بلغ امير المؤمنين استطالة منك على انس بن مالك خادم رسول الله ﷺ. .جرأة منك على امير المؤمنين وغرة بمعرفة نقماته وسطواته على من خالف سبيله وعمد الى غير محبته ونزل عند سخطته ، واظنك اردت ان تروزه بها لتعلم ما عنده من التغيير والتنكير فيها ، فان سوغتها مضيت قدماً، وان غصصت بها وليت دبراً ، فعليك لعنة الله من عبد اخفش العينين اصك الرجلين ، ممسوح الجاعرتين . وايم الله لو ان امير المؤمنين علم انك اجترمت منه جرماً وانتهكت له عرضاً فيما كتب به الى امير المؤمنين لبعث اليك من يسحبك ظهراً لبطن حتى ينتهي بك الى انس بن مالك فيحكم فيك بما احب،

ولم يخف على امير المؤمنين نبؤك ... ولكل منا مستقر وسوف تعلمون .

قال اسماعيل فانطلقت الى انس فلم ازل به حتى انطلق معي الى الحجاج فلما دخلنا عليه قال :

– يغفر الله لك ابا حمزة عجلت باللائمة واغضبت علينا امير المؤمنين .

ثم اخذ بيده فاجلسه معه على السرير .

فقال انس : انك تزعم انـّا الاشرار والله اسمانا الانصار، وقلت انـّا من ابخل الناس ، والله يقول فينا « ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهـم خصاصة » وزعمت انا اهل نفاق والله تعالى يقول فينا غير ذلك ، فكان المخرج والمشتكي في ذلك الى الله ، والى امير المؤمنين فتولى من ذلك ما ولاه الله ، وعرف من حقنا ما جهلت وحفظ من حقنا ما ضيعت ، وسيحكم في ذلك رب هوارضى للمرضى واسخط للمسخط ، في يوم لا يشوب الحق فيه الباطل ولا النور الظلمة، ولا الهدى الضلالة ، والله لو ان اليهود او النصارى رأت من خـدم موسى بن عمران او عيسى بن مريم يوماً واحداً ... لرأت له مالم تروا لي في خدمة رسول الله ﷺ عشر سنين » .

قال فاعتذر اليه الحجاح وترضاه حتى قبل عذره وترضى عنـه ، وكتب برضاه وقبوله عذره ، ولم يزل الحجاح له معظماً هائبـاً حتى هلـك رضي الله عنـــه .

جواب الحجاج

وكتب الحجاح الى امير المؤمنين عبد الملك بن مروان . « بسم الله الرحمن الرحيم ، اما بعد اصلح الله امير المؤمنين وابقاه وسهل حظه وحاطه ولا عدا مناه ، فان اسماعيل بن ابي المهاجر رسول امير المؤمنين اعزّ الله نصره قدم عليّ بكتاب امير المؤمنين اطال الله بقاءه وجعلني من كل مكروه فداءه ، يذكر

شتيمتي وتوبيخي بآبائي وتعييري بما كان قبل نزول النعمة بي من عند امير المؤمنين اتم الله نعمته عليه واحسانه اليه ، ويذكرني امير المؤمنين جعلني الله فداه استطالة مني على انس بن مالك خادم رسول الله ﷺ جراءة على امير المؤمنين وغرة بمعرفة نقماته وسطواته على من خالف سبيله ، وعمد الى غير محبته ونزل عند سخطه ، وامير المؤمنين اصلحه الله من قرابته من محمد رسول الله ﷺ امام الهدى وخاتم النبيين احق من اقال عثرتي وعفا عن ذنبي فامهلني ولم يعجلني عند هفوتي للذي جبل عليه من كريم طبائعه وما قلده الله من امور عباده ، فرأى امير المؤمنين اصلحه الله في تسكين روعتي وافراج كربتي ، فقد ملئت رعباً وفزعاً من سطوته وفجأة نقمته ، وامير المؤمنين اقال الله العثرات وتجاوز له عن السيئات وضاعف له الحسنات واعلى له الدرجات احق من صفح وعفا ، وتغمد وابقى ولم يشمت في عدواً مكبا ولا حسوداً مصبا ولم يجرعني غصصاً ، والذي وصف امير المؤمنين من صيغته الي وتنويهه لي بما اسند لي من عمله واوطأني من رقاب رعيته فصادق فيه ، مجزى بالشكر عليه والتوسل مني اليه بالولاية والتقرب بالكفاية ، وقد عاين اسماعيل بن ابي المهاجر رسول امير المؤمنين وحامل كتابه من نزولي عند مسرة انس بن مالك وخضوعي عند كتاب امير المؤمنين ، واقلاقه اياي ودخوله بالمصيبة عليّ ما سيعلمه امير المؤمنين ، فان رأي امير المؤمنين طوقني الله بشكره واعانني على تأدية حقه ، وبلغني الى ما فيه موافقة مرضاته ، ومدّ لي من اجله ان يأمر لي بكتاب من رضاه وسلامة صدره ما يؤمنني به من سفك دمي ويرد ما شرد من نومي يطمئن به قلبي فقد ورد عليّ امر جليل خطبه ، عظيم امره ، شديد علي كربه ، اسأل الله ان لا يسخط امير المؤمنين وان يثبته في حزمه وعزمه وسياسته وفراسته ومواليه وحشمه وعماله وصنائعه مما يحمد به حسن رأيه ، وبعد همته انه ولي امير المؤمنين والذاب عن سلطانه والصانع له في امره والسلام . »

فحدث اسماعيل انه لما قرأ امير المؤمنين الكتاب قال :

- يا كاتب افرخ روع ابي محمد .

فكتب اليه بالرضا عنه ، ويرى القارىء من كتاب عبد الملك هذا وجوابه للحجاج والي العراق من قبله ان القوم كانوا يستخيرون العقوبة بالشتم ، والافحاش في السب واللعن عند عظم الجناية ، وكيف يتملق الضعيف للقوي ، ويحتمل ما يرد عليه منه ويتلقاه بالرضا والتسليم .

ونحن في الواقع فيما ذكرناه من هذين الكتابين ، وتكلفناه من نشرهما قد اغفلنا اموراً كثيرة فيها احراج فظيع ، وتوبيخ شديد ، ما كان يجب ان يصدر مثله من امير المؤمنين ، وهو الذي يستطيع ان يقطع ويصل ، ويعزل ويبقي ، ولكنها عادة درجت ، لم يكن القوم كما يظهر يجدون فيهما شراً ولا حرجاً .

ونشرنا هذين الكتابين لنؤكد امراً واحداً ... وهو ان عبد الملك كان يشعر بشدة الحجاج في العراق وسؤ أثره في سياسته الداخلية بينهم ، ولكنه لم يكن يجد من يقوم مقامه في هذا القطر المضطرب الثائر دائماً وابداً ، ثم انه كان يحفظ للحجاج خدماته ، ويقدر مآثره في توطيد الدولة وتوحيد الامصار فكان هذا من الاسباب التي حملت عبد الملك على ابقائه بعد ان فكر غير مرة في عزله وتولية غيره مكانه .

شخصية الحجاج :

والحجاج شخصية غريبة حقاً ، خلقه الله صارماً مراً ، يقتل الناس في سبيل تأييد الدولة لأهون مظنة واضعف شبهة ، ولا حيلة له في ذلك ، حتى ان هناك من المؤرخين من يقول انه كان يحب الدم ، ويسر للقتل ، وقد حاول عبد الملك غير مرة ان يرده في بعض الحالات الى اللين والسجاحة فلم يوفق .

والعراقيون لم يكرهو احداً كما كرهوا الحجاج ، ولم ينكروا ولاية احد مما انكروا ولاية الحجاج ، حتى لقد خالط بغضهم له اللحم ولصق بالعظم ، وجرى في اعراقهم مجرى الدم ، فلم يأت في ابان حكمه بحسنة إلا جعلوها موضع اساءة وعنت وإحنة ، ولا احسن يوماً في امر من الامور او شأن من الشؤون إلا احالوه الى ظلم واستبداد ، حتى بلغ بهم الامر ان لعنوه و كفروه ، وبلغ الامر ببعضهم ان جعل ذلك فرضاً واجباً .

والشيء الذي يظهر انه لا يحتمل الشك ولا يقبل الجدل ، هو ان الحجاج كان من هؤلاء الناس الذين يعتدّون بشخصيتهم القوية الممتازة ، وجرّ هذا الاعتداد الى نوع من الشذوذ ، بلغ به الى هذا التطرف والاغراق ، والوثوق بان الناس لن يسمعوا له ، ويطيعوا امره ، الا اذا اخذهم بالشدة وتولاهم بالغلظة فكان ما كان من امره وشأنه في سياسته وادارته .

ولا بد من الاشارة الى شيء خطير وظاهرة عظيمة يتعلقان بالبلدين الكوفة والبصرة ، وهما كل العراق ، فان وقوع هذين البلدين في هذا المركز الجغرافي البديع جعلها اكثر استقلالا واعظم حرية من غيرهما من المدن ، هذا الى ان سكانها وقد بلغوا اكثر من مائة وخمسين الف نسمة في البلد الواحد سنة ٥٠ للهجرة ، كانوا من العرب البدو الذين فتحوا الفتوح ، ووسّعوا رقعة الامبراطورية بسيوفهم مما كان يدعوهم الى الفخر والمباهاة ، فلذلك رأيناهم مما نزل عليهم حاكم وخضعوا له خضوع اهل الشام لحكامهم ، ولا جاءهم ثائر إلا سمعوا له وأيدوه احياناً ، وكما رفعوا راية الاستقلال السياسي ... رفعوا راية الاستقلال ايضاً في التشريع والقانون ، فمدرسة العراق في الحديث والتشريع هي مدرسة الرأي الحر ، وتحكيم العقل .

ولقد كان الحجاج من هؤلاء الذين يقبلون على الدنيا فاذا مولدهم مطلع عهد جديد ، ويمضون لمآبهم فاذا وفاتهم تاريخ ، رجل كان له الفضل الاكبر في

توطيد ملك عبدالملك بنمروان واولاده من بعده،وقدظهر في امة كان يعرف فضائلها ومساوئها كل المعرفة ، وعـاش في فترة من الزمن عجّت بالثورات ، وكثرت فيها القلاقل ، واخذ العرب يضربون بعضهم بعضاً بالسيوف والرماح، فما زال يدور حول العقبات،ويتحايل على الاختلافات بالزجر حيناً ،وبالقسوة والسيف حيناً آخر ، حتى لانت له النفوس على مضض ، واستقامت له الامور قوة وقسرا .

واما ان الحجاج قد تجاوز في الغلظة والجفوة والاستبداد كل حد ، فهذا ما لا شك فيه ، ولكن الرجل كان موظفاً انفذه عبد الملك بن مروان لتهدئة الامور في العراق ، فتكلف خطة اعتقد انها المثلى ، فكان مـا كان من شدته وغلظته واخذه البريء والمذنب على السواء ، وهو ما ينتقد عليـه ، ويستقبح منه ، ولكنه في الوقت نفسه تمكن من توحيـد الصفوف ، وتوطيد الامن ، فمشت جيوش العراق الى الهند والسند تدعو الى المثل الالهية العليا ، ونهدت في الوقت نفسه جيوش الشام تقتحم الصحراء الى افريقيا،تنشر فيها هذه الديانة المتواضعة التي دعا اليه محمد بن عبد الله — ولولا توطيد الحجاج للامن الداخلي في العراق ، لما استقام هذا ، ولا استقر ، ولا كان بالامكان تنفيذه واقراره — وما زال هذا شأنها حتى تجاوزت اسبانيا ونزلت منها الى فرنسا ، حتىعقدت ما بين المشرق والمغرب .

ومن غريب امر الحجاج وعبد الملك بن مروان ، انه بقدر ما كان الحجاج شديدا محباً لسفك الدماء ، كان عبد الملك حكيما محباً للسلم في سياسته واخذ الناس بالحلم واللين .

وفي التاريخ الكثير من اخباره التي تؤيد ما ذكرناه ، وقد كتب غير مرة الى الحجاج يلـّح عليه باستعمال الرفق والاقلاع عن القسوة ،ولكن الحجاج كان يعتذر بان مثل هذه السياسة تعد ضعفاً في نظر العراقيين وما دام الحجـاج قد

ضبط العراق ، ورتب شؤونه ووطد اموره ، فقد تركه عبد الملك وسياسته لايتعرض لهـا إلا في الاقل من الحالات .

وكان عبد الملك قد قضى حياة مضطربة قاسية في اول نشأته ، ولعل هذا سبب اعتداله ، فقد كان عمره عشر سنوات لما قتل عثمان ، وحاول المتآمرون قتل ابيـه مروان بن الحكم كاتب عثمان ، ممـا اضطر والده الى الهرب هو وعياله من المدينة ، ولا بد ان يكون هـذا القلق والاضطراب والخوف الذي استشعر به في صغره ، قد تولاه في كبره ، فادرك ان الحيـاة شاقة متعبة ، وانها شيء فان قصير ، مما حمله على الاعتدال في حيـاته ومعيشته ، وعدم التطرف والاغراق في اموره .

ادارة عبد الملك :

وجرى عبد الملك بن مروان في ادارة الملك على طريقة والده ، وطريقة معاوية في تخريج آله وعماله في سياسة البـلاد ، فزادت الامور استقراراً ، والاعمال تسلسلاً ، والعمال رغبة ورهبة ، والرعايا امناً ودعة ، وكثيراً ما كان يعمد الى الشدة لاتأخذه رأفة بخصوم دولته ، فقدقتل مصعب ابن الزبير وكان احب الناس اليه وأشدهم له إلفاً ومودة وقال في الاعتذار عن عمله: « ولكن الملك عقيم » .

ولقد قيل له ان يأخذ بسيرة عثمان فقال :« وما خالف عثمان عمر في شيء من سيرته ، الا باللين ، فان عثمان لان لهم حتى رُكب، ولو كان غلظ عليهم جنابه كما غلظ ابن الخطاب ما نالوا منه ما نالوا » ...

وقال : اني رأيت سيرة السلطان تدور مع الناس ...ان ذهب اليوم رجل يسير بتلك السيرة-اي باللين-أغير على الناس في بيوتهم ، وقطعت السبل وتظلم الناس ، وكانت الفتن ، فلا بد للوالي ان يسير في كل زمان بما يعلمه .

وهذا هو السر العظيم في نجاح الممالك في كل عصر وامة ، وقال عبد الملك يوماً : انصفونا يا معشر الرعية ، تريدون منا سيرة ابي بكر وعمر ولا تسيرون فينا ولا في انفسكم بسيرة رعية ابي بكر وعمر ، نسأل الله ان يعين كلا على كل .

وسأله ابنه الوليد : يا أبت ما السياسة ؟ قال : هيبة الخاصة مع صدق مودتها ، واقتياد قلوب العامة بالانصاف لها ، واحتمال هفوات الصنائع .

ولما ولى عبد الملك العراقين الحجاج بن يوسف الثقفي قال الحجاج :

– دلوني على رجل اوليه ... فقيل له : اي الرجال تريد ؟

قال : اريده دائم العبوس، طويل الجلوس ، سمين الامانة ، اعجف الخيانة لا يحنق في الحق مرة ، يهون عليه سؤال الاشراف في الشفاعة . فقيل له :

– عليك بعبد الرحمن بن عبيد التميمي ... فارسل اليه فاستعمله فقال له :

« لست اقبلها الا ان تكفيني عمالك وولدك وحاشيتك . »

فقال الحجاج : يا غلام ناد من طلب اليه منهم حاجة فقد برئت الذمة منه . فقال الشعبي : فوالله ما رأيت قط صاحب شرطة مثله ، كان لا يحبس إلا في دين ، وكان اذا اتى برجل نقب على قوم وضع منقبته في بطنه حتى تخرج من ظهره ، وكان اذا اتى برجل نباش حفر له قبرا ودفنه فيه حياً ، واذا اتى برجل قاتل بحديدة واظهر سلاحاً قطع يده ، فربما اقام اربعين يوماً لا يؤتى اليه باحد ، فضم اليه الحجاج شرطة البصرة مع شرطة الكوفة .

وخطب الحجاج اهل العراق : « اني رأيت آخر هذه الامة لا يصلح الا بما صلح به او لها، لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف ، واني اقسم بالله لآخذن الولي بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمطيع بالعاصي ، حتى يلقي الرجل اخاه فيقول . انج سعد فقد هلك سعيد ، او تستقيم لي قناتكم » .

ولما اتصل بعبد الملك اسراف الحجاج في القتل وانه اعطى اصحابه الاموال كتب اليه : اما بعد فقد بلغني سرفك في الدماء وتبذيرك الاموال ، وهذا مـا لا احتمله لاحد من الناس ، وقد حكمت عليك بالقتل بالقود ، وفي الخطأ بالدية ، وان ترد الاموال الى اصحابها ، فانما المال مال الله ونحن خزانه وقد متعنا بحق فاعطينا باطلاً .

وكتب الحجاج الى عبد الملك يستأذنه في اخذ الفضل من اموال السواد فمنعه من ذلك وكتب اليه : « لا تكن على درهمك المأخوذ احرص منك على درهمك المتروك ، وابق لهم لحوماً يعقدون بها شحوماً . »

وصية عبد الملك لأبنه :

وحرّض عبد الملك ابنه على المشاورة في قضاء الامور لما وسد اليه امـارة مصر قائلا له : انظر بني الى اهـل عملك فان كان لهم عندك حق غدوة فلا تؤخره الى عشية ،وان كان لك عشية فلا تؤخره الى غدوة ، واعطهم حقوقهم عند محلها ، تستوجب بذلك الطـاعة منهم ، واياك ان يظهر لرعيتك منك كذب ، فانهم ان ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق ، واستشر جلساءك واهل العلم فان لم يستبن لك فاكتب اليّ يأتيك رأيي فيه ان شاء الله ،وان كان بك غضب على احد من رعيتك فلا تؤاخذه به عنـد سورة الغضب ، واحبس عقوبتك حتى يسكن غضبك ، ثم يكون منك مـا يكون ، وانت ساكن الغضب مطفأ الجمرة ، فان اول من جعل السجن كان حليماً ذا اناة ، ثم انظر الى اهـل الحسب والدين والمروؤة ، فيكونوا اصحابك وجلساءك ، ثم ارفع منازلهم منك على غيرهم ، على غير استرسال ولا انقباض ، اقول هـذا واستخلف الله عليك .

وهذا من اجمل اساليب الادارة وسياسة الناس: لا تأخير في الفصل بينهم ، ولا كذب في الوعود والمواعيد ، واستشارة العارفين والعـالمين ، وجعلهم

وحدهم بطانة وسمـــاراً وجلساء ، ولا امراع في انزال العقوبات حتى يذهب الغضب ..

الرشوة !!

وبلغ عبد الملك ان بعض كتابه قبل هدية فقال له : « والله ان كنت قبلت هدية لا تنوي مكافأة المهدي لها فأنك لئيم دنيء ، وان كنت قبلتهـــا تستكفي رجلاً لم تكن تستكفيه لولاها فأنك خائن ،وان كنت نويت تعويض المهدي عن هديته وان لا تخون له امانة ولا تثلم له ديناً فلقد رضيت بما بسط عليك لسان معامليك ، واطمع فيك سائر مجاوريك ، وسلبك هيبـــة سلطانك » .

ثم صرفه عن عمله .

وذلك لان غاية الخليفة ترتيب قواعد الدولة على اصول نقية من الشوائب، والرشوة من طريق الهدايا تذهب بها حقوق احد المتنازعين او حقوقهما معاً .

وكان عبد الملك بن رفاعة امير مصر (٩٦) يقول :

-- اذا دخلت الهدية الباب... خرجت الامانة من الطاق . — الشباك — .

عبد الملك والجزية :

وادخل عبد الملك اموراً جديدة في الادارة وهو اول من افرد للظلامات يوماً يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مبـــاشرة للنظر ، وكان اذا جلس للقضاء أقيم على رأسه بالسيوف .

وزاد عبد الملك الجزية ، واقل الجزية دينار واكثرها مفوض الى الاجتهاد، فقد استقل ما يؤخذ منها بالجزيرة — وكانت ديناراً على كل جمجمة ومدّين قمحاً ، وقسطين زيتاً وقسطين خلا ، وضعها عليهم عياض بن غنم عند الفتح — فاحصى

عبد الملك الجماجم وجعل الناس كلها عمالاً بايديهم ، وحسب ما يكسبه العامل سنته كلها ، ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وادمه وكسوته وحذائه، وطرح ايام الاعياد في السنة كلها فوجد الذي يحصل بعد ذلك لكل واحد اربعة دنانير فالزمهم ذلك جميعاً وجعلها طبقة واحدة ، ثم حمل الاموال على قدر قربها وبعدها [1] ، وهذا خلا نوائب الرعية وهو ما يضربه عليهم الامام من الحوائج كاصلاح القناطر والطرق وغير ذلك مما فيه عمارة بلادهم .

نقل الدواوين الى العربية :

وفي ايامه نقلت دواوين مصر والشام والعراق من القبطية والرومية والفارسية الى العربية ، فكان ذلك من اهم الاسس التي أقيمت في بناء القومية العربية في الممالك الاسلامية كافة ، وقطع به اخر مظهر من مظاهر الاعاجم، فاصبحت البلاد عربية باوضاعها سائرة الى التعرب بسكانها . وكان كاتب الرسائل سليمان بن سعد الخشني من اهل الاردن اول مسلم ولي الدواوين كلها ، وكان يتولاها القبط والروم والعجم ، وكان بالبصرة والكوفة [2] ديوانان لاعطاء الجند والمقاتلة والذرية يكتبان العربية ، وديوانان بالفارسية ، وبالشام ديوان بالعربية لمثل ذلك ، وديوان بالرومية ، فحول ديوان العراق الى العربية ابو الوليد صالح بن عبد الرحمن البصري ، قدمه لذلك الحجاج ، فكان كتّاب العراقين كلهم غلمانه وتلاميذه [3] ، ونقل ديوان مصر من القبطية الى العربية عبدالله بن عبد الملك بن مروان امير مصر في خلافة الوليد ابن عبد الملك سنة سبع وثمانين ونسخها بالعربية ، وجعل على الديوان ابن يربوع الفزاري من اهل حمص ، وتأخرت بعض البلاد في هذا التغيير من رسم الادارة ، فان اول من

(١) الخراج لابي يوسف .

(٢) ادب الكتاب للصولي .

(٣) خطط المقريزي .

كتب بالعربية في ديوان اصبهان سعد بن اياس كاتب عاصم بن يونس عامل ابي مسلم صاحب الدعوة العباسية وهو اول من اخذ الناس بتعلم القرآن من اهل اصبهان ، يقال انه استقرأ المسلمين بها فلم يجد إلا ثمانين رجلا لم يكن فيهم من يحفظ القرآن الا ثلاثة ، فلم يحل الحول حتى تعلم الناس القرآن وحفظوه .

وعبد الملك اول من كتب على الدينار (قل هو الله احد) وذكر النبي في الطوامير [1] ، وكانت الدنانير رومية تدخل من بلاد الروم، والدراهم كسروية وحميرية [2] قليلة ، وهو اول من ضرب الدراهم المنقوشة ، وكان على خاتمه قبيصة ابو ذويب والبريد اليه ، يقرأ الكتب اذا وردت ثم يدخلها على عبد الملك فيخبره بما فيها [3] . ومن اهم اعمال الدولة وظيفة صاحب الشرطة ،ومن اعماله ان يحجب الناس ويحافظ على الخليفة ، وكان الامويون لا يأذن خلفاؤهم بالدخول عليهم الا بالترتيب الذي عينوه . والولاة ينزلون في المعسكر تحيط بهم الجند لتسهل المحافظة عليهم فلا يغتالهم مغتال ، وقد يتنقلون في عمالاتهم، فزياد يقيم بالكوفة ستة اشهر وفي البصرة مثلها [4] ، وهو اول من سير بين يديه بالحراب والعمد ، واتخذ الحراس خمسمائة لا يفارقون مكانه . وكانت تقرأ عهود القضاة الذين نصبوا حديثاً في المسجد الجامع اولا ، وكان الجامع في الاسلام هو المجمع والمجلس والمحكمة وديوان المال والمدرسة وكل ما له علاقة بالسلطان والسكان .

اما الولاة فيديرون ولاياتهم في المعسكرات ، والمعسكرات بعيدة عن دور الحكومة القديمة . و'ه ليس [5] من مدينة عظيمة الا وبها دار ينزلها غزاة تلك البلدة ، ويرابطون بها اذا وردوها ، وتكثر لديهم الصلات وترد عليهم

---

(١) الطومار الصحيفة والجمع الطوامير .
(٢) الاحكام السلطانية للماوردي .
(٣) طبقات ابن سعد .
(٤) تاريخ ابي الفداء .
(٥) المسالك والممالك لابن حوقل .

الاموال والصدقات العظيمة ».. واذا رحل الجيش واضطر الى النزول في القرى لشدة البرد في الشتاء يؤيه اهلها ثلاثة ايام ويُطعمونه مما يطعَمون .

عبد الملك بن مروان :

ولقد وصف رجل عبد الملك فقال : انه ليترك مخـــالفة الجليس توقياً لسؤ المجالسة ..

وقال عبد الملك للشعبي حين وفد عليه وحدثه : لقد حدثتني باحاديث قد مرّت عليّ ، ولكني أنصتت حتى تظن اني لم اسمعهـا ، وان ذلك لطرف من الادب .

ويقول المؤرخون : ان بعض العلماء يعدّون عبد الملك من الفقهاء . وكان يقال لعبد الملك في المدينة : حمامة المسجد... لطول عبادته .

وقال نافع مولى عبدالله بن عمر : لقد رأيت المدينه وما بها شاب أشدّ تشميراً ولا املك لنفسه ، ولا اظهر مروؤة من عبد الملك بن مروان . وكان عبدالله بن عمر ، يذكره بالصلاح ..

وقال المدائني وغيره : ان عبد الملك قال حين وجه يزيد بن معاوية الجيش الى ابن الزبير : « ليت السماء وقعت على الارض » اعظاماً لذلك ، ثم انه ابتلى بعد ذلك بان وجّه الحجاج اليه فقتله بمكة ورمى البيت .

وكان عبد الملك يرغب في تعليم اولاده الشعر لانه يُنَـجّدهم ويمجدهم .

وكان عبد الملك بخيلاً ، وكان يقول : اعطاء الشعراء من السرف ، ولكنهم قوم يتأتى لهم من الذم الباقي السائر مالا يتأتي لغيرهم ، فانا اتقيهم ببعض النوال ولا اتجاوز القصد .

ودخل اعرابي على عبد الملك فسأله ، فقال عبد الملك :

– ان علينا في مالنا حقوقاً هي اوجب من حقك .

فقال : والله لو كنت مثلك ما منعت راغباً .

فقال عبد الملك : اعطوه .

فأبى الاعرابي قبول عطيته وخرج ، فقيل له : لمَ امتنعت عن قبول صلته .

فقال : ان يد البخيل ثقيلة . ؟

تأديب عبد الملك لولده :

وقال عوانه : دعا عبد الملك بمؤدب ولده فقال له :

- اني قد اخترتك لتأديب ولدي ، وجعلتك عيني عليهم واميني ، فاجتهد في تأديبهم ، ونصيحتي فيما استنصحتك فيه من امرهم ، علمهم كتاب الله عزّ وجل ، حتى يحفظوه ، وَقِفهم على ما بيّن الله فيه من حلال وحرام حتى يعقلوه ، وخذهم من الاخلاق باحسنها ، ومن الاداب باجملها ، وروّهم من الشعر اعفّه ، ومن الحديث اصدقه ، وجنّبهم محادثه النساء ، ومجالسة الأظناء ومخالطة السفهاء ، وخوفهم بي، وادبهم دوني ، ولا تخرجهم من علم الى علم حتى يفهموه فان ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم ...

وكان المنصور يقول :

- الخلفاء ثلاثة ، معاوية وكفاه زياد ، وعبد الملك وكفاه الحجاج ، وانا ولا كافي لي .

. . .

وقال عبد الملك للهذيل بن زُفَر ، وحاتم بن النعمان :

- اني اريد اختصاصكما ومجالستكما ، فلا تمدحاني في وجهي فاني اعلم بنفسي منكما،ولا تطريا عندي ظنيناً فاستغشكما ،ولا تكذباني فليس لمكذوب رأى ، ولا تغتابا عندي احداً ، وقولا ما شئتما .

وكان عبد الملك يشتو بالصِنّبرة من الاردن، فاذا انسلخ الشتاء نزل الجابية، فاذا مضت ايام من اذار دخل دمشق فنزل ديرمروان ، حتى اذا جاءت حمّارة القيظ اتى بعلبك فاقام بهـــا حتى تهيج رياح الشتاء فيرجع الى دمشق ، فاذا اشتد البرد خرج الى الصنبرة .

قال المدائني : وبها مات يوم مات .

-١٨-

ايام عبد الملك الاخيرة

الفتوح والسياسة الخارجية

سياسة الفتوح :

نشط الحجاج بعد القضاء على الثورات الداخلية في العراق الى سياسة الفتوح ، وانصرف الى بسط سلطان الامبراطورية العربية فيما وراء النهر ، ومنغوليا والهند الى السند .

وقد بقي الحجاج في واسط لا يتحرك منها ، ولكنه كان يبعث البعوث ويجند الجنود ، ويعين القواد ، ويذهب بفخر الانتصارات المختلفة .

ومن المؤكد لدينا اليوم ان غلبة الحجاج على الخوارج والثورات الداخلية المختلفة ، هو الذي مكن لهذه الفتوح ، ولولا ذلك ، لظلت هذه الامصار البعيدة السحيقة ، بعيدة عن سيوف العرب المسلمين ..

ولكن هناك مستشرقاً افرنسياً يدعى «رينو» ، رأى في هذه الفتوحات التي يقوم بها قواد الحجاج ، اكثر ما رأينا ، فهو يذهب الى ان غاية الحجاج

منها كان مصلحته الخاصة لا المصلحة الاسلامية العربية العامة ، وان الحجاج كان يخشى تبدل نجمه ، وانقلاب امره ، وافلات الامر من يده ، فذهب يمهد لباقيات ايامه، بفتوح جديدة يستطيع الالتجاء اليها حين يهوي نجمه ، ويذهب سلطانه ، وهذه نظرية غريبة ، هي اقرب الى الخيـــال منها الى الامر الواقع والشيء المنظور ..

وشيء آخر ايضاً وهو ان الحجاج في الواقع كان يعلم علم اليقين ان سلطانه مستمد من امية وخلفاء امية ، وانه يستحيل عليه الاعتماد على غير بني اميـــة وجنود الشام في تثبيت سلطانه ومحاربة اعدائه وخصومه ، ولذلك كان يخدم العرش الاموي خدمة الرجل الذي يخدم نفسه ويحافظ على حياته . فاتهامه اذاً في الرغبة بشق عصا الطاعة اذا نزعوا عنه سلطانه امر بعيد عن الاحتـــمال غريب عن الحقيقة .. اذا كان هذا غرض المستشرق الفرنسي من قوله ..

والواقع ان المعارك بين العرب والترك على حدود خراسان كان دائماً وابداً امراً واقعاً منذ عهد معاوية ، فقد كانت هذه المنطقة الواسعة الاطراف ممزقة الى دويلات صغيرة يدفع بعضها الجزية للدولة العربية ، ويرفض البعض الآخر ذلـــك ، فكانت الزحوف والمعارك تقع دائمـاً بين هذه الدويلات الصغيرة والدولة العربية الناشئة ...هؤلاء يعملون للمحافظة على استقلالهم،وهذه تسعى لبسط سلطانها عليهم ..

فلما كان المهلب في خراسان سنة ٧٩ هـ. ، لم يوفق الى انتصارات حربية كما وفق مع الخوارج،ولكنه تمكن من ضبط خراسان وتهدئة الاحوال فيها في الفترة التي كانت ثورة عبد الرحمن بن الاشعث تهدد سلطان الحجاج في الشرق ، وتعمل على تمزيق الروابط السياسية التي تربط العراق بأمية ..

ومن المؤكد لدينا اليوم انه لو انضم المهلب الى ابن الاشعث ، ومشى بجنوده لنصرته ، لقضي على الحجاج القضـاء المبرم ، ولتمزقت الامبراطورية العربية

الى دولتين كبيرتين ...واحدة في الشرق واخرى في الغرب ..

ففي سنة ٨٠ للهجرة قطع المهلب نهر بلخ ونزل على (كش) فحاصرها، بينما كان ابنه يزيد يحارب ملك الختل ، ويتغلب عليه ، وفي هذه الاثناء مات المغيرة ابن المهلب بخراسان ، وكان قد استخلفه ابوه المهلب عليها ، مات في رجب سنة ٨٢ للهجرة ، فاتى الخبر يزيد بن المهلب ، واهل المعسكر ، فلما علم المهلب بالفاجعة استرجع وجزع حتى ظهر جزعه ، ثم دعا يزيداً ووجهه الى مرو ...ووصاه بما يعمل وان دموعه تنحدر على لحيته .

ثم صالح المهلب اهل كش ورجع الى مرو فمات في مرو الروز واستخلف ابنه يزيد ليقوم مقامه من بعده .

ولما علم الحجاج بوفاة المهلب اقرّ ابنه على خراسان ... وكان موت المهلب في سنة ٨٢ هـ.

فلما جاءت سنة ٨٤ للهجرة ، فتح يزيد قلعة (نيزك) ، وكان قد وضع عليها العيون، فلما بلغه خروج (نيزك) عنها، سار اليها فحاصرها ، فملكها وحوى ما فيها من الاموال والذخائر ، وكانت من احصن القلاع وامنعها ، وكان نيزك اذا رآها سجد لها تعظيما واكباراً ، ولما فتحها كتب الى الحجاج بالفتح ، وكان يكتب له يحيى بن يعمر العدواني فقال : « انا لحقنا العدو ، فمنحنا الله اكتافهم ، فقتلنا طائفة واسرنا طائفة ، ولحقت طائفة برؤوس الجبال ، وعرائر الاودية واهضام الغيطان واثناء الانهار » .

فقال الحجاج : من يكتب ليزيد ؟

فقيل : يحيى بن يعمر ، فكتب اليه ليحمله على البريد ، فقدم اليه افصح الناس ، فقال له الحجاج :

— اين ولدت ؟

قال : بالاهواز .

قال : فهذه الفصاحة !

قال : حفظت من كلام ابي ، وكان فصيحاً .

قال : اخبرني هل يلحن عنبسة بن سعيد ؟

قال : نعم كثيراً .

قال : ففلان ؟ ...قال : نعم .

قال : فاخبرني هل الحن انا ؟

قال : نعم تلحن لحناً خفياً ، تزيد حرفاً وتنقص حرفاً .

فقال له الحجاج . قد اجلتك ثلاثاً ، فان وجدتك بارض العراق بعدها قتلتك ...

فاذا كانت سنة ٨٥ للهجرة عزل الحجاج يزيد بن المهلب عن خراسان ، واختلف الرواة في سبب ذلك ، وان كان الحجاج في كتابه الى عبد الملك بن مروان الذي يستأذنه فيه بعزل يزيد ، يتهمهم بانهم (زبيرية) . . فكتب له عبد الملك يقول :

- اني لا ارى طاعتهم لآل الزبير نقصاً بآل المهلب ، وفاؤهم لهم يدعوهم الى الوفاء لي ...

فكتب اليه الحجاج يخوّفه غدره فكتب عبد الملك اليه :

- انت قد اكثرت في يزيد وآل المهلب ، فسّم لي رجلاً يصلح لخراسان..

فسمى قتيبة بن مسلم .

فاذن له عبد الملك عندئذ بعزل يزيد . فكره الحجاج ان يكتب له بذلك ، فكتب اليه يأمره ان يستخلف اخاه المفضل ويقبل اليه . ففعل ، وخرج يزيد من خراسان في ربيع الاول سنة خمس وثمانين ،واقرّ الحجاج اخاه المفضل تسعة اشهر ، ثم عزله ... وقيل ان السبب في عزله ان الحجاج لما

فرغ من عبد الرحمن بن الاشعث ، لم يكن له هم الا يزيد بن المهلب واهل بيته ، وقد كان اذلّ اهل العراق كلهم الا آل المهلب [1] ومن معهم بخراسان.

ويقال ايضاً ان الحجاج كان يبعث الى يزيد ليأتيه ، فيعتل عليه بالعدو والحروب ، فكان ما كان من اعتزامه عزله .

والواقع ان عزل يزيد بن المهلب مع صدقه في الخدمة ، واخلاصه لآل امية وللحجاج ، امر يستلفت النظر ، ويبعث على اطالة الفكرة ، والحجاج في الواقع كان غريباً مع عماله ، شديداً عليهم ، يحاول حملهم على رأيه حتى في سير الحروب ، وخطط الزحوف ، مع بعده عن ساحة العراك ، وقلة معرفته بالحرب والقتال ، وقد يكون من الاسباب التي حملت الحجاج على التنكر لآل المهلب ، ما استطار من شأنهم ، وفشا من امرهم ، وازدياد حب الناس لهم ، واذاً فنحن امام ظاهرة هي اقرب الى الحسد منها الى شيء آخر ...

عبد الملك والروم :

ولقد وجد عبد الملك نفسه في اول خلافته في حالة حرجة جداً، فقد كان هناك ابن الزبير في مكه يزاحمه على الخلافة ، كما كان هناك في دمشق وغير دمشق من امصار الامبراطورية ... جماعات من الناس ترتقب الفرصة السانحه لتعلن الثورة وتشق عصا الطاعة .

ورأى عبد الملك بثاقب نظره ، ان بطوقه توطيد عرشه وتثبيت ملكه في العراق والحجاز ومصر ، اذا كانت سورية وهي قلب دعوته ، ومصدر قوته ، ومادة خبزه ، هانئة وادعة ، لا يعكر اديمها خلاف ولا شقاق ...

ولم يكن من خطر على سورية الا من الامبراطورية البيزانطية التي كانت تقوم على حدودها وثغورها الشرقية . فرأى عندئذ من الحكمة وحسن

---

(١) ابن الاثير .

الرأي ان يجدد المعاهدة بين الدولة العربية والدولة البيزانطية وذلك سنة ٦٨٥ ميـــلادية .

على ان تدفع الدولة العربية مبلغاً من المال ، وعدداً من العبيد والخيول في في السنة للدولة الرومانية .

ولما مات قونسطنطن وخلفه جوستنيان الثاني طلب عبد الملك تعديـــل المعاهدة قليلاً لمصلحته ، وذلك فيما يتعلق بالمبلغ المالي المقرر دفعه ، على ان توافق حكومة القسطنطية بان يأخذ العرب نصف خراج ارمينيـــا وقبرص وبعض الجزر الاخرى .

ولعل اهم شيء في التعديلات التي أدخلت على المعاهدة المـــادة المتعلقة (بالمردة) ... والتي تنص على اخراجهم من لبنان حيث صار توزيعهم في امصار الامبراطورية البيزنطية ، وبذلك استطاع عبد الملك ان يمـــد سلطانه عـلى الساحل والجبل .

وكانت هذه المعاهدة المعدلة لمصلحة عبد الملك بن مروان والدولة العربية ما في ذلك شك ولا ريب ، فقد اطمأن عبد الملك الى حدوده الشرقية ، وحدود سورية من حيث الساحل ولبنان ، كما ان انسحاب المردة من الجبل وكانوا قد اخذوا يثورون ويغيرون على الحدود السورية ... ساعد عـــلى اقرار السلام والامان في ربوع لبنان والسواحل .

ولما انتهى عبد الملك من تسوية علاقاته مع الروم ، وجه همه للقضاء الى ابن الزبير وشيعته . وقد وفق الى ذلك توفيقاً تاماً وذلك في المعارك التي جرت بينه وبين مصعب بن الزبير في العراق ، وفي المعارك التي جرت بين الحجـاج وعبدالله بن الزبير في مكة ، ولمـا قتل ابن الزبير في ١٤ تشرين الاول ٦٩٢ ، اصبح عبد الملك سيد الامبراطورية العربية .

المعارك مع الروم :

ولم يحاول عبد الملك تبديل سياسته مع الروم في اول الامر ، وبعد انتصاراته الاخيرة ، فقد ظل حتى بعد نجاحه في القضاء على الفتن الداخلية يدفع المفروض عليه من المال والعبيد والخيول ، ولكن البلاط الروماني لم يحافظ على بنود المعاهدة ، فقد تقدم احد قواد الروم وهاجم بعض الاراضي الواقعة تحت الحكم العربي في ارمينيا ، فلم يحرك عبد الملك ساكناً ...

وليس يستطيع المؤرخ المعاصر معرفة السبب الذي حمل عبد الملك على التريث والهوادة ، وقد يكون سبب ذلك خروجه من الحروب الداخلية تعباً منهوكاً ، ففضل دفع المترتب عليه ، والسكوت على بعض حركات الحدود ، بدلاً من الاقدام على حرب جديدة ، لا يعرف احد ما تكون نتائجها ومصايرها ..

ولكن الامبراطور جوستنيان الثاني ، كان قصير النظر كما يظهر فلم يفطن الى مرامي السياسة العربية، وشجعته بعض العناصر في دولته ، فاعتبر موقف عبد الملك دليلاً على ضعف الدولة ، ورفض الدراهم المرسلة اليه والتي كان قد صار ضربها مجدداً في دمشق وعليها بعض آي القرآن الكريم ، فاعترض عبد الملك على الرفض ، وعدّه بعيداً عن المنطق والانصاف ، فاصرّ الامبراطور على ان يصار الى تسوية الخلاف المالي البسيط بقوة السلاح ، وكانت المعركة التي وقعت في كيليكيا عنيفة جداً ، مزق العرب فيها شمل الجيش الروماني البيزنطي ، واجبروا الامبراطور نفسه على الهرب ، وكان من جراء هذا النصر ان استولى العرب على جنوبي ارمينيا وجزيرة قبرص .

وفي الوقت نفسه كانت الجيوش العربية في افريقيا تطارد القوات الرومانية فيها ، حتى تمكنت من الظفر بها كلها ، وقد كلف فشل الرومان في قرطاجة الامبراطور (ليوناتوس) عرشه ، وفي عهد خلفه تيبريوس نجد المعارك تجري على

الحدود العربية الرومانية بين العرب والروم ٧٠٢ – ٧٠٣ ، ولكن العرب على الاجمال كانوا اكثر نجاحاً ، وامضى سلاحاً .

وفي السنة التي مات فيها عبد الملك عاد جوستنيان الثاني الى عرشه بعد ان هرب منه اثر فشله في المعركة التي جرت بينه وبين الجيوش العربية وانصرف الى الانتقام من خصومه في الداخل ، تاركاً العرب وشأنهم ، وفي سنة ٧١٠ – ٧١١ نجد الجيش العربي يتخذ خطة الهجوم على حدود الامبراطورية البيزنطية ، كما نجد الامبراطورية في حالة مؤسفة من الانحطاط والفوضى السياسية بعد موت جوستنيان الثاني .

جيش عبد الملك :

وكان جيش عبد الملك ومن بعده من العنصر العربي ، ولما توسع الامويون في فتوحهم شمالي افريقية وفتحوا الاندلس ... جندوا اناساً من البربر ومزجوهم بجند العرب .

وبعث عبد الملك ابنه مسلمة لغزو الروم فقدم الناس من جميع الآفاق ، وكان فيهم من قبائل العرب كندة وغسان وتميم وهمدان وربيعة وطي ولخم وجذام وقيس وجماعة من بني امية وقريش ورؤساء اهل الحجاز والجزيرة والشام ومصر . ثم عرض الناس فانتخب منهم ثلاثين الفاً من اهل البأس والنجدة ، واتخذ من الخيل والفرسان ثلاثين الفاً ، وولى على رؤساء كل طائفة واحداً منهم . ويقول البلاذري[١] ان مسلمة بن عبد الملك لما غزا (عمورية) حمل معه نساءه ، وحمل اناس ممن معه نساءهم . وكانت بنو امية تفعل ذلك رغبة بالجد في القتال غيرة على الحرم .

وكانت امور الحرب بيد الولاة في الولايات تقوم[٢] بها القبائل المهاجرة

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ...

(٢) معلمة الاسلام – مادة امية .

اليها ، اما جيش الخليفة الخاص وهو عبارة عن اجناد الشام،فكان خاصاً بقتال الروم وحماية الخليفة من فتنة داخلية ، وبفضل هذه القوى المخلصة للامويين ظفروا في الحروب الاهليه الكثيرة التي جرت في عهدهم .

وجرى عبد الملك على طريقة عمر ومعاوية وزياد والحجاج في اخذ نفسه بالتطلع الى استعلام بواطن امور الرعايا ، وكذلك كان في التطلع الى اخبار الروم وغيرهم ممن كانوا ابداً يكيدوا المسلمين ، ولما ثار الروم واستجاشوا على من بالشام من المسلمين في سنة سبعين ، صالحهم عبد الملك على ان يؤدي الى ملكهم في كل جمعة الف دينار خوفاً منه على الدولة ، وطمع الروم لافتراق الكلمة وقتال الامة على الملك [1] لما دعا عمرو بن سعد بن العاص الاشدق الى نفسه بالخلافة ، واستولى على دمشق ، وسار عبد الملك بجيوشه الى العراق ، ليملكها من ابن الزبير . فعمل عبد الملك في اتقاء بأس الروم كما عمل معاوية لما شغل بقتال علي ، فصالح الروم على مال يؤديه اليهم ، وليس من الحزم ان تحارب دولة حربين داخلية وخارجية في وقت واحد . وفعل عبد الملك مثل ذلك في مداراة الروم فجدد الهدنة مع ملكهم على ان يدفع لهم المبلغ الذي ذكرنا ... ويقاسم ملكهم خراج قبرص وارمينية على شرط ان يخرج المردة من جبلهم وكانوا عصوا عليه واتفقوا مع الروم ... وتعاونوا معهم ...

قول الجاحظ في عبد الملك :

ويعدّ عبد الملك في العلماء كما يعد من اكبر الساسة . قال الجاحظ : « كان عبد الملك بن مروان سنان قريش وسيفها رأياً وحزماً ، وعابدها

(١) دول الاسلام للذهبي .

قبل ان يستخلف ورعاً وزهداً : وهو اول من لقب من الخلفاء بلقب الموفق لامر الله ثم لقب الوليد المنتقم لامر الله ، ولم يشتهرا بهـــذين اللقبين كثيراً . واوصى عبـد الملك اولاده ان يعطف الكبير منهم على الصغير وان يعرف الصغير حق الكبير ، وحذرهم البغي والتحاسد ، واوصاهم باخيهم مسلمة وان يصدروا عن رأيه ، وان يكرموا الحجاج وزياد وعتبة بن ابي سفيان وخـالد القسري الذي تولى العراق زمناً طويلاً ، وقتيبة بن مسلم امير خراسان وفاتح خوارزم وسمرقند وبخارى الذي دخل الى ملك الصين وضرب عليه الجزيـة وامثالهم الذين كانوا في بني امية « قطب الملك الذي عليه مدار السياسة ، ومعادن التدبير وينابيـع البلاغة وجوامع البيان ، هم راضوا الصعاب حتى لانت مقاودها وخزموا الانوف حتى سكنت شواردها ، ومارسوا الامور ، وجربوا الدهور فاحتملوا اعباءها ، واستفتحو مغالقها حتى استقرت قواعد الملك ، وانتظمت قلائد الحكم ، ونفذت عزائم السلطان . »

ولاية العهد :

ويذهب بعض المؤرخين الى ان الحجاج كان صاحب الرأي في تولية الوليد بن عبد الملك الخلافة وسبب ذلك انه كان يخشى ان يقضي عبد الملك نحبه على حين غرة ، وهو شيخ كبير فيلي الخلافة من بعده اخوه عبد العزيز بن مروان ، ولي العهد ، ولم يكن يعطف على الحجاج ولا يثق به ، وكان الحجاج يعلم ذلك ، ويستشعر في قرارة نفسه خوفاً من عواقبه ، وفتقت له الفكرة يوماً وبعد ان خلا له الجو في العراق واستتب الامن وذلك في اوائل سنة ٨٥ للهجرة ، فكتب لعبد الملك كتاباً يزين له البيعة للوليد من بعده ، وكان عبد الملك يفكر في ذلك طويلاً ، ولكنه لم يكن يجرؤ عليه ، فلما وصله كتاب الحجاج وكان قد نصحه روح بن زنباع بمثل ذلك قبلاً ، استقام له الرأي في ذلك ، وكتب الى عبد العزيز بن مروان فقال :

– رأيت ان يصير هذا الامر لابن اخيك .

فابى عبد العزيز ، فكتب اليه عبد الملك ليجعل هذا الامر له ، ويجعله للوليد من بعده ، فكتب اليه عبد العزيز :

– «ارى في ابني ابي بكر ما ترى في الوليد» فكتب اليه عبد الملك ليحمل اليه خراج مصر ، فكتب اليه عبد العزيز :

« اني واياك يا امير المؤمنين قد بلغنا سناً لم يبلغها احد من اهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلاً ، وانا لا تدري اينا يأتيه الموت اولا ، فان رأيت ان لا تفسد عليّ بقية عمري فافعل »..

فرق له عبد الملك وتركه وقال للوليد وسليمان :

– ان يرد الله ان يعطيكما الخلافة ، لا يقدر احد من العباد على رد ذلك .

وبعد اشهر مات عبد العزيز ، فلما اتى خبر موته عبد الملك ، امر الناس بالبيعة لابنيه الوليد وسليمان ، فبايعوا ، وكتب بالبيعة لهما الى كل الامصار .

وفاة عبد الملك :

وفي منتصف شوال سنة ست وثمانين للهجرة ، توفي عبد الملك بن مروان وكان يقول : « اخاف الموت في شهر رمضان وفيه ولدت ، وفيه فطمت، وفيه جمعت القرآن ، وفيه بايع لي الناس ».. فمات للنصف من شوال حين امن الموت في نفسه ، وكان عمره ستين سنة ، وقيل ثلاثاً وستين سنة ، وكانت خلافته من لدن قتل ابن الزبير ثلاث عشرة سنة واربع اشهر إلا سبع ليال ...

ولما اشتد مرضه قال بعض الاطباء :

– ان شرب الماء مات ...

فاشتد عطشه يوماً فقال : يا وليد اسقني .

قال : لا اعين عليك .

فقال لابنته فاطمة : اسقيني ماء .

فمنعها الوليد ، فقال : لتدعنها او لا خلعنك ...

فقال : لم يبق بعد هذا شيء .

فسقته فمات . ودخل الوليد عليه وابنته فاطمة تبكي عند رأسه فقال :

– كيف امير المؤمنين ؟

فقيل له : هو اصح .

فلما خرج تمثل عبد الملك :

ومستخبر عنـا يريـد لنـا الردى
ومستخـبرات والدمـوع سواجم

واوصي بنيه فقال : « اوصيكم بتقوى الله فانهـا ازين حليـة ، واحصن كهف ، ليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حق الكبير ، وانظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه ، فانه نابكم الذي عنه تفترون ، ومجنكم الذي عنه ترمون ، واكرموا الحجاج ، فانه الذي وطـأ لكم المنابر ودوخ البلاد واذل الاعداء ، وكونوا بني ام بررة ، لا تدب بينكم العقارب ،وكونوا في الحرب احراراً ، فان القتال لا يقرب ميتة ، وكونوا للمعروف منـاراً ، فان المعروف يبقى اجره وذكره ، وضعوا معروفكم عند ذوي الاحسان فانهم اصون له ، واشكر لما يؤتي اليهم منه ، وتعهدوا ذنوب اهل الذنوب ، فان استقاموا فاقبلوا ، وان عادوا فانتقموا . »

عبد الملك في مرضه :

وكان عبد الملك عاقلاً حازماً اديباً لبيباً عالماً ، وقال زياد : كان فقهـــاء المدينة اربعة ، سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبـــير ، وقبيصة بن ذؤيب ، وعبد الملك بن مروان .

وقال جعفر بن عقبة : قيل لعبد الملك :

- اسرع اليك الشيب ؟

فقال : شيبني ارتقاء المنابر ، وخوف اللحن .

وقال عبد الملك عن نفسه : ما اعلم احداً اقوى على هذا الامر مني ، ان ابن الزبير لطويل الصلاة كثير الصيام ، ولكنه لبخله لا يصلح ان يكون سائساً ...

وقال ابو مسهر : قيل لعبد الملك في مرضه :

- كيف تجدك ؟

قال : اجدني كما قال الله تعالى . « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم . الآية » .

وقال المفضل بن فضالة عن ابيه : استأذن قوم على عبد الملك بن مروان وهو شديد المرض ، فدخلوا عليه ، وقد اسنده خصي الى صدره ، فقال لهم :

- انكم دخلتم علي عند اقبال آخرتي ، وادبار دنياي ، واني تذكرت ارجى عمل لي فوجدتها غزوة غزوتها في سبيل الله ، وانا خلو من هذه الاشياء فاياكم وابوابنا هذه الخبيثة ان تطيفوا بها ..

***

ويروى ان عبدالملك بن مروان لما اشتد مرضه قال : «ارفعوني على شرف» - على محل عال - ففعلوا ذلك ، فتنسم الروح ثم قال :

- يا دنيا ما اطيبك ان طويلك لقصير ، وان كبيرك لحقير ، وان كنا منك لفي غرور . وتمثل بهذين البيتين :

ان تناقش يكن نقاشك يا رب عذاباً لا طوق لي بالعذاب
او تجاوز فانت رب صفوح عن مسيء ذنوبه كالتراب

صفات عبد الملك :

وقد روى صاحب العقد ، ان عبدالملك بن مروان خطب الناس يوماً فقال :

« ايها الناس اني والله ما انا بالخليفة المستضعف - يعني عثمان بن عفان - ولا بالخليفة المداهن - يعني معاوية - ولا بالخليفة المأمون - يريد يزيد بن معاوية - فمن قال برأسه كذا ، قلنا بسيفنا كذا » ... ثم نزل

وخطب ايضاً الناس فقال : «ايها الناس ان الله حدّ حدوداً وفرض فروضاً، فما زلتم تزدادون في الذنب نزداد في العقوبة ، حتى اجتمعنا نحن وانتم عند السيف » .

ويتبين لنا مقدار ما اتصف به عبد الملك من الاداب الاجتماعية فيما ذكره المسعودي من ان بعض جلسائه قال له يوماً : اريد الخلوة بك . ؟

فلما خلا به قال له عبد الملك : بشرط ثلاث خصال : لا تطر نفسي فأنا اعرف بها منك ، ولا تغتب عندي احداً ، فلست اسمع منك ، ولا تكذبني فلا رأي لمكذب .

قال : أتأذن في الانصراف .

قال : اذا شئت .

***

وقال عبد الملك لسعيد بن المسيب : يا ابا محمد صرت اعمل الخير فلا اسرّ به ، واصنع الشر فلا اساء به ..

فقال : الآن تكامل فيك موت القلب .

وكان عبد الملك اول من غدر بالاسلام ، وقد تقدم فعله بعمرو بن سعيد ، وكان اول من نقل الديوان من الفارسية الى العربية ، واول من نهى عن الكلام في حضرة الخلفاء ، وكان النـاس قبله يراجعونهم ، واول خليفة بخل ، واول

من نهى عن الامر بالمعروف فانه ، قـال في خطبة بعد قتل ابن الزبير : « ولا يأمرني احد بتقوى الله بعد مقالي هذا إلا ضربت عنقه » .

بين عبد الملك والحجاج :

قال علي بن عبد الله : سايرت يوماً عبد الملك ، فما حاورنا الا يسيراً حتى لقيه الحجاج قادماً عليه ، فلما رآه ترجل ومشى بين يديه ، فخبّب عبـد الملك فاسرع الحجاج ، فزاد عبد الملك فهرول الحجاج . فقلت لعبد الملك : أبك موجدة على هذا ؟

فقال : لا ، ولكنه رفع من نفسه فاحببت ان اغضّ منه .

. . .

وكان الحجاج بن يوسف يستثقل زياد بن عمرو العتكي . فلما اثنت الوفود على الحجاج عند الوليد بن عبد الملك والحجاج حاضر ، قال زياد بن عمرو :

يا امير المؤمنين ، ان الحجاج سيفك الذي لا ينبو ، وسهمك الذي لا يطيش ، وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم .

فلم يكن احد بعد اخف على قلب الحجاج منه .

— ١٩ —

العراق مركز الثقل

في الموقف السياسي والعسكري

الموقف السياسي :

يذهب بعض المؤرخين حين يعرضون للحوادث السياسية والداخلية التي بسطناها في هذا الكتاب ، والى هذا الخلاف الذي نشب بين عبدالله بن الزبير ومروان بن الحكم ، الى ان امامة بن الزبير اسبق من امامة مروان ، وانه والحالة هذه احق بالخلافة منه .. وبيعته اوجب من بيعة مروان المتأخرة ..

فكان من اثر ذلك ان انقسمت الامصار العربية الى قسمين . . قسم يؤيد ابن الزبير ، وقسم يؤيد مروان بن الحكم في نزاعهما على الخلافة . . ولمن يجب ان تكون ..

قد يكون هذا منطق القضاء ورجال القانون ، ولكن السلطان عقيم كما يقول عبد الملك بن مروان ، والفضل في مثل هذه الحالات الاستثنائية انما يكون لصاحب القوة والجند، والكريم الباذل لاكتساب الانصار والاعوان...

وقد رأينا كيف تمكن معاوية بن ابي سفيان من الظفر بالخلافة ، ومحاربة امير المؤمنين بن ابي طالب ، وعليّ مـا ذلك شك اقرب الى الخـلافة صلة ، واحق بها منه ، ولكنه لم يوفق الى التغلب عليه لتفرق جنـده ، واختلاف امرهم ، بينما كان جند معاوية صفاً واحداً ، وجبهة واحدة ..

وكذلك رأينا ان العراق وحده كان محور الحركات السياسية والعسكرية في هذا العهد المضطرب ، إلا ما كان من امر عبدالله بن الزبير في مكة وكان امره هيناً كما رأينا ، واما العراق فقد ظفرت حوادثه بكل صفحات التاريخ في هذا العهد ، فاكثر المعارك خطراً ، وقعت في ارضه ، واكثر الملاحم شأناً حدثت في ربوعه ، وكل الثورات قامت بين قبائله وسكانه ..

فكانت البصرة والكوفة مركز الاخذ والرد ، والثقل والوهن في كل ما نشب في العراق من ثورات ، وحروب وزحوف وقلاقل ..

كانت الكوفة تريد الخلافـة لبني هاشم ولآل بيت الرسول بصورة خاصة، وكان اهلها اول من ساعد علياً ودعا حسيناً،ولما تثاقلوا عن نصرتـه ، ندموا لما فرطوا في بيعته ، وعادوا فجمعوا صفوفهم ، وتابوا عـن تثاقلهم ،وحاربوا عبيدالله بن زياد ، فقتل اكثرهم ، حتى ظهر المختار وجمـع صفوفهم ، وقضى على ابن زياد وقتله ومزق جنده ..

واما البصرة فلم تكن ترى رأي الكوفة في خلافة اهل البيت ، فبايعوا ابن الزبير وكتبوا اليه ليبعث لهم بوال يتولى امرهم ..

ويبدو ان خطر الخوارج الذي كان يهدد البصرة هو الذي حملهم على طلب الحماية من عبدالله بن الزبير .

كما ان العصبية القبلية ، كان لها شأنها في هذا الاختيار إذ كان اهل البصرة يفضلون رجلاً من مضر على رجل من اليمن ..

وكانت العصبية القبلية ، اي اختلاف القبائل العربية فيما بينها ، قد افسدت

الامور في البصرة ، واهل البصرة بحاجة الى الاتفاق والتعاون فيما بينهم ليبعدوا خطر الخوارج عنهم ، فكان ان فرض عليهم هذا الخطر التفاهم فيما بينهم على بيعة ابن الزبير ، وايدت قبيلة تميم هـــذه الحركة ، لان ابن الزبير كان يعود باصوله اليها ..

واما الكوفة فقد وقفت موقفاً وسطاً ، ايدت بيعة ابن الزبير ، نكاية ببني امية ، واختارت عامر بن مسعود ليكون عـــاملاً لابن الزبير عليها ، وكتبت له بذلك فاقر الاختيار ..

وظل ابن عامر اميراً عليهم حتى عزله ابن الزبير وولى مكانه عبدالله بن يزيـــد ..

وكذلك نرى ان موقف ابن الزبير من الحالة في العراق ، كان موقفاً هيناً ليناً ، لا يحاول فرض سلطانه ، ولا اختيار عماله ، تاركاً اهله يختارون مـــا يريدون ، راضياً ببيعتهم الضعيفة له ، وهي بيعة قلقة لم تكن تقوم على اساس ثابت بالتأكيد ..

فلم يكن سلطان ابن الزبير الذي فرضها ، وانما ظروف الموقف السياسي ، واذاً فقد كان من الممكن طبعاً ان تتبدل هذه البيعة او تضعف ، فيتبـــدل هذا الموقف ..

عمال يراقبون الموقف :

وكذلك وقف عمال ابن الزبير في المدينتين موقفاً اقل ما يقال فيه انه كان اقرب الى مراقبة الموقف منه الى تسيير الحوادث وتوجيه الامور .

علم عبدالله بن يزيد عامل ابن الزبير على الكوفة بامر التوابين الذين يتهيأون للخروج للطلب بدم الحسين بن علي ، وان المختار يراقب الموقف مع انصاره ليرى ما يكون مصير (التوابين).. فلم يحاول التدخل ، ولا اخذ بنصيحة من

حذره من المختار ووثباته ، واكتفى بالقول ، ان القوم يريدون قتلة الحسين بن علي ، وما انا ممن قاتله ولا ممن ساعدعليه ، واذاً فهم وشأنهم .. ولن اتعرض لهم بخير ولا شر .. ماداموا يحاولون حرب بني امية ، الذين هم اعداء عبدالله ابن الزبير ..

والواقع الذي اريد ان اصل عليه هو ان هذا العامل لم يقف هذا الموقف بامر من ابن الزبير ، ولا كان هو يسير في موقفه هـذا على سياسة مقررة للدولة ..

كان هذا رأيه الشخصي بالتأكيد ..

الجميع اعداء لابن الزبير ، فليضربوا بعضهم بعضاً ما داموا لا يحاولون بنا شراً ..

ولو كان ابن الزبير من اهل الدهاء لكان عليه ان يتكلف ، او يكلف عماله سياسة غير هذه ، بان يساعد التوابين مثلاً لمحاربة ابن زياد المقبل لاحتلال الكوفة ، واستلابها منه ، لا ان يقف مثل هـذا الموقف من الحركة ، وكان عليه على الاقل ان يدعو الناس للخروج مع التوابين لمحاربة ابن زياد ، لان الذين خرجوا مع سليمان بن صرد من التوابين لمحاربة ابن زياد لم يكونوا يزيدون عن خمسة الاف، وكان باستطاعة عبدالله بن الزبير وعامله ان يمدوا هذه الجماعة بعدد اكبر، وان يفرضا على المتثاقلين الخروج معهم لمحاربة العدو المقبل عليهم، لانه لو نجح ابن زياد في معركته مع التوابين، فسوف يمضي متوجهاً الى الكوفة وسيضطر اهلها عندئذ لمحاربته ، فلماذ والحالة هذه لايحاربونه جماعة واحدة بدلاً من محاربته منقسمين .. ؟

وخروج التوابين وهم بهذه القلة كان خطأ عسكرياً لا سبيل الى انكاره ولكن زعيمهم سليمان بن صرد ، اصرّ على الخروج بهـذا العدد رغم نصيحة اصحابه فكان ما كان من فشله ومقتله وانهزام انصاره ..

ويبدو ان سبب تخاذل بعض اهل الكوفة عنه ، ووقوف عامل ابن الزبير هذا الموقف منه ، ومن جماعته ، يعود الى انهم كانوا يدعون لخلافة آ ل البيت وطرد عمال ابن الزبير من العراق ، فكان لسان حال ابن الزبير وعماله والحالة هذه منه ومن جماعته ان قالوا في نفوسهم :

« كلهم اعداء ، فليضرب بعضهم بعضاً » ولكن زفر بن الحارث عامل ابن الزبير في قرقيسيا قدّم لهم المؤن والمال وعرض عليهم البقاء عنده ، وتوحيد الجهود لحرب ابن زياد ، ولكن سليمان بن صرد اصرّ على الذهاب اليه بمن معه ، ورفض البقاء ..

والغريب في امر (التوابين) وحركتهم انهم ناقضوا انفسهم منذ ابتـــداء الحركة . فقد كان اكثر الذين قاتلوا الحسين يقيمون فيهـــا ، فلماذا الذهاب والحالة هذه لحرب ابن زياد ، قبـــل القضاء على الاعداء في الكوفة نفسها ، ولكن ابن صرد وجماعته رفضوا هذا الرأي الذي عرض عليهم ، من محاربة هؤلاء الذين ساهموا في حرب الحسين ، لان منهم من كان من اقربائهم وبني عمومتهم ، فكان ان قلّ من نشط للذهاب معهم ..

وكانت للمختار في الوقت نفسه يد في تثبيط الناس عن التوجه مع سليمان بن صرد وجماعته ، وكان يقول في كل مجلس ومكان : « ان ابن صرد لا علم له بالحرب ولا خبرة ، وانه انما يذهب لقتل نفسه وجماعته في هذه الحملة . »

والقول الفصل في حركة (التوابين) هذه ان عبدالله بن الزبير قد أفسد امره بتخلفه عن مساعدتهم ، فقد كان الخطر عليـــه من الامويين أشد من خطر التوابين ، وكان من الحق عسكرياً وسياسياً ان يساعدهم لمحاربة عدوه ، فلما تخاذل عنهم ? كان كمن قضى على سلطانه بيده ..

الموالي في العراق :

ولقد تبسطنا فيما سبق من فصول في امر المختار وظهوره ، فلا حاجة بنا

والحالة هذه للعودة الى ذلك ..

والذي يهمنا الآن هو بحث الاسباب التي ادت الى نجاح المختار ، ولعلى اهمها تودده الى الشيعة بعد فشل التوابين ، وصرفه الاموال على رجـــاله ، وانضمام (الموالي) اليه ، وهم غير العرب من المسلمين ، الذين اساء اليهم ابن الزبير ، كما اساء اليهم معاوية قبله ..

فقد كان العمال الامويون يحرمونهم من العطـــاء والرزق ، ولا يساوونهم بالعرب المسلمين في كثير ولا قليل .. كما ابعدوهم عن الوظائف ، فكان الموالي والحالة هذه ينتهزون الفرصة للانضمام الى كل ثورة ، لعلها ترفع شأنهم وترفع الضيق عنهم ..

وكان المختار رجلاً ذكياً داهية بالتأكيد .. ادرك ان نصف سكان الكوفة من الموالي ، وان في ايديهم مورد الثروة ، فهم اصحاب الحرف والتجارة فعمل على استمالتهم ، كما استمال العرب والاشراف ايضــاً ، فظفر بصداقة الفريقين وتأييدهما ، وانضم عشرون الفاً من الموالي لجيش المختار ، وكانوا باكثريتهم من الفرس ، فاشركهم المختــار مع العرب في العطاء ، ووعدهم بالمزيد من الاموال والارض ، كما يقول (البغدادي) في الفرق بين الفرق .

ولما عاب احدهم على المختــار ، انه لم يسمع كلمة عربية في معسكره ، اعتذر ابراهيم بن الاشتر قائد جيش المختار ، وقال مبرراً سياسة المختار هذه:

« والله لو لم اجد إلا النمل لقاتلت الامويين بها .. فكيف بهؤلاء الذين هم اشد بصيرة في قتال جند الامويين من سواهم ، انهم اولاد الاساورة من اهل فارس والمرازبة » .

وقد وفق المختار ايضاً في اختيار ابراهيم بن الاشتر لحرب خصومه ، وكان ابن الاشتر قائداً بارعاً ، ورجلاً باسلاً شجاعاً ، احمس جنده فازدادوا بلاء ، وظفروا حيث فشل سواهم ..

واخيراً فشل المختار بعد ان تمكن من جند ابن زياد ومزقه ، وحين ارسل له ابن الزبير شقيقه مصعباً لمحاربته ، فتمكن منه مصعب بعد ان انفض جماعته من حوله وقضى عليه ..

ومن الاسباب التي ادت الى فشل المختـار انه لم يكن مخلصاً في دعوته ، كان يدعو لمحمد بن الحنفية في الظاهر ، ويدعو لنفسه في الباطن ، كما انـه احدث في الاسلام اموراً لم يقرها المسلمون ، وسخّر السماء والخرافات لتأييد دعوته ونظامه ، واخيراً تخلى عنه (ابن الحنفية) الذي كان يتـاجر باسمه ، ويقول انه وزيره ، وتبرأ منه ..

وكان من اسباب اخفاق المختـار ايضاً مساواته الموالي بالعرب واشراف الناس فغضب العرب عليه والاشراف ، وناصروا مصعباً وجنده .. وان كانت سياسته بشأن الموالي لم تمت بموته ، فقد شعر الموالي، بعد المعارك التي خاضوها، انهم قوة سياسية لها وزنها ولها خطرها ، وانهم يستطيعون بتضامنهم التأثير في مصاير الدولة لخيرهم ومصالحهم ..

ولم يكن عبد الملك بن مروان بالرجل الذى تغيب عنه مصاير هذا التطاحن السياسي في العراق ، فترك زعماءه يتطاحنون ويتحاربون ، فقد كفاه ابن زياد، شر التوابين ، وكفاه المهلب بن ابي صفرة خطر الخوارج ، وكفاه مصعب بن الزبير ثورة المختار ، وكلّ عدو له ولسياسته ، وكلما ضعف واحد منهم قـلّ خطرهم ، وخف وزن الباقين .

ولما انجلت المعارك الحربية اخيراً بفوز مصعب تهيأ له .. وسار اليه .

وقد وصفنا في الفصول السابقة شأنه معه ، وغلبته عليه ، واذا كان اهل العراق لم يؤيدوه التأييد المطلوب ، فلقسوته واسرافه في سفك الدمـاء ، خصوصاً في البصرة ، بعد ظفره بالمختار .. وان كان هناك من ينسب ذلك الى اصحابه ، وانهم هم الذين ارغموه على ذلك ، فقد كان المختـار في نظر الشيعة

رجلاً تمكن من الانتقام من الذين قتلوا اهل البيت ، وكان بين القتلى مئات من العرب، ومئات من الموالي، فنقم الطرفان على سياسة مصعب هذه.. كما نقمت عليه الشيعة هذا الاسراف في قتل من اخذ بثأرهم ، وعبر عبدالله بن عباس عن غضبهم بقوله :

« ذاك رجل – اي المختار – قتل قتلتنا ، وطلب ثأرنا ، وشفى غليل صدورنا ، وليس جزاؤه منا الشتم والشماتة »..

كما غضب بنو هاشم لما لحقهم من التعذيب على يد ابن الزبير ، وبلغت كراهية ابن الزبير لبني هاشم ان ابعد رجالهم ، ونفى محمد بن الحنفية ، واخرج عبدالله بن عباس الى الطائف .

ويزيد (اليعقوبي) صاحب التاريخ: ان ابن الزبير ترك الصلاة على رسول الله في خطبه، نكاية ببني هاشم ، واليعقوبي هواه مع آل البيت ، ولم يذكر هذا الخبر غيره من المؤرخين ، على ما اعلم .

واذا اضفنا الى هذا كله بخله والتزامه البقاء في مكة ، والدنيا في العراق والشام قائمة قاعدة ، ورغبة اهل العراق في تجنب الحرب بعد ان اقبل عبد الملك بن مروان بجيشه عليهم ، واخذ يغدق الاموال على كبارهم ، وقعنا على الاسباب التي ادت الى فشل ابن الزبير وانهيار سلطانه ، وقد بسطنا هذا كله في فصول سابقة من هذا الكتاب ، وان كان الذي يعنينا في هذا الفصل هو بحث الحالة السياسية والعسكرية في العراق نفسه ، من حيث انه كان ابعد الامصار الاسلامية العربية عن الاستقرار والهدؤ .. في الفترة التي نؤرخ لها.

والمستشرقون الى هذا يكادون .. يجمعون على ان الثقل السياسي في الامبراطورية الاموية كان في العراق .. ففيه قامت كل هذه الحركات السياسية والثورية والمذاهب الدينية .

ولأجل استقرار السلام في ربوعه صرف الأمويون اول عهدهم بانشاء دولتهم

كل جهودهم ، ووجهوا له كل جيوشهم ..

كانوا جماعة لا يستقرون على امير ، ولا يهدأون . وكانت الثورات ابـداً تعصف فيهم فتدفعهم الى امتشاق الحسام لمحاربة السلطان القائم .. حتى ولو كان هذا السلطان قوياً ثابت الاركان ..

وليس يعني هدوء الحالة في العراق بعد انتصار عبد الملك على مصعب بن الزبير فيه .. ان السلام قد عاد فانتشر بين ربوعه .. فان هـذه الاستكانة الموقتة كانت هدوءاً يستبق العاصفة او العواصف التي سوف تأتي ، والتي سوف يغذيها الموالي والخوارج والشيعة ، الذين كانوا يحـاربون الدولة الاموية حرباً شديدة قاسية قوية ، تشتد تارة ، وتسكن اخرى .. ولكنها لا تموت .

- ٢٠ -

مشكلة الموالي

في الدولة الاموية

مشكلة الموالي :

لعبت قضية الموالي دوراً كبيراً في تاريخ الدولة الاموية ، وكان من واجب الدولة ان تفصل في قضيتهم ، وتعطيهم حقوقهم التي اقرّها لهم الاسلام ، وضمنها لهم الخلفاء الاولون ..

والموالي جماعة من غير العرب الذين اسلموا بعد الفتح ، وانضموا الى العرب يحاربون معهم رجاء ان يحصلوا على الحقوق التي وُعدوا بها ..إن القوا السلاح ورضوا بالاسلام ديناً .

فلما استقرت الدولة الاسلامية سواء في عهد الراشدين ، ام في العهدالاموي بعد ذلك ، وجد الموالي انفسهم دون العرب مكانة وعطاء وحقوقاً ، فقد شمخ العرب بانوفهم عليهم ، واعتبروا انفسهم احسن منهم مكانة ونسباً وفضلاً .. حتى لقد سماهم بعضهم بالاعاجم ..

وانكروا زواج المولى بفتاة عربية ، وبالغوا في التهوين من شأنهم وخطرهم مع مخالفة هذا كله للاسلام ، وللسياسة التي درج عليها الخلفاء الراشدون ايام ابي بكر وعمر وعلي ..

ولم يكن الموالي بالتأكيد من الطبقات العامة من الشعب ، فقد كان منهم المتعلمون المثقفون ايضاً ، وكان بينهم من ينعم بنسب رفيع في قومه ، كما كانوا الى هذا يمثلون الطبقة العاملة في الدولة الجديدة ، إذ كانوا اصحاب الحرف المختلفة ، والمصالح العديدة ، كسكان البصرة من الفرس المسلمين الذين احتكروا تجارة البلدة ومختلف حرفها ، بينما ظل العرب يحافظون على طابعهم العسكري كجند الدولة ، كما كان يريدهم عمر بن الخطاب ان يكونوا ، وان كان عمر قد اعطى الموالي حقوقهم كاملة غير منقوصة ، فلم يهوّن من امرهم ولا حاول اذلالهم ، ولا سمح لاحد من العرب باحتقارهم .

وبانصراف العرب للحرب والسياسة ، وعدم اختلاطهم بالموالي ، سيطر هؤلاء على تجارة البلد التي ينزلونها ، وانصرف كثير منهم الى العلم والدرس ، حتى جاء عهد كان فيه الموالي رؤوس العلم والمعرفة في عهدهم ، لا يساوقهم في هذا احد من المسلمين العرب .. كما عرف عنهم شدة التدين والتقوى والمحافظة على شعائر الدين الى ابعد الوجوه والغايات ..

ومما يجب ان يذكر في هذه المناسبة ان اهل العراق كانوا اوثق اسباباً في العلوم ومختلف الصنائع والحرف ، عند الفتح من غيرهم من العرب المسلمين الفاتحين ، وان بلادهم كانت اكثر حضارة وثقافة من ارض العرب انفسهم ، فكان لا بد والحالة هذه ان يتجاوب الاسلام في مبادئه وعقائده مع المسلمين الجدد من ابناء هذا القطر ، وان تتعرض عقائده ونظمه الى بعض التفسير والتعليق يقوم بها ابناء البلاد المثقفين المتعلمين ، فكان ان كثرت المذاهب الدينية والعقائد الاجتماعية في العراق ، وان طغت في عددها على كل البلاد الاسلامية الاخرى ..

ومن الحق ان نقول ان حالة الموالي لم تكن سيئة دائماً وابداً .. فقد كانت احوالهم تتحسن حيناً وتسوء تارة وفاقاً لرغبة الخلفاء والعمال ، فان كان الخلفاء من اهل العدل والانصاف ، نعموا وسعدوا ، وان كانوا من اهل الجور والظلم ، تعرضوا للظلم والعنف ، وهذا القول يصدق على الطبقة العاملة دون الارستوقراطية منهم كالدهاقين مثلاً ، الذين هم ملاك الارض من الفرس ، فقد امتدت سيادة هؤلاء من العهد الفارسي الى العهد الاموي ، وكان لهم نفوذ كبير على اخوانهم عامة الفرس المسلمين ، كما تركهم الحكام المسلمون وشأنهم في اراضيهم وحفظوا لهم نفوذهم ، ليقوموا بجباية الاموال والضرائب للدولة الجديدة ، وهو مـــا كانوا يحسنونه ، وما كانوا يتكلفونه قبلاً ، ويقومون به في العهد الفارسي نفسه .

الارض في العراق :

ولقد ذكرنا قبلاً ، ان عمر بن الخطاب رفض توزيع ارض العراق الخصبة على الجند العربي الفاتح ، وقرر ان تبقى الارض ملكاً للدولة يزرعها اهلهـــا ويدفعون عنها الضرائب المقررة فتظل هذه الضرائب مورداً دائماً للدولة الناشئة تصرف منها على جيشها وموظفيها ومصالحها المختلفة .

فلما كان عهد عثمان خرج هذا عن وصية عمر ، وسمح للعرب بشراء الاراضي خارج جزيرة العرب ، فانتقلت الارض الخصبة الطيبة في العراق مع الايام الى اسر قليلة معدودة ، يستغلونها بواسطة الموالي من الفلاحين الذين كانوا يفرضون عليهم العمل في ارضهم ، في احوال صحية فاسدة ..

وكان عمر بن الخطاب كما قدمنا اعفى الداخلين في الاسلام من غير العرب من دفع الضرائب ، والجزية ، وساواهم بالعرب انفسهم ، فكان كثير من غير العرب الذين بقوا على دينهم ، حين يجدون مشقة في دفع الواجبـات المفروضة عليهم للدولة الناشئة ، يتقبلون الاسلام تهرباً من الضريبة ، وسوء المعـــاملة ... فقلت واردات الدولة ، في الوقت الذي ازدادت فيه حـــاجة الامويين الى

الاموال للدفاع عن دولتهم ضد الطامعين فيها .. فكان ان اضطر الخلفاء وعمالهم الى حرمان الموالي من الامتيازات التي كانوا ينعمون بها ، وان كان الامويون في الوقت نفسه لم يتبعوا سياسة مالية ثابتة في العطاء الذي كان ينقص ويقل وفاقاً لرغبة الخليفة ، وحاجته الى المال ، وان كان عطاء الموالي ابداً ودائماً دون عطاء العرب ..

لقد فرض معاوية للموالي خمسة عشر درهماً ، فرفعها عبد الملك الى العشرين ، وبلغ بها سليمان الخامسة والعشرين ، فلما استوى هشام خليفة زادها الى الثلاثين وهي ظاهرة تدل على ان بعض الخلفاء الامويين كانوا يعملون على زيادة عطاء الموالي وتحسين احوالهم ، وان كان هذا كله لم يصل بهم الى انصافهم الانصاف التام الشامل . واذاً فنحن امام طبقة فقيرة من طبقات الدولة ، لم يحسن الامويون تفهم طلباتها فاغفلوها ، فاخذت هذه الطبقة تحاول اصلاح حالتها بمختلف السبل التي تجدها في طريقها ، سواء اكانت هذه السبل ثورة عارمة ، ام فتنة صغيرة ..

كما ان الموالي كانوا من اصل فارسي باكثريتهم ، والفرس كانوا اصحاب سيادة وسلطان لم يكن للعرب مثلها في ماضيات ايامهم ، فانهيار سلطانهم وذوبانهم في هذا المجتمع العربي الجديد ، لم يكن يرضيهم ولا يسرهم ، فلا عجب اذا استجابوا لاحلام الماضي ، وراحوا يفكرون في دولة فارسية جديدة يعودون فيها سيرتهم الاولى من الحكم والسلطان ..

ولقد ادى هذا التنافر في الامتيازات والضرائب والمعاملة بين العرب والمسلمين من اصل فارسي ، الى ظهور الشعوبية ، التي قالت بمساواة العرب بالموالي ايام الدولة الاموية ، ثم بتفوق الفرس على العرب في مختلف شؤون الحياة خصوصاً وان معظم العرب لم يكونوا يحسنون شيئاً كثيراً من امور المعرفة في عهدهم الا ما كان من الشعر والخطابة ، فكان ان اضطرت الدولة الجديدة الى الاعتماد على

الموالي المتعلمين في الكتابة والحساب ، ووظائف الدولة ، فاحس هؤلاء بتفوقهم على العرب ، خصوصاً لما عظم شأنهم في مختلف ميـــادين المعرفة الاخرى ، فنبغوا في الفقه واصول الدين وتفسير القران ، وجمـع الحديث ، كما برعوا في الزراعة والصناعة والتجارة ، مما لم يصل العرب في اول عهدهم بانشاء الممالك الى مثله ..

ولهذا كله نرى ان قسماً كبيراً من الشعب الذي كان يسكن العراق، والذي لم يكن يعود بنسبه الى اصل عربي كان من الموالي ، وكان معـارضاً للسياسة الاموية ..

بعضهم عارضها لخروجها على الدين وبعدها عن مناهج السلف الصـالح ..

وبعضهم عارضها للسياسة التي اتبعتها في ظلمهم واستعبادهم ..

وبعضهم خالفها لانه كان يؤيد علياً وحفدته من بعده ..

وقد انضموا الى علي وحاربوا معاوية لان علياً ساوى بين الموالي والعرب في العطاء ، وكتب الى عماله يأمرهم بحسن معاملة الموالي ، وكان جيشه في النهروان لما خرج لمحاربة الخوارج ، يتألف من اربعين الف مقـاتل عربي ، وستة عشر الفاً من الموالي .

ولما قتل علي ، حارب الموالي مع الخوارج ، لانهم جعلوا الخلافة حقاً لكل واحد من المسلمين شرط ان يكون صالحاً تقياً ..

كما راحوا يوالون الخوارج ويساعدونهم في كل معركة خاضوها ضد الامويين.

وقد رأيناهم يساعدون عبدالله بن الزبير ضد يزيد ..

ثم يحاربون مع المختار ضد الامويين ..

ولما ثار عبد الرحمن بن الاشعث ضد الحجاج حاربوا معه .. مما يقطع بانهم كانوا ابداً سراعاً الى كل ثورة ضد الحكم القائم ..

ولما وقعت المعركة بين مصعب بن الزبير والمختار ، كان العرب في جيش مصعب اكثر عدداً من الموالي ، وكان الموالي في جيش المختار اكثر عدداً ، ولما نجح مصعب في القضاء على المختار ، وقتل انصاره ، وبينهم اربعة الاف من الموالي كما يقول المؤرخون ، غضب الموالي لفعلته هذه ، وتركوه يلقى مصيره مع عبد الملك بن مروان ، دون ان يرفعوا يداً لنصرته ، مع ان عبد الملك كان اعدى من مصعب عليهم واشد واقسى ..

فلما جاء الحجاج الى العراق دهم الموالي ما لم يكن لهم به عهد قبلاً من ظلم وشدة وسفك دماء ..

لقد اوصاه عبدالملك بن مروان حين ولاه العراق بالحزم والشدة ، واقامة النظام وبسط الامن في البلاد ، فاتخذ القوة لاقرار كل هذا ، واستعمل من الشدة لبلوغ اغراضه ما لم يعهده العراقيون في حاكم قبله .

وصبّ الحجاج نقمته على الموالي لانهم باعتقاده كانوا يؤيدون كل ثائر مفسد في الارض ، ولما كان في حرب مع الخوارج ، وفي جيش الخوارج بعض الموالي ، فقد اخذ يبعث الموالي الى الحرب ليضرب المولى بالمولى ، وليفيد من ضعف الاثنين معاً ..

كما رأى الحجاج تثبيتاً لسياسته ودعماً لحكمه ان يشغل الناس بالحرب والغزو والقتال ، فاخذ يبعث البعوث هنا وهناك ، وقد اقرّ هذه السياسة بصراحة تامة في عهد الوليد بن عبد الملك ، فشغل الناس بالحرب عن الثورات الداخلية والخلافات الحزبية ..

الحجاج وسياسته المالية :

ولقد اشرنا في مكان من هذا الكتاب الى مسألة رفع الجزية عن الذين كانوا يعتنقون الاسلام من الاعاجم ، وكان هؤلاء يعملون في الارض ، فاذا

ضاق بهم الامر وصعبت عليهم سبل العيش ، اعتنقوا الاسلام ، وغادروا الارض التي يعملون فيها الى المدن لينضووا تحت لواء الجيش، وتقيد اسماؤهم في دفاتر العطاء .. فكان من اثر هذا ان انخفضت موارد الدولة ، وقلت غلال الارض ، فاشتد الحال بالحجاج للنقص الذي الم بميزانيته ، وقرر فرض الجزية على من اسلموا حديثاً ، والزمهم بالعودة الى قراهم ليعملوا في الارض ، فلم يفدهم اسلامهم كما افاد من سبقهم ، فاستعظموا ذلك وأكبروه ، خصوصاً حين نقش على يد كل واحد منهم اسم القرية التي وجهه اليها ، وامره بالاستقرار فيها ..

فكان من اثر هذا ان اشتد الاستياء، وعمت المظالم . . واستبد اليأس بهؤلاء الموالي ، الذين كانوا يأملون خيراً باسلامهم ، فاذا بالحجاج يعيدهم سيرتهم الاولى قهراً وقسراً ..

وكان من اثر هذا الحقد الذي تولى الحجاج من ثورات الموالي الفرس المختلفة ان قام بتعريب الدواوين الى العربية ، وكانت تكتب قبله بالفارسية ، تماماً كما كانت قبل الفتح الاسلامي ، ليقضي بهذا على اخر صلة للفرس المسلمين بدولتهم القديمة ، كما راح يمسح الاراضي بالعربية ايضاً ، حتى لا تتعرض للتلاعب والاستغلال ، وكانت الارض قبلا تسجل في سجلات قديمة تعود الى العهد الفارسي البائد ، وبلغة غير اللغة العربية ، مما كان من نتيجته استغناء الحجاج عن الكتّاب الفرس الذين كانوا يتولون هذه الدواوين والسجلات ،ففقد الموالي والحالة هذه نفوذهم الماضي .

كل هذه العوامل ، دعت الموالى الى مساندة عبدالله بن الجارود في ثورته العربية ، بسبب الزيادة التي زادها عبدالله بن الزبير في العطاء لاهل العراق ، واراد الحجاج رفعها بحجة انها زيادة من رجل منافق وهو لا يجيزها .

فقام اليه ابن الجارود معترضاً يقول : « ان هذه الزيادة ليست زيارة فاسق منافق ، ولكنها زيادة امير المؤمنين عبد الملك قد اثبتها لنا .»

فكذبه الحجاج وتوعده ، وايد الجارود بعض رجالات العراق ، الذين كانت ستلحق بهم الخسارة اذا رفعت هذه الزيادة ، وبايعوه على اخراج الحجاج من العراق والكتابة الى عبد الملك ليولي امورهم غيره .

وانضم الموالي طبعاً لثورة ابن الجارود هذه كرهاً بالحجاج وسياسته ، ولكن الحجاج تمكن من تمزيق هذه الثورة والقضاء على رجالها كما قدمنا .

ثم كانت ثورة عبد الرحمن بن الاشعث ، وقد وصفنا خطرها في فصل سابق من هذا الكتاب ، واسبابها ، وقد أيد الموالي ابن الاشعث في ثورته هذه كما ايدوا كل ثورة سبقت ، وانضم الى جيشه كل غاضب ناقم على سياسة الحجاج من اهل البصرة والكوفة ، حتى اشراف العراق خرجوا معه وانضموا الى مواليهم لمحاربة الحجاج ، مما يقطع بان النقمة كانت عارمة عليه كما انضم اليه الشيعة والخوارج والقراء والعباد والمسيحيون ، كما يقول (الدينوري) في الاخبار الطوال ، بحيث كانت ثورة عامة شملت كل الطبقات ، وجمعت كل الاوساط ، فلم يجد الحجاج بداً من الاستعانة بجيش من الشام لمحاربة هذه الثورة الجديدة الجارفة ..

ولما وفق الى اخماد الثورة ، عمد الى الموالي يعذبهم ويسيء اليهم ،فازدادت نقمتهم ، وعظم عليهم خذلانهم في كل معركة خاضوها ضد الامويين .. حتى اخذ الكثيرون منهم يغادرون العراق هرباً من ظلم الحجاج الى بلاد الله الواسعة الاخرى .. خصوصاً الى الحجاز حيث كان عمر بن عبد العزيز حاكماً ،فأحسن اليهم وآواهم ، فغضب الحجاج وكتب الى الوليد بن عبد الملك الذي خلف والده عبد الملك في الخلافة بعد موته ، يشرح له خطورة هرب الموالي من العراق الى الحجاز وغير الحجاز على موارد الدولة ، فعزل الوليد عمر ابن عبد العزيز وولى مكانه خالد بن عبدالله القسري ، وامره باعادة كل من هرب من الموالي الى العراق .

وما لبث الحجاج بعد ذلك ان قرر اشغال الموالي وغير الموالي من اهل العراق بشؤون الغزو والفتوح ، فارسلهم في الغزوات التي كلف بها قوداه على حدود الصين والهند ، وهو ما سنبحثه في الكتاب المقبل .

الحجاج والمعارضة :

والواقع ان كل هذه الفتوحات التي وقعت في عهد الوليد بن عبد الملك ، انما كان سببها نجاح الحجاج في القضاء على الخوارج وثوارتهم الداخلية ، فلولا ذلك لظلت الدولة تجمد قواتها لحربهم، ولا تحرك ساكناً للقيام باي زحف خارجي .

واذا كان الخوارج قد انهكتهم الحروب ، ومزقتهم المعارك ، في عهد عبد الملك ومن اتى بعده من الخلفاء ، فان ثوراتهم في عهد من اتى بعده لم تكن من الخطر بحيث تثير اهتماماً ، فقد أصيب جميع ابطال الخوارج في المعارك المنصرمة وقتلوا ، فلم يبق والحالة هذه في الباقين همة لقتال او حرب إلا ما كان من بعض الثورات الصغيرة التي لا اهمية ولا قيمة لها كما قدمنا .

واما الحزب الشيعي فقد ظل متماسكاً في عهد عبد الملك بن مروان رغم الصدمات التي تعرض لها . وذلك بفضل سياسة المهادنة التي اتبعوها ، وسياسة (التقية) التي تكلفوها ، والتي كانت تقول ان من حق المرء ان يكتم عقيدته ولا يبوح بها اذا كان في اعلانها الموت والهلاك ..

وهو ما كانت تنادى بنقيضه الخوارج الذين كانوا يحاربون مخالفيهم في عقيدتهم ولو كانوا اكثر منهم عدداً او سلاحاً .

واما الشيعة فقد تحولوا الى المقاومة السرية ، والدعاية الخفية لعقيدتهم ضد خصومهم الامويين حين شاهدوا اغراق الامويين في السفك والقتل بكل من يخالفهم ويناهضهم ، فكانوا بذلك اخطر على الدولة الاموية من اية جماعة اخرى ..

وبعض المؤرخين الى هذا يذهبون الى ان ولاية الحجاج على العراق قد اضرّت به وافقرته، وهو ما لا ننكره لان الحروب دائماً تأتي بالتدمير والخراب والفقر ، ولكن العراق بالتأكيد لم تهدأ ثوراته ، لا قبل الحجاج ولا في عهده ، ولهذا فالقول بان الحجاج هو سبب هذه الثورات والفتن ليس من الحكمة في شيء ، وان كنا لا ننكر في الوقت نفسه ان سياسته الشديدة قد اثارت الاحقاد والخصومات ، وادّت في كثير من الاحيان الى بعض الثورات والحروب ..

وكان الحجاج في سياسته شديداً على اهل العراق لعدم ثقته بهم ، وخوفه من عصيانهم ، ويقول الجاحظ في علة عصيان اهل العراق على الامراء وطاعة اهل الشام : «ان اهل العراق اهل نظر وذوو فطن ثاقبة ، ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث ، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح والترجيح بين الرجال ، والتمييز بين الرؤساء واظهار عيوب الامراء .. واهل الشام ذوو بلادة وتقليد وجمود على رأي واحد ، لا يرون النظر ، ولا يسألون عن مغيب الاحوال، وما زال العراق موصوفاً اهله بقلة الطاعة وبالشقاق على اولي الرئاسة».

ويقول (فان فلوتن) : ان الحجاج كان يرى ان تعود بلاد العراق – مهد المعارضة التي قام بها الموالي – معقلاً للجيوش العربية كما كانت في عهد الخلفاء السابقين ، ولذلك اصدر امره الى الموالي الذين كانوا يتطلعون الى مساواتهم مساواة تامة باخوانهم في الدين من العرب للعودة الى ارضهم ودفع الجزية كما كانوا يدفعونها قبلاً .

وقد ذكر لنا (فون كريمر) كيف استطاع الحجاج ان يرغم هؤلاء المتجددين في الاسلام على دفع الضريبة التي كان يدفعها الكفار ، ثم تلك المقاومة العنيفة التي قاوموه بها ، بانضمامهم الى صفوف عبدالرحمن بن الاشعث .

وروى لنا مؤرخو العرب نتائج تلك السياسة القاسية التي كان الغرض منها العودة بنظام الضرائب الى ما كان عليه قبلاً ـ بعد ان اخذ بالنقصان بسبب

دخول هؤلاء في الاسلام ـ لان المسلم لم يكن يدفع ضريبة فكانت الضريبة والحالة هذه تؤخذ من غيره وسواه ..

وقد اجمع المؤرخون العرب على ان سياسة الحجاج هذه جعلت العراق في اسوأ حال ، وقد قال اليعقوبي : « وكان الحجاج اول من اخذ بالقذف والظنة وقتل بها الرجال ، وانكسر الخراج في ايامه فلم يحمل كثير امر ، ولم يجمع الحجاج من كل العراق إلا خمسة وعشرين الف درهم ، وكان خراجه في عهد معاوية ١٢٠ مليوناً من الدراهم .. »

وكذلك روى الطبري ان يزيد بن المهلب نظر لما ولاه سليمان بن عبدالملك ما ولاه من امر العراق في امر نفسه فقال :

ـ ان العراق قد اضرّ بها الحجاج ، وانا اليوم رجاء اهل العراق ، ومتى قدمتها واخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه ، صرت مثل الحجاج ادخل على الناس ، واعيد عليهم تلك السجون التي عافاهم الله منها » .

ولكننا امام هذا لا نستطيع ان ننكر على الحجاج امانته في عمله فلم يسمع عنه انه اختزن المال في عهد ولايته ، وقد مات في عهد الوليد بن عبد الملك ، ولم يترك وراءه غير سلاحه وبعض مئات من العملة الفضية .

وليس في التاريخ شخص وثق به ملك من الملوك او خليفة من الخلفاء كما وثق عبد الملك بن مروان الخليفة الاموي بالحجاج بن يوسف عامله على العراق وبلاد فارس وخراسان وما وراءها من امصار وبلاد ..

واذا استثنينا بعض الحوادث الصغيرة التي عاتب فيها عبدالملك عامله الحجاج وافضى اليه بغضبه وانكاره ، فان العلاقات بين الرجلين كانت ودية لا تشوبها شائبة ، حتى بلغ من ثقة عبد الملك ان اورثه لولي عهده ، واوصاه بالاحتفاظ به وعدم التفريط في امره ..

والحجاج في الوقت نفسه كان مغرقاً في اخلاصه لعبدالملك بن مروان ولاهل

بيته ، فكانت مصلحة عبد الملك فوق كل مصلحة عنده ، وفوق كل اعتبار ، وعبد الملك كان يعرف ذلك ، ويعلم ان الحجـــاج قد وطّد له ملكه، وهزم اعداءه ، وقتل خصومه ..

خذ مثلاً قصة سعيد بن جبير وهو من الفقهاء اهل التقوى والصلاح ، فقد خرج مع ابن الاشعث ، وكان الحجاج يأنف ان يعرض له مع تقواه وصلاحه ، فحدث يوماً ان ارسله خالد عامله على مكة اليه ، بعد ان قبض عليه في بعض شعاب مكة ، فقال الحجاج : لعن الله خـــالداً اما كنت اعرف مكانه بل داره ، والبيت الذي هو فيه بمكة ، ثم اقبل عليه فقال :

يا سعيد الم اشركك في امامتي ، الم افعل ؟ الم استعملك ؟

قال : بلى .

فقال الحجاج : فما اخرجك علي . ؟

قال : انما انا امرؤ من المسلمين يخطىء مرة ويصيب مرة ..

فطابت نفس الحجاج ثم عاوده في شيء .. فقال سعيد :

– انما كانت بيعة لابن الاشعث في عنقي ..

فغضب الحجاج ثم قال : افما كانت بيعة امير المؤمنين عبدالملك في عنقك.. يا حرسي اضرب عنقه ..

ويظهر لنـــا من هذه القصة ان الحجاج ما كان ليقتل سعيد بن جبير لو لم يقدم هذا بيعة ابن الاشعث على بيعة عبد الملك ..

الحجاج ومن شبب باخته :

وفي التاريخ امثلة كثيرة تدل على ان الحجاج كان يعفو حينـــاً عن خصومه اذا كان الامر لا يتعلق بعبد الملك وسلطانه ، فمن ذلك ان محمد بن عبد الله بن نمير الثقفي هرب من وجه الحجاج وكان يشبب بزينب بنت يوسف اخت الحجاج

وهو القائل فيها :

تضوع مسكاً بطن(نعمان)أن مشت ‏ ‏ به زينب في نسوة عطرات

يخبئن اطراف البنان من التقى ‏ ‏ ويخرجن شطر الليل معتمرات

فلما اتي به الى الحجاج عفا عنه .

وانظر الى شأنه بعد وفاة شقيقه محمد بن يوسف فقد كتب الى الوليد بن عبد الملك يقول :

« أخبر امير المؤمنين اكرمه الله ان أصيب لمحمد بن يوسف مائة وخمسين الف دينار فان يكن اصابها من حلها فرحمة الله عليه ، وان تكن من خيانة فلا رحمة الله عليه » .

فكتب اليه الوليد : اما بعد فقد قرأ امير المؤمنين كتابك فيما خلف محمد ابن يوسف وانما اصاب ذلك المال من تجارة احللناها له فترحم عليه رحمه الله.

* * *

وقال الوليد بن عبد الملك للحجاج في وفدة وفدها عليه ، وقد اكلا :

- هل لك في الشراب ؟

فقال : يا امير المؤمنين ليس بحرام ما أحللته ، ولكني امنع اهل عملي واكره ان اخالف قول العبد الصالح .. « وما اريد ان اخالفكم الى ما أنهاكم عنه » ، فاعفاه ..

والواقع ان علاقات الحجاج مع عبد الملك كانت اقوى منها مع خليفته من بعده ، ولعل سبب ذلك هذا الامد الطويل الذي طال به اتصال الرجلين وتحملهما اعباء الملك زمناً طويلاً ..

الحجاج وعائلته :

ولقد بلغ من حظ الحجاج وعظيم شأنه انه استطاع تزويج انسبائه من

شباب ونساء ،باشراف القوم في عهده والامراءفي زمنه ، كما استطاع في الوقت نفسه ان يوليهم مختلف المراكز العالية والمناصب الرفيعة .

فشقيقة محمد بن يوسف كان والي اليمن وكان شديداً مثله مغرقاً في القسوة والبطش .. وقد بلغ من شأنه وخطره ان زاد الخراج في عهده ، فجمع من ذلك مالاً كثيراً،ويحدثنا المؤرخون ان الحجاج وجد عنده بعد موته ما لا يقل عن مائة وخمسين الف دينار كتب بامرها الى الوليد كتاباً اشرنا اليه سابقاً ، فاجابه الوليد : انه يعلم ذلك ، وانه انما جمع مساله هذا من تجارته ، فليتركه والحالة هذه لاهله ولا يعرض له ...

ومن المؤكد لدينا ان الوليد سكت عن المال اكراماً للحجاج وخدماته ، واكراماً للميت واخلاصه ، ولو اتبع الوليد الحق والعدل لحجز مال (المرحوم) وصرفه الى بيت المال ، فليس يحق لعامل من العمال يأخذ راتباً من الخزانة العامة ان ينصرف لتجارة غير تجارة الوظيفة التي كلف القيام بامرها ، والعمل لخدمتها ...

والقصة نفسها الى ذلك تدلنا على مبلغ اخلاص الحجاج في عمله الاداري وتعففه ، وهو ما يؤيده التاريخ كل التأييد .

وكان لمحمد بن يوسف والي اليمن هذا ثلاثة ابناء وفتاة ، زوجها الحجاج ليزيد بن عبد الملك ، الذي اصبح خليفة سنة ١٠١ للهجرة ...

فانظر الى الحجاج يفشو امره ،ويخطر شأنه حتى يوفق الى تزويج بنات اخيه بالخلفاء انفسهم ...

وكذلك نرى ان الحجاج زوج ابنته الوحيدة بمروان ابن الوليد بن عبد الملك .

وكذلك نرى كيف راح الحجاج يسمي ابناءه الاربعة باسماء محبيه من بني امية ، فاسمى ابنه الاول محمد ، والثاني ابان ، والثالث عبد الملك ، والرابع

الوليد ...

كما نرى ان عبد الملك نفسه ايضاً اسمى احد ابنائه (محمد)، واسمى ابناً اخر الحجاج ، كأنما كان يحاول من ذلك التقرب من عامله ، والتلطف في بره وارضائه ...

وقد ارضى ذلك الحجاج واقرّ عينه حتى بلغ من امره ان اهدى الحجاج بن عبد الملك منزلا في دمشق ...

ويحدثنا المؤرخون ان الحجاج تزوج غير امرأة واحدة ، طلق بعضهن واحتفظ بالبعض الآخر ، ولكنه في الغالب لم يكن موفقاً مع زوجاته ، فقد كان كثير القلق مضطرب الخاطر ، شديد التشاؤم ابداً ، ومثل هذه الحالة لا تساعد على الراحة الزوجية المنشودة ، فقد تزوج الحجاج ام كلثوم بنت عبدالله بن جعفر بن ابي طالب ، ثم طلقها بامر من عبد الملك ، وكذلك طلق بنت عبدالله بن اسيد ، ويذكر لنا صاحب العقد الفريد بين زوجاته (الفارية)، وقبل ان يعين الحجاج لولاية العراق تزوج ابنتي النعمان بن بشير ، ثم طلقهما ايضاً ، ولكن اشهر زوجات الحجاج ، هند بنت المهلب ، وهند بنت اسماء بن خارجة ، ثم طلقها ايضاً وفاقاً لما يرويه الكامل في المبرد لمنام استشعر فيه شراً ، ثم ظهر تفسير هذا المنام بموت ابنه واخيه في وقت واحد .

في ايام الحجاج :

وكان الناس في ايام الحجاج اذا تلاقوا في المجالس والجوامع والمساجد والاسواق ، تساءلوا من قُتل البارحة ومن صُلب ، ومن جُلد ، ومن قُطع ، وانتهى بالحجاج الامعان في الظلم الى ان يأمر الناس بحلق لحاهم، ويعاقب المخالف له بذلك بتسميره في الحائط ، فيموت جوعاً والماً ، وهو لا يستطيع سبيلاً الى الحراك ...

وكان قوي البنية، متجسماً الى السمنة ، ولا يزال العرق متصبباً على جبينه وصدغيه من تحت قلنسوة قد احاطها بعمامة خضراء ، وكانت له مهابة تقصم ظهر الوافد عليه ، حتى لم ير من الناس من انبسط معه في الكلام او تجرأ ان يرفع اليه بصره إلا الاقل منهم .

وكان شديد التهويل في خطبه ، واذا صعد المنبر تلفّح بمطرفه ثم تكلم رويداً فلا يكاد يسمع ، حتى يتزايد في الكلام فيخرج يده من مطرفه ثم يزجر الزجرة فيقرع بها اقصى من في المسجد .

وكان يجد لذة في سفك الدماء وارتكاب مختلف الوان العسف والقمع .

وقال الذهبي : « انه كان شجاعاً مهيباً جباراً عنيداً ، ومخازيه كثيرة ، إلا انه كان عالماً فصيحاً مفوهاً مجوّداً للقرآن .

وكان الحجاج نهماً مبذراً مسرفاً ، خصوصاً في الحفلات والمآدب ، وكان كثير الخير في هذه الناحية ، حتى ذهب عبد الملك الى انتقاده والتشديد عليه ، وكان ينصب للناس الف خوان في رمضان ، وخمسمائة في غيره من الشهور .

شدة الحجاج وعبوسه :

وذكر المدائني ان الحجاج لم يكن يظهر لندمائه منه بشاشة ولا سماحة في الخلق إلا يوم دخلت عليه ليلى الاخيلية فقال لها :

– بلغني انك مررت بقبر توبة بن الحمير ، وعدلت عنه فوالله ما وفيت له ولو كان هو بمكانك وانت بمكانه ما عدل عنك .

قالت : اصلح الله الامير لي عذر .

قال : وما هو ؟

قالت : سمعته وهو يقول :

ولو ان ليلى الاخيلية سلمّت — عليّ وفوقي جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة او زقا — اليها صدى من جانب القبر صائح

« وكان معي نسوة قد سمعن قوله فكرهت ان اكذبه » فاستحسن الحجاج قولها وقضى حوائجها ، وانبسط في محادثتها ، فلم ير منه بشاشة واريحه مثل ذلك اليوم .

. . .

ومرض الحجاج يوماً – وذلك قبل مرضه الذي توفي فيه – فارجف اهل الكوفة ، فلما تماثل من علته صعد المنبر ، وهو يتثنى على اعواده فقال :

« ان اهل الشقاق والنفاق نفخ الشيطان في مناخرهم ، فقالوا مات الحجاج ومات الحجاج ، والله ما ارجو الخير كله الا بعد الموت ، وما رضي الله الخلود لاحد من خلقه في الدنيا إلا لاهونهم عليه ابليس » .

قتلى الحجاج وسجنه :

ولقد احصي من قتل الحجاج صبراً سوى من قتل في عساكره وحروبه فوجد مائة وعشرين الفاً ، ومات في حبسه خمسون الف رجل وثلاثون الف امرأة ، منهن ستة عشر الفاً مجردة ، وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد ، ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف ، ولا من المطر في الشتاء ، وكان له غير ذلك من العذاب .

وذكر انه ركب يوماً يريد الجمعة فسمع ضجة فقال : ما هذا ؟

فقيل له : المحبوسون يضجون ويشكون ما هم فيه من البلاء ..

فالتفت الى ناحيتهم وقال : اخسؤوا فيها ولا تكلمون ..

فيقال انه مات بعد تلك الركبة .

وما ذكرناه من عدد المسجونين في سجن الحجاج يكاد يجمع عليه اكثر

المؤرخين ، وان كان بعضهم يذهب الى زيادة العدد ، ويقول اخرون انه هلك في سجن الحجاج ما لا يقل عن خمسين الفاً من الرجال والنساء ..

ولما اشتد الحال باهل العراق اخذوا يهاجرون الى الحجاز ، وكان على الحجاز الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز ، فكان هذا لا يعرض لهم بخير ولا شر فاغضب ذلك الحجاج ، وكتب الى الوليد يقول له : ان عامله على مكة لا يرى كبير امر في الاحسان الى المعارضين والثوار الذين يهربون من وجهه ، ولما كان الوليد مثله شدة ونقمة فقد عزل عمر بن عبد العزيز عن مكة . وولى عليها خالد بن عبدالله القسري الذي كان شديداً جباراً ..

- ٢١ -

التعليم الحر في الدولة الاموية

وقصة المرأة العربية في عهدها الاول

التعليم الحر :

لقد عرضنا لعهد عبد الملك بن مروان في مختلف الوانه وأشكاله فذكرنا حروبه ومكايده ، وبسطنا القول في حكامه وقواده ، ونشرنا طرفاً من ادارته وسياسته ، وشيئاً من اخباره في سره وعلانيته ، ونعرض الان لناحيتين من النواحي التي برزت وظهرت في هذا العهد ، واولهما التعليم الحر الذي كان يسير سبيله دون ما وازع ولا مؤيد من الدولة ، وثانيهما شأن المرأة في هذه الفترة من الزمن التي تقطعت بين الجاهلية واستقرار الاسلام ..

والثابت ان العلم كان حراً لا تشرف عليه الدولة في العهد الاموي ، فلم تكن للمعارف صفة حكومية .. كديوان الجيش او ديوان الخراج ، او القضاء وغير ذلك ، فكان تأسيس المدارس ونشر العلم شيئاً يقوم به الافراد ، لا تدخل الدولة في شأنه ، ولا تحاول فرض سلطانها عليه .

ولقد يذهب بعضهم الى انه كانت هناك مدارس في المدن العربية المتحضرة عهد الجاهلية .. ويشيرون الى وجود الاثار التي تدل على ذلك .. وقد لا يخلوا هذا من مبالغة ، لكن النقوش التي وجدها الباحثون ، تدل على وجود الكتابة كما تدل آلات الزراعة والعمارة على وجود علم وحساب ، وكما يـــدل الشعر الذي وَصَلنا ، على نفوس عالية وعقول مرهفة ، وكما تدل أخبار الحروب والايام ، على بطولة وشدة .. فالحياة في الجاهلية - حياة الحضر وحيـــاة البدو - كانت تخضع لبعض نُظُم في التربية والتعليم ، تساعد عـلى إعداد الرجال والنساء للحياة ، وهذا كله من مطالب التربية . اما التعليم فلاأستطيع أن أؤكد وجود المدارس ، ولكني أستطيع القول بوجود من يُعَلِّم و من يتعلم ، وكان ذلك بالطبع مقصوراً علىامور أولية ، أساسها القراءة والكتابة وشيء من الحساب ، وأخبار الماضين ، ورواية الشعر ، والقصص .. والظاهر ان ذلك كان يتم بطريقة بسيطة اولية ..

وقد جاءنا في اخبار الجاهلية شيء عن أهل الكتاب ، وعملهم كمعلمين لبعض العرب ، ولكنهم كانوا عادة يسكنون المدن ، وتأثيرهم في هذه الناحية يكاد يكون محصوراً في الحضر لا في البدو ، كما جاءنا أيضاً خبر الحنفاء ، الذين ظهروا قبل الاسلام ، فبعضهم كان يعرف القراءة والكتابة . ومثل هذا يقال في بعض التجار والزعماء ، الذين كانوا يقرأون ويكتبون ، وهذا يفسر وجود بعض الكتاب عند ظهور الاسلام ، ومنهم عمر وعلي ومعاوية وغيرهم .

وليس يعتبر هذا ، دليلاً على وجود المدارس ، وانتشار المعلمين في الجاهلية ، فوجود المدارس أمر يحتاج الى برهان وفشوّ الأميـــة في البادية ، امر يكاد ينعقد الاجماع عليه . أما وجود بعض القادرين على القراءة والكتـــابة بين الحضر وبين بعض البدو ، فأمر لا يمكن نكرانه . هذا مع العلم بان التربيـــة الجاهلية ، كانت قوية في نواحيها المختلفة . فالعربي في الجاهليـة كان قوياً في

ذهنه ، قوياً في روحه ، قوياً في بدنه ، مع افراط سَبَبُهُ حياة البداوة ودواعيها. فلما جاء الاسلام وضع حدوداً لهذا كله ، وبدأ عهداً جديداً في حياة العرب ، فيه تربية يعاونها تعليم ، وفيه تعليم اساسه تربية ...

فشو الامية :

وفي المصادر التاريخية التي بين ايدينا، انه كان في العرب بضعة نفر ، يعرفون القراءة والكتابة . ويُفهَم من صيغة هذا الخبر ، ومن القرائن الاخرى ، ان ذلك كان يُعَدُّ من المؤهلات النادرة . وتذكر هذه المصادر ايضاً ، ان رسول الله جعل بدل فداء الذين يعرفون القراءة والكتابة من أسرى قريش ، تعليم عدد من المسلمين الأوّلين ، القراءة والكتابة ، وتدل هذه الرواية التاريخية ، على أمرين ، أولهما : فشُوُّ الأمّيّة بين المسلمين الأولين ، وعدم وجود من يعلمهم ..

وثانيهما : اهتمام النبي ، بالقراءة والكتابة . ورغبته الملحة في نشر العلم والتعليم ..

وكان مبدأ طلب العلم قراءة القرآن الكريم وحفظ آياته وفهم معانيه ، وكان هذا بدء نشر العلم والتعليم في تاريخ العرب، فقد انبثق عن حفظ القرآن جماعة القراء الذين كانوا يحفظون القرآن.. والذين يعتبرون اول المعلمين في تاريخ الاسلام ، لأنهم كانوا يعلمون الناس قراءة القرآن، وحفظه وفي المصادر التي بين ايدينا ما يدل على ان الخلفاء الراشدين كانوا يرسلون هؤلاء القراء الى الامصار المفتوحة لتعليم الناس القرآن ، وحفظه ، وأقدم نص وجدناه في ذلك ما فعله عمر بن الخطاب في السنة السابعة عشرة للهجرة .

وعلى هذا فتدوين القرآن الكريم ، يُعدُّ من أهم الاعمال الدينية والعلمية ، في تاريخ الاسلام ، لأن استشهاد كثير من القراء في الحروب ، أدى الى

الاختلاف في الرواية ، فكُتِب القرآن الكريم ، زمن عثمان بن عفان وأُرسلت منه النسخ الى الامصار لمنع الاختلاف وكان هذا اول مبدأ حركة طلب العلم ، والاهتمام بالكتابة .

وكما كان القراء أول المعلمين ، كانت المساجد اول المدارس ، في تاريخ الاسلام ، فكان القراء يتلون القرآن ، على الراغبين في العلم، في المكان المخصص للصلاة ، ويعلّمون القراءة والكتابة لمن شاء ، في اي مكان آخر . أي إنه ربما يصح اطلاق اسم المدرسة ، على كل بيت او مكان يجتمع فيه الذي يتعلم ، والذي يعلّم لغرض الدرس والتحصيل. واما تعليم القرآن، او تعليم القراءة والكتابة او غير ذلك ، من الحساب او الشعر او القصص ، فكان يتم دون نظام معروف .

والظاهر ان التعليم ، كان مجاناً لوجه الله ، في اوائل صدر الاسلام ، ولا نجد رواية عن الاجور والتكسب ، الا في الادوار التي جاءت بعد ذلك .

فالتعليم في زمن الرسول ، والخلفاء الراشدين ، كان اذاً يتناول ناحيتين ، الاولى : حفظ القرآن الكريم وتلاوته وفهم معانيه ، والثانية : القراءة والكتابة ومباديء الحساب والشعر والقصص ، أما التربية فكانت خاضعة لتعاليم الاسلام من جهة ، ولعادات العرب من جهة اخرى. وأساسها : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمرؤة ، وضبط النفس ، والكرم ، والعفو عند المقدرة، وكان بميسور المسلم العربي ان يتعلم القرآن الكريم ، والقراءة والكتابة ، في الجامع او في البيت ، ولكن تربيته كانت تعتمد على القدوة والمحاكاة ... القدوة برسول الله ، ومحاكاة خلفائه واصحابه ، واذا قيس نظام التربية والتعليم بنتائجه ، جاز القول ، إن المبادىء البسيطة ، التي سادت عصر الخلفاء الراشدين في هذا الباب ، نشأ عنها خير النتائج ، فانها لم تنتج العلماء الكبار فحسب ... وانما انتجت الرجال الكبار ايضاً ..

ونرى في الانتقال الى العهد الاموي ، شيئاً من التقدم في ناحية التعليم ،

ولكنا نلحظ شيئاً من الاضطراب في التربية ، وتذكر المصادر ، ان خلفاء بني امية كانوا يهتمون اهتماماً خاصاً ، بتربية ابنائهم وتعليمهم . فمثلاً كانوا يرساون الصبي الى البادية ليتعلم النطق بالعربية الصحيحة ، وليتعود حياة الشدة والقوة ، وكانوا يعينون (المؤدب) ، ليقوم على تعليم الصبي ، القرآن الكريم ، والقراءة والكتابة ، والحساب والقصص والشعر . ويجد الباحث في كتب الادب والتاريخ كلمة (كـُتّاب) ، ويرجع بها مؤلفو هذه الكتب ، الى اوائل القرن الثامن للميلاد ، اي المدة الاخيرة لبني آمية . ويذكرون كذلك ، ما يدل على ظهور المعلم المحترف ، والمعلم المكتسب . ونجد ما يدل على ان ابناء الخاصة ، كانوا ينالون قسطاً لا بأس به من التعليم ، مع شيء من التهذيب والتربية ، يتناول النواحي الثلاث في الحياة — الناحية الروحية والعقلية والبدنية – ونجد أيضاً ، ما يدل على ان الناس إجمالاً ، كانوا يعنون بتعليم ابنائهم ، وتهذيبهم ، وتربيتهم ، عناية كافية . فوجود (الكـُتّاب) و (المؤدب) ، وذكر الاجرة ، يدل على امرين الاول: رغبة الناس في التعلم، واستعدادهم لدفع المال في هذا السبيل ، والثاني: ظهور الرغبة في طلب العلم الدنيوي ، لما يعود عليهم من المكاسب الدنيوية بسببه . وفي هذا ما يدل على اتساع نطاق التعليم ، في عهد بني امية، عما كان عليه في زمن الرسول والخلفاء. وذلك طبيعي ... لان حياة العرب في خارج الجزيرة ، كانت حياة مدنية تتطلب القراءة والكتابة ... ولان بني امية ناصروا السيادة العربية دون السيادة الاسلامية ، فكان لا بد لهم من الاتجاه الى الدنيا ، اكثر منهم الى الدين .

التعليم في العهد العربي :

ومن مظاهر التقدم في التعليم ، وضع قواعد الخط العربي ، واتخاذ اللغة العربية لغة رسمية للدولة ، وظهور طبقة من الناس ، اتخذت تعليم الصبيان

عملاً لها . . وكان من نتائج إيثار بني امية للعنصرية العربية ، ما نشأ عن ذلك من فرق سياسية ودينيــــة ، مختلفة في مثلها وغاياتها ، وما دخل على العرب من آراء ، جاءتهم عـــن طريق الروم والعجم . . .

والواقع ان نشوء الخط العربي ، أمر غامض في التاريخ ، ولكن الشائع عند كتابهم ، ان الخط الذي عرف في الحجاز ، قبل ظهور الاسلام ، منقول عن اهل الحيرة والانبار ، ويرجع بأصله الى الخط المسند ، ومن هـــذا الخـــط الحجازي ، نشأ الخط الكوفي بعد الاسلام ، وهو يمتاز عن الحجازي ، بتجويد شكله وهندسة حروفه . ومن هنا كان الخط الحجازي يستعمل في الكتابة العادية ، والكوفي في الكتابة الزخرفية . واشهر الذين كتبوا في صـــدر الاسلام اربعة ، هم : زيد بن ثابت ، وعبدالله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام . وهم الذين كتبوا المصاحف لعثمان ، وكانت الكتابة بـلا تنقيط ولا شكل ، الى ان وضع ابو الاسود الدؤلي ، العلامات للشكل ، والى ان وضعت بأمر الحجاج نقط الإعجام . . والشائع ان ذلك تم في خلافة عبد الملك بن مروان . ولا عجب ان يكون للحجاج يد في ذلك ، فقد اشتغل بتعليم الصبيان ، ورأى صعوبة عدم التنقيط ، للمعلم والمتعـلم على السواء ، كما لا عجب ان يكون لابي الاسود الدؤلي ، يد في وضع الشكل ، لما لهذا من علاقة بالنحو وهو من اصحابه واعلامه . .

وجـــاء بعد تحسين الكتابة او الخط ، ضبط الكلام العربي ، بوضع القواعد له . والمعروف ان ابا الاسود الدؤلي بدأ ذلك ، ويقال انه تعلمه من علي بن ابي طالب ، وكان ذلك بالبصرة ، ثم ظهر مثله في الكوفة . وحركة درس قواعد اللغة هذه ، هي اصـــل المذهبين المشهورين في النحو ، مذهب البصريين ، ومذهب الكوفيين .

والثابت ان ضبط الخط العربي ، ووضع القواعد للغة العربية يعد من اهم الخطوات الكبرى ، في تقدم التعليم في تاريخ الاسلام . فهذا سهّل مهمة المعلم والمتعلم ،

ونشّط حركة التدوين واعان على النقل والتـأليف . ولا يخفي ان وجود الكتابة ، هو اساس كل نظام للتعليم ، بخلاف التربيـة التي لا ضرورة لازمـة للكتابة فيها ..

اما اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية ، فهو ايضاً من اهم الخطوات الكبرى ، في تقدم التعليم في هذا الدور ..ولقدجاء العرب الى الشام والعراق ومصر ،فأبقوا الناس على ما هم عليه . وبلغ بهم التسامح ، ان جعلوا سجلات دولتهم ، بأيدي كتاب من الروم والكلدان والقبط ، يكتبونها بلغة البلد ، وبحسب ما تعودوه في زمن سادتهم السابقين . واستمر العرب على هذه السياسة ، الى زمن عبـد الملك ابن مروان ، فأمر ان تكون لغة دواوين الدولة ، باللغة العربية دون سواها . وكان لهذا التغيير سببين الاول : تنفيذ سياسة بني امية العربية باعلاء امر العرب ورفع شأن لغتهم ... والثاني: اتساع نطـاق الدولة ، واتخاذهـا صورة مدنية ، لا غني فيها عن الكتابة بلغة الملك .

اما المظهر الثالث من مظاهر التقدم ، فهو وجود طبقة من معلمي الصبيان . وقد ذهب بعض الباحثين ، الى ان معظم المعلمين في صدر الاسلام ، كانوا من الموالي . ويقولون ان سبب ذلك ، انشغـال العرب بالحرب ونشر الاسلام ، واحتقارهم المهر والحرف ، ولكن اطلاق هذا الرأي او الحكم ليس من التاريخ في شيء ...

فليس من شك ان عدداً من الذين اشتغلوا بتعليم الصبيان في صدر الاسلام، كانوا من الموالي غير العرب ، وبعضهم كانوا من النصارى او اليهود العرب . ولكن عمل هؤلاء ، كان يقتصر على الناحية المدنية ، اي تعليم القراءة والكتابة والحساب ، وقليل من الشعر والاخبـار . امـا التربيـة والتثقيف والتهذيب ، فكانت كلهـا موكولة الى القراء – قراء القرآن الكريم .. وهذه هي الناحية الدينية للتربية والتعلم في هذا العهـد . وهذا التميز بين الطبقتين من المشتغلين بالتعليم والتهذيب ، يفسر التضارب بين آراء المؤلفين الكبـار في

المعلم . فالنوادر التي يذكرها الجاحظ عن المعلمين ، لا يمكن ان تكون موجهة لاناس كانوا يعلمون القرآن الكريم . واقرب الى الصواب والمنطق ، ان نقول، ان الناس كانوا يتجرأون بمثل ذلك على المعلمين من الموالي .

وتذكر كتب الادب والتاريخ ، اسماء رجال كبار ، اشتغلوا بتعليم الصبيان ، منهم حاكم العراق الحجاج بن يوسف ، والكاتب الشهير عبد الحميد الكاتب ، والراوية القاريء ابو عمرو بن العلاء ، فهذه الطبقة من المعلمين، هي التي يصفها ابن خلدون في كلامه عن المعلمين بقوله عن اهل الانساب والعصبية: «انهم لا ينطبق عليهم ، ما كان الناس يتناقلونه عن حمق المعلم وقلة عقله ،ويدل على ذلك ، ان الحجاج ، وهو قائد كبير ، قد عيّر بانه كان يوماً معلماً ، اي من هذه الطبقة الموصوفة بتلك الصفات ..»

اما مظاهر الاضطراب في التربية في هذا الدور ، فاولها ما نشأ عن سياسة الدولة .. فقد كانت وسائل التربية والتعليم في الجاهلية ، تنحصر في الشعر ، والاخبار ، والعرف البدوي في السلوك ، والحروب ، والايام . وتكاد تكون وسائل التربية والتعليم ، في زمن الرسول والخلفاء الراشدين ، تنحصر ايضاً في القران الكريم ، والقدوة بالرسول والصحابة ، والشعر والاخبار . اما في عهد بني امية ، فتكاد تكون محصورة في اخبار الجاهلية واشعارها ، والعرف العربي في السلوك ، والقران الكريم .. اي ان بني امية ، رجعوا بالتربية الى الجاهلية في كثير من مثلها ووسائلها ...

وكان من نتائج السياسة التي سار عليها بنو امية ،ان نشأت احزاب اخرى، دينية وسياسية ، تسعى لتثبيت مُثل الاسلام ، واذكر من هذه الاحزاب القراء ، والزهاد ، والخوارج .

واستمر كثير من الصحابة والتابعين ، حفظة القران الكريم والحديث الشريف ، يعلمون الناس ويهذبونهم . وظهرت طبقة من الزهاد ،همّهم الابتعاد

عن الدنيا ، ودرس القران ، وتأويل معناه ونشره . وقامت فرقة الخوارج، ولها مباديء دينية وسياسية ، تنشرها بالتعليم تارة ، وبالسيف تارة اخرى . فكثرت الاحزاب والفرق ،وزادت في اضطراب طرق التربية والتعليم ومثلها في زمن بني امية .

وكانت غـايات التربية والتعليم اولاً لا تتعدى المقدرة على القراءة والكتابة ، ومعرفة الشعر والاخبار .. ويروى عن عبد الملك بن مروان انه كان يتردد في تولية ابنه (الوليد) بعده ، لانه كان كثير اللحن ضعيفاً في النحو .

وثانياً : ركوب الخيل ،والرماية ، والسباحة ، ولهذا كانوا يرسلون ابنـاء الخلفاء الى الصحراء ، ليتعودوا حيـاة القوة والشدة ، والنطق باللسان العربي الصحيح ، كما فعل معاوية بابنه يزيد وكما فعل غيره بعده.

وثالثاً : معرفة الحلال والحرام ،حسب العرف الجاهلي والعرف الاسلامي .

وقد تمّ في زمن بني امية امران مهمان من حيث البحث في التربية والتعليم، وهما ادخال الشكل والتنقيط في الكتابة ، وجعل اللغة العربية دون غيرهـا لغة الدولة ، وقد ساعد هـذا حركة التدوين والنقل والتأليف ، التي اينعت في زمن بني العباس ، ولكنه لا يصح ان نعزو ظهورها كلها الى الدور العباسي . لان المشهور ان شيئاً من التدوين قد تمّ في زمن بني امية ، وان الناس كانوا يبحثون في اخبار العرب ، وان ابن (شرية) كان همه ان يلبس قصص الجاهلية، حلة جديدة ، يرويها في المجالس ، وان طبقة من المسلمين ، كان لا يلتقي الواحد منهم بالآخر ، دون ان يسأله رواية حديث عن رسول الله ﷺ . فالنشـاط الذي يلاحظه الباحث ، في اول عهد بني العباس ، له مقدمات بدأت في عهد بني امية ..

ومن نتائج اصلاح الخط العربي واتخاذ اللغة العربية لغة رسمية ، ان بدأ النشاط في درس القرآن الكريم والحديث واللسان العربي وذلك في ايام عبـد

الملك بن مروان وعامله الحجاج على العراق ، فقد اشتهر جامع البصرة بدروسه ومحاضرات علمائه، ففيه كانت تقام حلقات البحث والمناظرة والدرس، الى هذه الحلقات تعود كثير من الفرق الدينية في اصولها . . فمجالس الحسن البصري فيه مشهورة ، وكذلك كان الشأن في جامع الكوفة ، وقد بدأت الحركة الادبية والعلمية في هذين البلدين قبل غيرهما من البلاد الاسلامية الاخرى، ومن غريب امرهما انهما كما شاركتا في الثورات السياسية والمنازعات الحزبية ، شاركتا ايضاً في النهضة العلمية ، ونشر المعرفة . .

المرأة العربية في هذا العهد :

ولقد نعمت المرأة في الاسلام بقسط وافر من الحرية، وفي عهد الراشدين اختلط النساء بالرجال ، وكن يسمعن خطب الخلفاء والمحاضرات الدينية التي كان يلقيها الامام علي بن ابي طالب وعبدالله بن عباس في المسجد ، وكان العرب قبل الاسلام يتزوجون باكثر من واحدة ، فلما جاء الاسلام نظّم الزواج ، ورفع من شأن المرأة ، وحرّم الوأد ، وجعل للمرأة حظاً مقرراً في الارث ، واباح الزواج باكثر من واحدة الى اربع . . شرط ان يعدل الزوج بينهن، ولا يفضل واحدة من زوجاته على الاخرى .

ولقد اباح الاسلام الزواج باكثر من واحدة لقلة عدد الرجال واشتراكهم في الحروب والغزوات المختلفة ، وحتى لا تترك الارامل والبنات اللاتي لم يتزوجن عالة على المجتمع ، فتفسد الاخلاق ويقل النسل . .

ولا ادلّ على ذلك من ان بيت رسول الله كان يأوي اليه اكثر من عشر من النساء ، تزوج رسول الله اكثرهن بعد مقتل ازواجهن في الحرب ، او لغايات سياسية عالية من تألف قلوب آبائهن الى الاسلام ، ونضرب الامثال على ذلك انه لما هرب بعض المسلمين الى الحبشة فراراً من اذى اهل مكة ، توفي احد المسلمين فيها ، فكتب رسول الله الى النجاشي ليكتب عقد زواجه على

الارملة زوجة المسلم المتوفي حتى لا تبقى عالة على المجتمع ، حفظاً منه لمقامها ، وتعزيزاً لمنزلتها ، واكثر المؤرخين يشكون كثيراً في كون رسول الله قد عاش مع كل ازواجه عيشة الزوج ، بل ان بعض المستشرقين يعتقدون ان زواج محمد من خديجة كان زواجاً سياسياً واجتماعياً وزواج رحمة وحنان ، لا زواج شهوة وشغف .

وعمل الاسلام على الغاء الرق – عن النساء ايضاً – فجعل مصدره الوحيد اسرى الحرب المشروعة التي يعلنها المسلمون على غيرهم ، وكان الرق الى ذلك يختلف من حيث معاملة الرقيق والرأفة به في الاسلام عن غيره عند الامم الاخرى ..

وحرّم رسول الله النخاسة حتى لا يحرم الاباء من ابنائهم ، وأمر ان يطعم الارقاء رجالا ونساء ويكسون مما يأكله ويكتسي به اسيادهم،واوحى بحسن معاملتهم ، كما سمح لهم ان يفتدوا انفسهم ، وشجّع العتق واعتبره من أكرم الفضائل والاعمال التي يتقرب بها المرء الى ربه فكان الارقاء في الاسلام كافراد الاسرة الواحدة .

واتجهت قوى المرأة في صدر الاسلام الى العمل كالرجل في سبيل العلم والحرب ونشر الدين ، فزاول النساء صناعة الادب والشعر ، كما زاولوا صناعة الحرب والقتال ، ومنهن عائشة زوج رسول الله ، فقد كانت ذات عقل راجح، ودهاء وقوة ، حتى رأست حزباً سياسياً كبيراً ، وحاربت علياً ،ورويت احاديث كثيرة عنها .. وقصدها طلاب العلم من مختلف الاقطار ليفيدوا من معارفها وعلمها .

وهناك عائشة بنت طلحة بن عبيدالله احد الصحابة ، كانت مفرطة الجمال تقيم في المدينة ، ولها عقل ورأي وعلم واسع باخبار العرب وايامها وفي مطالع الكواكب واحوالها ، وكانت مع جمالها لا تستر وجهها عن الرجال لعظم قدرها

وكبر نفسها ، وكثيراً ما كانت تجلس في قصرها فيتناضل بين يديها الرمـاة ويتفاخرون بما ينالونه من اعجابها ، وكانت اذا حجت يجيئها النساء الشواعر وغيرهن ، ويدخل عليها الشعراء فتجيزهم الجوائز الكبيرة ، وكان لها موكب لم يسمع بمثله في عصرها مؤلف من عدة مواكب ، واحد لماشطتها ، وآخـر لخازنتها ، وآخر لكل من كبار اتباعها ، اما موكبها الخاص فكان مؤلفاً من (٣٠٠) راحلة عليها القباب والهوادج .

وكان قد تزوجها مصعب بن الزبير الذي مات قتيلاً في المعركة التي جرت بينه وبين عبد الملك بن مروان .

وكانت سكينة بنت الحسين بن علي معاصرة عائشة بنت طلحة في المدينة، سيدة كريمة .. فاضلة عالمة تجالس الاجلّة من قريش ويجتمع اليها الشعراء ، وتأذن للناس اذناً عاماً ، حتى تغصّ الدار بهم ، فتـأمر لهم بالاطعمة ، ثم تطرح على الشعراء الاسئلة في الشعر والادب ، وتنتقد اقوالهم وتجيزهم ،وتفضل البعض منهم على البعض الآخر ، فكان قصرها والحالة هذه ندوة ادبية كهذه النوادي الادبية المعاصرة التي اشتهرت في اوروبا في القرن التاسع عشر ..

وحديث اسماء بنت ابي بكر ام عبدالله بن الزبير لما حاصره الحجـاج في مكة ، وقطع الامل من الرجاء ، وجاء اليها يسألها رأيها ، فامرته بان يقاتل حتى الموت شريفاً كما عاش شريفاً . يصور المرأة العربية في هذا العصر أجمـل تصوير واجله ..

المرأة في العصر الاموي :

فلما كان عصر بني اميـة ، وزاد الترف ، تعلق بالاخـلاق شيء من الفساد فاخذ الشعراء يشببون بالنساء ، ويكثرون من التغـزل بهن ، ويرتصدونهن في مكة يوم الموسم حتى قال احد الشعراء :

ياحبذا الموسم من موقف وحبذا الكعبة من مسجد
وحبـذا اللاتي يزاحمننا عند استلام الحجر الاسود

فلما سمع عامل مكة هذا الشعر ، وكان خالد القسري ، أمر بالتفريق بين الرجال والنساء وكانوا قبلاً لا يفرّقون بينهما أبداً .

واخذ الشعراء في الوقت نفسه ينظرون الى المرأة نظرة خاصة ..

كانت المرأة تشارك الرجل قبلاً في طلب العلم والحرب، وقاد بعضهن الجيوش في ايام الخوارج ، فلما كان عهد امية ، اخـذ الشعراء بعـد الانغماس في الترف ينظرون الى النساء نظرة فيها الكثير من الانوثة ، واخـذو يعتبرون الاساءة اليها وحربها جناية عظيمة منكرة ، وقال شاعرهم يعبّر عن افكارهم هذه :

كُتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيـات جرُّ الذيول

وفي الوقت الذي لم يكن الغرب يعرف شيئاً عن الشعر النسائي الغرامي ، وصل هذا الفن في الحجاز خاصة الى اقصى درجاته في ايام عمر بن ابي ربيعـة وكثـّير وجميل وغيرهم من الشعراء ..

الحياة في مكة والمدينة :

وهنا لا بد من الاشارة الى الحياة الخاصة المرفهة التي يحيـاها اهل المدينـة ومكة لانها تصور الاسباب التي ساعدت على بروز هذا الشعر النسائي الرائع في المراكز المقدسة في الاسلام دون غيرها من البلاد والامصار ..

فقد وجهت الحياة الهادئة البعيدة عن السياسة التي كان يحياها سكان المدينة بعد تقلص النفوذ السياسي عن بلدتهم ، وانتقال العاصمة الى دمشق.. اهل المدينة الى درس الحديث والقرآن ، فاصبحت المدينـة مع الايام مركز الدراسات في الحديث خصوصاً في عهد انس بن مالك (٧٠٩–٧١١ مات) وعبدالله بن عمر بن الخطاب المتوفي سنة ٦٩٣ م . أما مكة فاشتهرت بابن عباس المتوفي سنة ٦٨٨،

وغيره من العلماء والاعلام ..

ومما لاشك فيه أن كثيراً من الناس الذين ذهبوا الى المدينة ومكة ليعيشوا فيها كانوا يفضلون اعتزال الحيـــاة المضطربة القلقة ، والحربيات الشديدة ، التي كانت تعج في العراق ودمشق وغيرهما من امصار الامبراطورية العربية ، كما انقطع اليها من سكانها من قطع امله من النجاح السياسي ، فاخذ نفسه الى حياة الدعة والرفاهية ، وساعده على ذلك المـال الذي جمعـه من الفتوح العظيمة ، والعطاء المقرر الذي كان يتنـاوله من بيت المال ، لكونه من اولاد المهاجرين او الانصار ، كما يجب ان لا ننسى ان خلفاء بني امية كانوا في الوقت نفسه لا يتأخرون عن اضعاف العطاء لبعض ابناء المهاجرين والانصـار صرفاً لهم عن السياسة والتفكير في السياسة .

وبانقطاع الناس عن التفكير السياسي ، وتكاثر المـال بين ايديهم وازدياد العبيد والخدم والجواري عنـدهم ، قامت القصور الجميـلة ، والبساتين النضرة حول الكعبة والمدينة ، واخذ الناس في ألوان من التسلية لتمضية الوقت كان اولها ظهور الغناء والموسيقى ، وقول الشعر والتشبيب بالنساء اللاتي كن يردن مكة وقت الحج ، اذ اصبح الحج الى مكة يخلق في الحجاز جواً يماثل الجو الذي كان يخلقه سوق عكاظ في الجاهلية ، من حيث صدور الناس اليه وازدياد التجارة والاخذ والعطاء فيـه ، وانشاد الشعراء لشعرهم مـا كان الى هذا من سبيـل ..

وقد تبع كل هذا ظهور المغنيات (القيان)، بعد ظهور المغنين ، وباستفحال الغناء والطرب والموسيقى في الحجاز ، اخذ يقصد الحجـــاز كل انسان فيه هوى الى الغنـــاء والموسيقى ، كما استقر في الحجاز في الواقع اكبر الموسيقيين وأعظم المغنين .

شرف المرأة العربية :

ومع تكاثر النساء ، وتعدد وسائل اللهو ، وظهور كل اسباب الاغراء ، واتخاذ الخصيان في قصر الخلافة ايام سليمان بن عبد الملك ، وكان اتخاذهم أول مظهر من مظاهر الفساد في البلاد الاموي [1]

فان المرأة العربية رغم ذلك ، حرصت على بساطتها البدوية ، وعلى الحرية التي درجت عليها ايام الجاهلية ، فلا تعجب اذا فخر الاباء ببناتهن وكانوا في العهد الجاهلي يعملون لدفنهن احياء خوفاً من العار يلحق بهم ... اذا غزاهم غاز فاستلب بناتهم منهم — فكان الرجل لا يتحرج عن ان يكتنى باسم ابنته ، او زوجته او اخته ، فيناديه اصحابه بابي ليلى او ابي بثينة .

الشعراء والنساء :

واول من تجرأ من الشعراء القرشيين على التشبيب بالنساء ابن ابي عتيق ابن حفيد ابي بكر الصديق ، وكان من اهل الطهارة والعفاف ، وانما كان يتشبب عن غير ريبة ، واقتدى به عمر بن ابي ربيعة القرشي وكان لا يمدح إلا النساء ، ومن سمع شعره ظنه من اجرأ الناس على فاحشة ، وهو لم يحل ازاره على حرام — على قول الجاحظ ، وكما اعترف هو في اخر ايامه — .

وفعل مثلها كثير من شعراء قريش حتى ان عبد الرحمن بن حسان بن ثابت شبب بعاتكة بنت معاوية وهو خليفة ، فغضب يزيد بن معاوية ، وطلب من ابيه ان يقتله ، فاحتال معاوية على عبدالرحمن لما وفد عليه الى دمشق وقال له:

---

(١) يقول المستشرق فون كرامر : ويرجع اتخاذ الحريم الى عهد الوليد الثاني الذي ادخل كثيراً من العادات البيزنطية في البلاط الاموي .. واتخذ الخصيان في السراي ، وكان الاغريق اول من سن هذه السنة السيئة »، وقد انتقد الجاحظ هذه العادة التي انتشرت ايضاً في القرن الثالث انتقاداً مراً ...

- ان ابنتي الاخرى عاتبة عليك .

فقال الشاعر : في اي شيء ؟

فقال معاوية : في مدحك اختها وتركك اياها .

فراح الشاعر يمدح ابنة معاوية الثانية ، فلما عرف الناس بذلك ضحكوا لان معاوية لم ينجب غير فتاة واحدة ..

وشبب ابو دهبل ايضاً بابنة معاوية ، فعامله معاوية باللين وقطع لسانه بالعطاء وزوّجه حالاً ، فعلم الناس ان تشبيبه كان هواء في هواء .

واما الشاعر الذي ذهب ضحيه تشبيبه بنساء الخلفاء فهو وضاح اليمن ، وكان يشبب بامرأة الوليد بن عبد الملك بن مروان ام البنين،فهمّ به فمنعه ابنه عبد العزيز مخافة ان يظن الناس الظنون ، فامسك عنه على غيظ وحنق حتى بلغه انه تعدى ام البنين الى اخته فاطمة بنت عبد الملك، وكانت زوجة عمر بن عبد العزيز فقال فيها :

بنت الخليفة والخليفة جدها	اخت الخليفة والخليفة بعلها
فرحت قوابلها بها وتباشرت	وكذاك كانوا في المسرة اهلها

فاشتد غيظه ، وقال : اما لهذا الكلب مزدجر عن ذكر نسائنا واخواتنا ولا له عنا مذهب ؟

ثم امر به فأحضر ، وامر ببئر فحفرت ودفنه فيها حياً ..

وممن اشتهر ايضاً بالتعرض للنساء والتشبيب بهن في ذلك العصر (الاخوص)، كان يشبب بنساء ذوات اخطار من اهل المدينة .. فشكوه الى سليمان بن عبد الملك ، فامر بالقبض عليه ، وجلده ونفاه .

وظل الخلفاء الامويون واول خلفاء العباسيين يشددون على من يشبب من الشعراء بالنساء حتى تطورت الايام ، وزاد الترف ، واستقرت الحضارة ،

وخفت الغيرة بين الناس .

وعلى ذكر ام البنين امرأة الوليد نقول انهـا اشتهرت في عصرها بالبلاغة وقوة الحجة ، وقصتها مع الحجاج بن يوسف حـاكم العراقين .. وهو من هو من حيث الفصاحة والبيان حين زجرته وأنبته على اعماله، معروفة مشهورة ، فما استطاع ان يرد كلمة ، او يأتي بحجة معها ..

وهي الى هذا واحدة من عشرات من نساء العرب اللواتي اشتهرن في هذا العهد ، وبلغن مبلغ الرجال في العلم والفصاحة والادب وطلب العلم ...

- ٢٢ -

البحر المتوسط

وسيطرة الاسطول العربي عليه

خطر البحر المتوسط :

لن يكون كتابنا هذا تاماً إلا اذا عرضنا للسياسة البحرية التي اتبعتها الدولة الاموية في البحر الابيض المتوسط وما كان من اثرها وشأنها وخطرها في مقبلات الايام ..

فقد ظل البحر الابيض المتوسط مركز الحضارة والتجارة ، منذ كان للانسان حضارة وتجارة ، الى ان نازعه المحيط الاطلسي هذا المركز ، واحتلّ المقام الاول في تجارة العالم ، وكان البحر المتوسط الهدف الاكبر لجميع الامم ، التي بسطت سيطرتها على سواحله ، ولم تستطع أمّة منها ، تثبيت اقدامها على هذه السواحل ، اذا هي عَجَزت عن امتلاك تلك السيادة .. فقد مَلك الفُرس يوماً الساحل الممتد من القسطنطينية حتى حدود مصر ، ولكن سيادة اليونانيين البحرية قضت على نفوذهم ، فلم ترسخ اقدامهم على ذلك الساحل . وهو ما جرى للاشوريين والحثيين ، فلم يثبت بُنيانهُم أمام اعاصير الزمن ، لانه بنيان لم تؤيّدهُ السيادة البحرية .. ولا الاساطيل الضاربة .

وكان المصريون ، وهم في أوج عظمتهم ، سادة البحر المتوسط والبحر

الاحمر . ثم انتقلت هذه السيادة الى اليونانيين ،وبها نشروا ثقافتهم ومدنيتهم من اقصى الشرق الى صِقلِّيَّة وجبل طارق . وآلت هذه السيادة بعدهم ، حيناً من الدهر ، الى الفينيقيين ، حتى ظهرت عليهم روما ، ثم بيزنطة ، ومن الروم انتقلت سيادة البحر الى العرب ، وظلّت في ايديهم الى ما بعدالحروب الصليبية ، ثم أورَثوها المماليك في مصر ، والاتراك العثمانيين في الدولة العثمانية، وقد ضمنت هذه السيادة للعرب ، توطيد اقدامهم في البلاد التي فتحوها على السواحل ..

ولما اجتاح العرب الشام ومصر ، ورثوا في هذين القطرين ، مراكز تجارية، ودور صناعة للسفن عظيمة ..

فقد كانت الاسكندرية مثلاً اغنى مدينة في العالم في ذلك العهد ، وكانت قاعدة بحرية عظيمة للروم ، وكانت لهم قواعد اخرى في قيسارية والقُلزُم وغيرهما . وقد ادرك العرب أهمية السيادة البحرية ، عندما نزل الروم الى الاسكندرية ، وكانت في ايدي العرب مدة ثلاث سنوات ، كما لمسوا أهمية التجارة في البحر المتوسط ، ورأوا ما يحول دونها من الصعوبات والاخطار ، ما دام الاسطول الرومي واقفاً لهم بالمرصاد ، يقطع عليهم الطرق البحرية ، ويتهددهم بالويل والشر . وكان الامر كذلك ،بعد ان احتلّ العرب قرطاجنة ، وعاد الروم فانتزعوها منهم . وقد أيقن العرب من كل ذلك ، ان لا سلامة لهم في الاقطار التي اكتسبوها ، إلاّ اذا تسنّى لهم التغلب على اسطول الروم وطرده من البحر .

ومن المؤكد ان شرف انشاء النّواة الاولى للاسطول العربي الاول،وكسب أول معركة بحرية فيه يعود الى معاوية بن ابي سفيان ، وكان وقتئذ اميراً للشام، والى عبدالله بن سعد بن ابي سرح ، امير مصر . وكان معاوية اول من فكر في اقتحام البحر ، فكتب الى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك ، وقال

له في جملة ما كتب :

«ان الواقف على ساحل البحر في اقليم حمص ، يسمع صيــــاح الديكة في اقرب الجزر الى الساحــل الشامي ، وهي (يريد الجزر) التي كانت لا تزال في ايدي الروم ، وهم منها يقدرون ان يغيروا على الشام ..»

وكان الخليفة يوجس خيفة من البحر ، فخشي ان لا يدرك العرب فيــه النجاح الذي حالفهم في المعارك البرية ، لانهم لم يألفوه ولا عرفوه ولا خبروه. ويقال انه استشار عمرو بن العاص في ذلك وسأله ان يصف له البحر ، فقــال عمرو في وصفه : »

«انه البحر، سماء وماء ، الراكب فيه، دود على عود، فالخارج منه مولود، والداخل اليه مفقود»..

فابى الخليفة ان يأذن لمعــاوية في ركوب البحر . وبقيت هذه الرغبة في نفس معاوية ، يتحين الفرص لتحقيقها ، حتى كان عهد عثمان بن عفان ، فعرض الامر عليه ، فوافق عثمان ، على ان يخيّر الناس في ركوب البحر ، وان لا يؤخذوا اليه قسراً .. وتمّ لمعاوية ما اراد ، وبنى اسطوله ، وقام بواسطتــه بحملات صغيرة كثيرة على شواطيء الروم ، كان اشهرها فتح قبرص سنة ٦٥٤ .

وكان عبدالله بن ابي السرح من رأي معــــاوية في اهمية السيادة البحرية ، وكانت الحملة الاولى على قبرص بقيادة ابن سرح نفسه ، واشترك فيهــا اسطول الشام واسطول مصر .. وفي هذه الحملة لم يمكث العرب طويلاً في قبرص ، بل صالحوا اهلها ، على ان يؤدوا للعرب جزية مقدارها سبعة الاف دينار كل سنة، وللروم مثلها ، وان ينذروا المسلمين بكل تعد للروم عليهم ، وان ينزل العرب على اهل الجزيرة كلما وقعت حرب بينهم وبين الروم . غير ان الروم لم يعبأوا بشيء من كل هذه الشروط ، وعادوا فاستردوا الجزيرة ، ولم يعدالعرب اليها ويمتلكوها إلا في القرن التاسع .

معركة السواري :

واخذ العرب بعد حملتهم الاولى على قبرص ، يحــاولون بسط سيادتهم على

البحر المتوسط . وقد تمّ لهم ذلك بعد هذه الحملة بربع قرن ، واصبحت لهم السيادة التي ارادوها . وقد شجعهم هذا على ارسال اسطول ضخم ، تبلغ سفنه الالف ، الى القسطنطينية لحصارها ، وكانت اهم معركة مهدت لهم كل هذا ، المعركة المعروفة بذات السواري ، التي حدثت بعد فتح قبرص بقليل ، على عهد امبراطور البيزنطيين في ذلك الوقت ...قسطنطين الثاني ابن هرقل .

وقد اطلق عليها هذا الاسم .. إما لكثرة السفن واختلاطها بعضها ببعض اثناء القتال ، او لكثرة ما غرق من سفن الروم فيها ، وبقاء (سواري) هذه السفن ظاهرة فوق سطح الماء ، او لانها وقعت تجاه ساحل الاناضول ، حيث تغطي الاشجار الكثيفة ، سفوح الجبال القريبة من مكان المعركة ، فتظهر على اهل الجزيرة ، كلما وقعت حرب بينهم وبين الروم ..

وكان للعرب في هذه المعركة ، اسطولهم المصري واسطولهم الشامي ، وقد تمكنوا من بنائها وتجهيزهما بسرعة ، بفضل القواعد البحرية التي انتزعوها من الروم ، وبفضل مهرة العمال من سكان مصر والشام ، الذين عملوا باخلاص في بناء هذه السفن وتجهيزها وخدمتها ، وكانوا بحارتها ، في حين ان العرب لم يكونوا فيها الا جنوداً محاربين. وكان نجاحهم انهم استطاعوا ان يحوّلوا المعركة (في البحر) الى معركة برية . وذلك انهم اقتربوا بسفنهم حتى حاذت سفن الروم ، ثم ربطوا هذه بتلك ربطاً محكماً بالحبال ، وشرعوا في القتال على ظهور تلك السفن ، التي اصبحت ميداناً ، واخذ الفريقان يناجزان بعضهما بعضاً بالسيوف والحراب . ولم تلبث المعركة ان اصبحت على هذه الصورة ، مجزرة هائلة ، سالت فيها الدماء غزيرة ، حتى صبغت وجه البحر ، وحتى اصبح البحر لكثرة ما غرق فيه من السفن ، اشبه بغابة احترقت اشجارها .. وكان الاسطول الرومي يقوده الامبراطور ، وقد نجا بنفسه مثخناً بالجراح ، بعد ان فقد اسطوله ورجاله .

كانت هذه المعركة نصرا مبيناً للعرب ، تشبه نصرهم في اليرموك .. ففي اليرموك،احرز العرب نصرهم الاول على الروم في البر ، وفي هذهالمعركة احرزوا نصرهم الاول في البحر . وبين المعركتين نحو عشرين سنة .. غير ان خالد بن الوليد ، بطل اليرموك ، عرف كيف يستثمر نصره الى اقصى الحدود ، بينما لم يوفق (ابن سرح) الى مثل ذلك،وليس يعود اللوم على هذا القائد الباسل، فاتح برقة وطرابلس وقبرص ، وانما سببه في نظرنا الفتنة التي ثارت على الخليفة عثمان ابن عفان ، وانتهت بقتله ، وآلت الى انقسام الامة ، والى الحروب الاهلية التي نشبت بين احزابها .. وقد كان (عليّ) في الحجاز ، وعائشة في العراق ، ومعاوية في الشام ، يتنازعون جميعاً السيادة والسلطان ، فاخرّت هذه الحوادث المؤسفة ، فتوح العرب البحرية ، ولم يعودوا اليها إلا بعد ان استتب الامر لمعاوية ، فعاد الى ما انقطع منها ، وهاجم الروم في البحر ، وارسل الى القسطنطينية خلال سنة ٦٦٩ ميلادية اسطولاً فيه ابنه يزيد ، وجيشاً برياً بقيادة سفيان بن عوف، على ان تلتقي القوتان امام اسوار العاصمة الحصينة .

حصار القسطنطينية :

ووصلت القوتان الى اسوار عاصمة الروم في ربيع تلك السنة ، وضربتا عليها الحصار . وتوفي في اثناء هذا الحصار ابو ايوب الانصاري ، حامل راية النبي ﷺ . وكان ابو ايوب هذا ، اول من نزل النبي في داره في المدينة ، يوم هاجر اليها من مكة . وقد توفي ودفن تحت اسوار القسطنطينية ، وبقي قبره مزاراً للنصارى في بلاد الروم . ثم بنى عليه الاتراك العثمانيون جامعاً ، كان يتقلد فيه سلاطينهم سيوف الخلافة ..

وجهز معاوية في اواخر ايامه ، حملة بحرية قوية، قهرت الاسطول الرومي، وهزمته وردته الى بحر مرمرة . ثم حاصرت عاصمة البيزنطيين حصاراً دام سبع سنين،وكان اطول حصار عرفه التاريخ استطاع العرب في اثنائه احتلال رودس

وكريت . ولم يتوقفوا عن متابعة فتوحهم إلا بعد وفاة معاوية وقيام الخلافات والفتن ، التي ظلت تفتك وتعبث في البلاد ، الى ان ولي الخلافة عبد الملك ابن مروان . وفي عهد ابنه سليمان ، عاد العرب فقاموا بحملة جديدة على عاصمة الروم ، وكانت آخر حملاتهم عليها .. وباحتلال العرب صقلية في القرن التاسع، وبسط سيادتهم على اسبانيا ، اصبح البحر المتوسط جميعه في قبضتهم ، فاتخذوا في سواحل ايطاليا ، مراكز تجارية خطيرة،واحتكروا تجارة البحر من شرقه الى غربه .

جزر البحر المتوسط :

وتقول المصادر الاجنبية في هذا الصدد ، انه بعد ان انشأ العرب اساطيلهم في ثغور الشام ومصر ،تطلعوا الى الجزز البيزنطية في الجزء الشرقي من البحر المتوسط ، وهي قبرص وكريت (اقريطش) ورودس ، وكانت كلها من القواعد البحرية الكبرى للاساطيل البيزنطية ، وكان معاوية اول من جهز غارة على قبرص سنة ٢٨ هجرية ٦٤٩ م في عهد عثمان،ويقول (البلاذري) ان عثمان لم يكن راضياً عن هذه الغزوة ... وقد تمت الغارة ونجحت ونزل العرب الى رودس وكريت ثم جلوا عنها .

وفي العقد السادس للهجرة استولى العرب على جزيرة في بحر مرمرة وجعلوها قاعدة بحرية لهم وبذلك استطاعوا ان يديروا رحى حرب طاحنة براً وبحراً ضد البيزنطيين ، مدة سبع سنوات ، على مقربة من القسطنطينية التي كانت نفسها على وشك السقوط في يد العرب حينئذ .

وتاريخ العرب في جزيرة (كريت) المعروفة لدى مؤرخي العرب وجغرافييهم باسم اقريطش ، تاريخ عظيم الاهمية ... فقد حاول الغزاة قديماً فتحها عدة مرات وفي سنة ٥١ هجرية الموافقة سنة ٦٨١ ميلادية .. فتحها عرب الشام واحتلوها مدة قصيرة ، ثم تركوها ولم تدخل ثانياً في مدار التاريخ الاسلامي، الا بعد ذلك بزمن طويل ...

انتهى الكتاب

فهرس الكتاب

الفصل	الصفحة	
	٧	هذا الكتاب
١	٩	ظهور بني مروان
٢	٢١	اتفاق الآراء في دمشق
٣	٣٢	الاتفاق في الجابية
٤	٤٥	مروان بن الحكم
٥	٦١	عبدالله بن الزبير
٦	٧٢	ابن الزبير يعلن استقلاله
٧	٨٠	عبدالله بن الزبير
٨	١٠٠	عبد الملك بن مروان
٩	١٢٢	الحجاج بن يوسف
١٠	١٣٤	سياسة الحجاج في الحجاز والعراق
١١	١٤٤	الخوارج في عهد عبد الملك بن مروان
١٢	١٦١	الحجاج والخوارج
١٣	١٧٥	القضاء على الخوارج
١٤	١٨٤	اخبار الخوارج وجرأتهم في سبيل عقيدتهم
١٥	١٩٥	تعاليم الخوارج ومذاهبهم

الفصل	الصفحة	
١٦	٢٠٢	الاضطرابات الداخلية
١٧	٢١٩	عبد الملك والحجاج
١٨	٢٤٣	ايام عبد الملك الاخيرة
١٩	٢٥٨	العراق مركز الثقل
٢٠	٢٦٧	مشكلة الموالي
٢١	٢٨٥	التعليم الحر في الدولة الاموية
٢٢	٣٠٢	البحر الابيض المتوسط وسيطرة الاسطول العربي عليه

مصادر الكتاب

١ – ابن الاثير   الكامل في التاريخ

٢ – احمد بن ابي يعقوب   تاريخ اليعقوبي

٣ – ابو يوسف   كتاب الخراج

٤ – المقريزي   النزاع والتخاصم فيما بين بني امية وبني هاشم ..

٥ – الواقدي   فتوح الشام

٦ – ياقوت   معجم البلدان

٧ – المسعودي   مروج الذهب ومعادن الجوهر

٨ – الماوردي   الاحكام السلطانية

٩ – المبرد (ابو العباس)   الكامل

١٠ – ابن كثير   البداية والنهاية

١١ – ابن قتيبة   الامامة والسياسة

١٢ – ابن قتيبة   المعارف

١٣ - ابو الفداء   المختصر في اخبار البشر

١٤ – ابن العماد   شذرات الذهب في اخبار من ذهب

١٥ - ابن عساكر	تهذيب التاريخ الكبير
١٦ ابن عبد ربه	العقد الفريد
١٧ - ابو جعفر بن جرير الطبري	تاريخ الامم والملوك
١٨ - ابن طباطبا	الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية
١٩ - الشهرستاني	الملل والنحل
٢٠ - ابن سعد	الطبقات الكبرى
٢١ - الدينوري	الاخبار الطوال
٢٢ - ابن خلكان	وفيات الاعيان
٢٣ - ابن خلدون	العبر وديوان المبتدأ والخبر . والمقدمة
٢٤ - ابن ابي الحديد	شرح نهج البلاغة
٢٥ - الجاحظ	رسائل الجاحظ
٢٦ - »	البيان والتبيين
٢٧ - البلاذري	فتوح البلدان
٢٨ - الاصفهاني	كتاب الاغاني
٢٩ - احمد امين	فجر الاسلام
٣٠ - طه حسين	علي وبنوه
٣١ - جورجي زيدان	تاريخ التمدن الاسلامي
٣٢ - حسن ابراهيم حسن	تاريخ الاسلام السياسي
٣٣ - الخضري	تاريخ الامم الاسلامية
٣٤ - الدكتورة سهير القلماوي	ادب الخوارج في العصر الاموي
٣٥ - شكري فيصل	المجتمعات الاسلامية في القرن الاول الهجري
٣٦ - الدكتور عبدالعزيز الدوري	مقدمة في تاريخ صدر الاسلام

٣٧ ـ محمد كرد علي	الاسلام والحضارة العربية
٣٨ ـ « «	الادارة الاسلامية في عز العرب
٣٩ ـ محمد حسين هيكل	ابو بكر
٤٠ ـ « «	الفاروق عمر
٤١ ـ المرصفي	الوسيلة الادبية

وكذلك أفدنا من كتب كثيرة غابت عنا اسماؤها ، وأسماء مؤلفيها ..

كما أفدنا كثيراً من مؤلفات المستشرقين كتوماس أرنولد مؤلف كتاب الخلافة .

وبروكلمان مؤلف : تاريخ الشعوب الاسلامية .

و (اوغناس غولدتسهير) صاحب : العقيدة والشريعه في الاسلام .

وديموبين المستشرق الفرنسي مؤلف : النظم الاسلامية .

و(هوار) : مؤلف تاريخ العرب .

و(رونلدسن) : صاحب كتاب عقيدة الشيعة ..

و(امير علي) : مؤلف كتاب مختصر تاريخ العرب ، وكتاب الخلفاء ..

و(غيب) الانكليزي : مؤلف كتاب الآداب العربية .

و(فون كرمر) الالماني صاحب كتاب : الشرق تحت حكم الخلفاء

والمستشرق موير صاحب كتاب : الخلافة وظهورها وتأخرها وانهيارها..

ونيكلسون صاحب كتاب : التاريخ الادبي للعرب ..

و(ولهوزن) مؤلف كتاب : المملكة العربية وسقوطها ..

وغيرها من الكتب الكثيرة ، والمصادر العامة امثال دائرة المعارف البريطانية، ودائرة المعارف الاسلامية، والدراسات الخاصة ، التي سنحاول تعداد مصادرها في كتابنا المقبل « الايام الاخيرة للدولة الاموية » .

للمؤلف

مطبوعات المكتبة الاهلية – بيروت

هرون الرشيد
تيمورلنك
فيصل الاول
عبد الكريم بطل الريف
سيد الجزيرة العربية
البحث عن الله
الحسين بن علي
محمد النبي العربي
ماذا يجب ان تعرف عن محمد والاسلام ؟
محمد واقوال المستشرقين في رسالته.
فاطمة بنت محمد
ابو بكر الصديق (طبعة ثانية)
عمر بن الخطاب
عثمان بن عفان
علي بن ابي طالب
معاوية بن ابي سفيان
يزيد بن معاوية
الحجاج بن يوسف
خالد بن الوليد (٣ طبعات)
العراق الجديد

دار احياء الكتب العربية (القاهرة)

علي وعائشة
السياسة والخلافة عند الشيعة
الشيعية الاولى في الاسلام

لجنة النشر للجامعيين – مصر

الدهاة الثلاثة

مطبوعات مختلفة

مواقف مؤثرة في تاريخ محمد
المذاهب الاجتماعية عند العرب
الجمعيات السرية في الاسلام
رايات الاسلام « فتوحات العراق »
الفتوح العربية في سورية
الخوارج في الاسلام (الطبعة الثانية)
الحضارة العربية الاموية
ابطال العرب
محمد وعصره
كفاحي تأليف : (ادولف هتلر)
محاكمة المارشال بتان
السياسة عند العرب

الثورة العربية الفلسطينية ١٩٤٨.
جهاد فلسطين العربية ١٩٣٦
تاريخ سورية ولبنان «جزءان» .
اليقظة العربية
تركيا الجديدة
دولة الادب والبيان
رجال الجمهورية « لبنان »
عشرون سنة بعد الحرب
العرب « مجموعة في تاريخ العرب »
هتلر في ساعاته الاخيرة
لما غضبت دمشق وثار لبنان
الصراع بين اميركا وروسيا
كانوا ملوكاً
اسرار هتلر
ماذا يريد ستالين ؟
الجاسوسية في سوريا ولبنان
حرب الصاعقة
هتلر في بولونيا
عنتر بن شداد (٣ مجلدات)
كتبت في اسلوب جديد

عنتر بن شداد (مجلد واحد)
النور الاخضر
الحرب العالمية الاولى (مجلدان كبيران)
النار في الجزائر ..
الحرب العالمية الاولى طبعة جديدة ١٩١٤–١٩١٨ في (ثلاثة مجلدات).
الحرب العالمية الثالثة ١٩٣٩–١٩٤٥ في ثلاثة مجلدات .
الهوى والشباب في عهد الرشيد
ابو نواس في مباذله
غراميات هتلر
الروح السوفياتية في الادب الروسي الحديث
الفجر العربي ألفه كارانجيا الصحفي الهندي ونقله الى العربية (المؤلف)
فجر ام ظلام تأليف كارنجيا .
نهاية اسرائيل

ترجمت معظم الكتب التاريخية الى الفارسية والاوربية في الباكستان ..

كما نفدت كل هذه الكتب إلا اقلها ، وهي التي طبعت مؤخراً ، ولا يزيد عددها عن عشرة كتب على ابعد تقدير ..